العالم الإسلامي
في التاريخ الحديث والمعاصر

الجزء الثاني

دكتور
مصطفى محمد رمضان

دار الوفـاء للطباعة
٢٨ درب الأتراك خلف جامع الأزهر

أوضـــاع البلدان الاســـلامية

والأقليـــات المســـلمة

المقـدمـة

سنعرض فى هـذا الجزء من كتابنا لأوضـاع البلدان الاسـلامية والأقليات المسـلمة فى العالم وذلك بعد أن عرضنا للتغييرات المشـتركة فى الجزء الأول ابتداء من القرن العاشر الهجرى (١٦ م) حتى الآن ، فقد ان لنا أن نتعرض لكل قطر من أقطار الاسـلام على حدة ، وذلك فى اطار الحركة المشتركة التى يشهدها العالم الاسلامى اليوم .

وأعنى بالحركة المشـتركة ، حركة العـالم الاسلامى ضـد قيود الاسـتعمار عقب الحرب العالمية الثـانية ومازالت مسـتمرة حتى الآن ١٩٨٤ م) وسنظر للرجوع الى الوراء تاريخيا للتعرف على سمات الأقطار الاسـلامية وحركتها المنفردة ، آخذين فى الاعتبـار أننا اذا أردنا أن نفهم أى حركة اسـلامية أو ثورة اسـلامية فعلينا أن نرجع الى تاريخ الشعب الذى قام بها .

غير أننا لن نتخلى عن التصور العام فى هذا الجزء أيضا وخاصـة فيما يتعلق بمواجهة الاسـتعمار للدول الاسـلامية فانه يعاملهـا دائما باستراتيجية موحـدة ، فقد تمكنت الدول الاستعمارية بقوة جبروتها من أن تكبل لعالم الاسـلامى بأوضاع حدودية جائرة بعـد الحرب العـالمية الثانية ، أملاها تسـلط الحلفاء المنتصرين فى يالطة سـنة ١٩٤٥ م دون مراعاة لخطورة تمزيق العنـاصر البشرية الموحدة ، بل قصدا منهم الى زيادة تمزيق العملاق الاسـلامى الكبير الرابض وسـط العالم القديم من المحيط الأطلسى الى حدود الصين واليابان ، فقـد كان الاسلام قد تمكن من توحيد البشر فى تلك المنـاطق الشاسعه تحت مظلة « لا فرق لعربى على عجمى الا بالتقوى ، والناس سواسية كأسنان المشط » لكن الاستعمار أيقظ العنصرية من جـديد لدى العرب والفرس والترك والبربر والهنود والأكراد وغيرهم .

وكلما بدت يقظة لهـذا العملاق لينبض من جـديد نبضا موحـدا ويحس باحساس واحد وذلك كما يحدث أثناء النكبات تمادى الاستعماريون القدماء فى التربص به وتسـديد الضربات المؤثرة اليه لعودة النبض المنفرد لكل اقليم كما ارادوا له بسياسـة فرق تسد الى عمـل تعميقها ومازال حتى يومنا هـذا ، وحاولت الدول الاسـتعمارية وضع حكام فى البلدان الاسـلامية مهمتهم المحافظة على ماأوجده الاسـتعمار ، وأرادت لهؤلاء الحكام أن يصـبحوا ابطالا فى نظر شعوبهـم فمنحت أوطانهم نوعا من الاسـتقلال المزيف بهدف خدمة عملائهم وتغطية أعمالهم الشنيعة فى كبت حريات الشـعوب ، ومن هنا كانت موجة الاسـتقلال المزيف التى عمت الأوطان الاسـلامية فى الخمسينيات والستينيات من هذا القرن .

ولكن بعـد فترة اكتشفت الشـعوب الاسلامية أن هذا الاستقلال ما هو الا سراب يحسبه الظمآن الى الحريـة اسـتقلال وتحررا حتى اذا مارسه وجده نوعا من الخداع لأن الدول الاستعمارية كبلت البـلاد الاسـلامية بمعاهدات واتفاقيات خطيرة لابتزاز ما تبقى من خيراتهـا ، فاذا ارادت هذه الدول أن تلغى هذه المعاهدات الجائرة لوح لها الاستعمار بعصـاه الطويلة المؤثرة ، واتضح للعـالم الاسـلامى أن الاسـتقلال المزعوم ما هو الا تغطية لمواقف العملاء الـذين حكموا أوطانهم بمعونـة المستعمرين الهدف منه جعل هؤلاء العملاء أبطالا فى نظر شعوبهم من استمرار عملية استنزاف الموارد فى ظل هؤلاء الحكام .

فقامت يقظة حقيقية ومجموعة من حركات التمرد ضد الأوضـاع التى أرساها الاستعمار فى العـالم الاسلامى وتصدت هـذه الحركات لهؤلاء الحكام الأدعياء تعرف حقيقتهم لشـعوبهم وحققت هـذه الحركات بعض الانتصارات فى كثير من الأوطان الاسـلامية فى مصر وايران وتشاد وليبيا واليمن والعراق وسوريا ولبنان والجزائر وأريتريا .

واتضح للعقلاء أن نظـام الحكم فى العالم الاسـلامى هو الآفـة الكبرى التى نتج عنها التأخر الداخلى والهيمنة الاستعمارية ذلك لأن الحاكم

فى العالم الاســـلامى يسيطر على مقدرات النـــاس وثروات البلاد بطريقة لا تتناسب مع روح العصر الذى نعيش فيه فيقرب منه الوضيع ويقصى الكف العظيم ، وينال المحاسيب حظهم موفورا من فتـــات موائـــد الحاكم المســـتبد ، ويرتكبون فى سبيل ذلك أكبر وأفظع جناية فى حق مواطنيهم وهى الوشاية بكل كفء لابعاده عن بلاط الحاكم ونظـــام الحاكم ، ومن ثم تنتشر الأحقاد والوشايات بالنـــاس وتروج سوق الجاسوســـية ويروح ضحية ذلك كل كفء لأن ضـــعفاء النفوس يعتقدون أنه جديد بأن يتقدم عليهم لبروزه بعلمه وعمله فيطعنونه بغير حق لدى الحاكم ويقدحون فى ذمته وشرفه وعـــدم اخلاصه للحاكم ليفوزواهم ويتقدموا عليه بغير حق .

وينتج عن ذلك أن النـــاس فى مثل هذه المجتمعات ينحـــدرون الى الدرك الأسفل من الأخلاق فيتبادلون الحسد والحقد على كل المستويات ، والحاكم يتحكم فى الجميع ويزداد النفاق وتروج سوقه .

وفى هـــذا الحكم الاستبدادى ليس هناك نظام ديموقراطى لارتقاء النـــاس فى وظائفهم والمناصب العليا فى الهيئات العلمية والحكومية بل يحدث ذلك بطريقة التعيين الفوقى من ناحية السلطان المتحكم فى مقدرات الناس وطرق معاشهم .

أما فى المجتمعات الديموقراطية ففيها يرتقى الناس مناصبهم بناءا على كفاءتهم وبطريقة رسمتهـــا القوانين المرعية فى بلادهم لا يتعداها السلطان . ومن ثم يطمئن الفرد على أنه ملاق نصيبه فى كفاءته وعمله وعلمه ، ومن ثم تقل الوشايات والأحقاد فى مثل هـــذه المجتمعات الديموقراطية ، وينام الانســـان قرير العين مطئن الفؤاد لنصـــيبه فى الحياة الذى يســـاوى عمله وكفاءته .

أما فى المجتمعات الاستبدادية فينام الانســـان فيها ويصحوا على غل يلازم وسادته وتدبير شيطانى تفتحت عنه قريحته للايقاع بالآخرين لـــدى الحاكم المســـتبد بالوشاية بهم وعلى الأخص الوشـــاية بالاكفاء لخوف الضعفاء من تقدمهم ، وفى هـــذا الجو من الحقد تنتهك الحرمات وتســـب

الإعراض بلا جريرة ، وانما مجرد مزايدة عند الحاكم الذى سيطر على مقدرات الناس ومعاشهم فيعطى ويمنع بناء على الوشايات ، ويكيل العطاء بغير حدود لمن يحومون حول موائده ويملأون أذنيه بكل باطل ضد كل كفء خوفا من تقدمه عليهم لأنهم لا رصيد لهم سوى هذه الوشايات واجادة شتى أنواع النفاق . أما الاكفاء فلا رصيد لهم سوى علمهم وعملهم الذى لاينفع فى سوق النفاق .

وعلى ذلك تعتمد الأمة على نوعيات من الناس يكرههم الناس ويحقدون عليهم لتقدمهم فيسود الحقد ولا تتقدم بسبب ذلك الأمة لجافاتها ذوى الكفايات الذين أعرضوا ونأوا بجانبهم فأعرض عنهم الحاكم بل وتوجس منهم خيفة — وخاصة اذا كانوا من أصحاب الآراء الحرة الذين لايخشون فى قول الحق لومة لائم — وتبعدهم عن المناصب العليا وتعطيها لمن يتقدم بوشاية ويثبت ولاءه للحاكم .

وعلى ذلك ينتشر الجهل والخمول فى مثل هذه الأمم فالانسان الكفء عندما يعرف أن عمله وعلمه لن يوصلاه الى المراتب التى ينشدها يهجر العلم ويهمل عمله ويعتريه الكسل والخمول لعدم مجازاته على علمه وعمله . وبذلك يعم الجهل بجانب انتشار الحقد والحسد والجاسوسية والايقاع بالناس ومحبة الشر لهم وانتظاره وتمنى المصائب للغير .

والشعوب الاسلامية ظلت زمنا طويلا ومازالت تغتصب ثرواتها من الشعوب الاستعمارية وقد يضع البسطاء اللائمة على الاستعمار الجشع وحده ، ولكنهم لو تأملوا الأمر مليا لعرفوا أن الاغتصاب الخارجى سببه اغتصاب الحكام المستبدين لحقوق مواطنيهم وتكميم أفواههم وقهرهم فتعيش الأقليات فى عيشة راقية على حساب الضعفاء الذين يتضورون جوعا ويضربون بلا شفقة عندما يهبوا للمطالبة بحقوقهم ويوصمون بشتى التهم كالكفر والخروج عن دين الاسلام والخيانة والعمالة الى آخر قائمة التهم التى يستطيع الحاكم الصاقها بهم ولا يهمه أصدقه الناس أم كذبوه لأن أجهزة الدعاية فى يده بها يستطيع أن يكفر أتقى الناس

والقوة فى يده ، والحاكم المستبد لكى يستمر فى عملية الاغتصاب لحقوق بنى وطنه الضعفاء ويستأسد عليهم فى كل مناسبة ليقهر معارضتهم هو فى نفس الوقت جبان ضعيف أمام الغاصب الأجنبى بل ويسهل له عملية اغتصاب حقوق الوطن فى سبيل استمرار حكمه ، ومن ثم أصبحت الدول الاستعمارية تعرف نقطة الضعف هذه لدى الحكام المستبدين ، فتلوح لهم دائما بأنها قادرة على تعريتهم فى الوقت المناسب أمام مواطنيهم وأمام الرأى العام العالمى اذا هم فكروا فى انتقاص حقوق الاستعمار التى التى ورثها يوم أن كان قابضا على صولجانه ويده من حديد فى البلاد الاسلامية ، ومن ثم استحق هذا النوع من الحكام المستبدين فى العالم الاسلامى وصف الشاعر معروف الرصافى العراقى لهم بقوله :

عبيدهم للأجانب ولكن ... على أبناء جلدتهم اسود .

وهكذا أصبحت حقوق الشعوب الاسلامية فى التاريخ المعاصر كلأ مباحا لمن لايملك وهو الاستعمار ومن لايستحق وهو الحاكم المستبد . وهكذا تآمر من لايملك ومن لايستحق على استمرار هذه الحال التى لايرضى بها انسان ومن أجل ذلك تقوم الثورات الاسلامية بين الحين والحين فى حركات يائسة لتربص الغرب لها والحاكم المستبد ومحاصرة الاثنين معا لها ، ومن ثم فهى فى الغالب انتحارية تفضل الموت على الحياة من أجل الاعراب عن معارضتها ، وهكذا فان الانفجار فى النهاية سيكون مروعا لأن الاستمرار فى كبت الحريات وغصب الحقوق من شأنه أن يزيد من قوة الانفجار النهائى ، وما نسمعه من حركات غليان فى العالم الاسلامى بين الحين والحين انما هو بخار محبوس يخرج شعاعا منه ينذر بالانفجار القادم والنتيجة المحتومة وعلى الباغى تدور الدوائر .

وثمة ملاحظة يجب تسجيلها على الثورات فى العالم الاسلامى فقد رأت هذه الثورات أن الاسلام هو المخلص الوحيد لها من ظلم الظالمين وهو البلسم الذى يشفى جراح المقهورين ويمدهم بالخلاص من الظالمين .

وعلى الرغم من أن الاستعمار الغربى اعترف بحق الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والبرازيل وغيرها من الشعوب الغربية بالاستقلال عنه واخذ طريقها الى الحرية والديموقراطية الا انه مازال لايسمح حتى الآن للشعوب الاسلامية بذلك ويحاصرها فى كل مكان بشتى الوسائل ، ويتدخل فى الوقت المناسب لحماية عملائه فى البلاد الاسلامية والمحافظة على وضع ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وازدادت المعركة فى السبعينيات ومطلع الثمانينات عنفا وشراسة فى كثير من المواطن فى ايران وأفغانستان وتشاد واريتريا والمغرب وغيرها من البقاع الاسلامية ، فالاستعمار مصمم على حماية مكاسبه ومناطق نفوذه التى تمده بماء الحياة ويعتبرها معركة حياة أو موت .

وعندما قامت الثورة الاسلامية فى ايران ضد حكم محمد رضا بهلوى ونجحت فى اجباره على مغادرة ايران فى ١٦ من يناير سنة ١٩٧٩ م تحركت الصحافة الاستعمارية لاستعداء الغرب المسيحى والشرق الشيوعى على الاسلام فكتبت صحيفة (لوبوان) الفرنسية مقالا تحت عنوان : « محمد رجل العالم عام ١٩٧٩ م » نصف الثورات الاسلامية فى كل مكان بأنها صحوة ويقظة اسلامية عامة فى كل انحاء العالم فقالت :

« ان محمدا أتى بدين أصبح يهز أرجاء العالم ، ان هذا الدين اصبح يعبر عن تطلعاته ، ففى ايران انطلق موكب آيات الله والشيوخ يحمسون الجماهير ... وصحيفة (لوبوان) كانت أول من أعلنت فى ١١ ديسمبر ١٩٧٨ م ان الاسلام على الرغم من أشكاله السلمية سيتحرك فى اتجاه هجومى فى كل مكان فى آسيا فى افريقيا ليظهر بأن دين محمد هو دين الفاتحين(١) » .

---

(١) من ترجمة للمقال نشرتها جريدة المدينة المنورة السعودية فى عددها رقم ٤٨١٩ الخميس ١٤٠٠/٣/١٣ هـ تحت عنوان : « الاسلام فى صحف الغرب » .

ثم تساءلت : كيف انتشر الاسلام ؟ واجابت :

« انتشر الاســـلام عبر أدغال أفريقيا السوداء وتسرب الى جنوب الســـاحل بواســـطة القوافل والـــدعاة وأجهزة(ترانزستور) وآلات التســـجيل ووصل الى أفريقيا الاستوائية ، وقـــد أحدث ردود فعل وأزال الابهام فى جاليات الســـود بأمريكا الشماليـــة ، وفى الاتحـــاد السوفيتى أصبح التحرك الاســـلامى الشغل الشاغل لليونيد بريجنيف ولمن سيتولون الحكم بعـــده ، ذلك أنه فى عام ٢٠٠٠ فان سوفييتيا واحـــدا من كل ثلاثة ســـيكون مسلما ، وفى موسكو فان القرآن يباع فى الســـوق الســـوداء بمئات الروبلات .

« ان الاســـلام موجود فى كل مكان ، وفى فرنســـا فان الاســـلام يشـــكل الديانة الثانية بعـــد المسيحية ويوجد فى فرنســـا حوالى مليونان من المســـلمين منهم ٤٥ ٪ من شـــمال أفريقيا و ١٦ ٪ من أفريقيا السوداء ، ويوجد الاســـلام فى البلقان ، وهناك فى بلغاريا (١٫٣٠٠٫٠٠٠ مســـلم) وحوالى ٤ ملايين مســـلم فى يوغوسلافيا ، ولم يمتد انتشـــار الاسلام الى هذين البلدين فقط بحكم الفتح الذى تم فى الماضى ففى وطن (المارشال تيتو) شيد فى منطقة (بوسنه) وحـــدها فى ظرف عشرة أعوام مئتا مسجد جديد ومعهد اســـلامى فتح أبوابه منـــذ سنتين فى بلـــدة (سراجيفو) ويتعلم مائة وخمسون ألف طفل فى مدارس تحفيظ القرآن فى كل أســـبوع الصلاة وأصول الدين الاســـلامى ، وفى الصين يردد ٢٠ مليون مسلم « لا اله الا الله محمد رسول الله »(٢) .

ويشير صـــاحب المقال الى أن هـــذه الأعداد المتزايدة من المسلمين ربما لاتشـــكل خطرا ، وانما الذى يشكل خطرا هو : « ظهور تلك الحركة التى ألهبت الجماهير فى ايران وفى مكة حيث احتجزت الرهائن أمام الكعبة داخل المســـجد الحرام ، أما فى باكستان فقد أعلن الجنرال ضياء الحق فى ١٠ فبراير (١٩٧٩ م) بأن القرآن والسنة قد أصبحا القانون الأساسى ،

---

(٢) المرجع السابق .

وبمقتضى هـذا القانون فرضت الزكاة كضريبة على الثروة وعلى الأملاك العقارية وأعلن حاكم باكستان عن رجم المرأة الزانية المتزوجة(٣) .

« وفى أفغانستان فان الثوار المسـلمين قد أدخلوا الرعب فى نفوس الحكام الموالين للاتحـاد السوفيتى ففى شـهر مارس (١٩٧٩) تمرد الثوار المسـلمون فى مدينة مصيرات وهى المدينة الثالثة فى البلاد وانضم الى صفوفهم الجنود الذين كانوا مرابطين بها(٤) » .

وهكذا أخذ كاتب المقال يشير الى مواطن الثورة فى العالم الاسلامى لتحريك أجهزة الاسـتعمار واستعدائها على المسلمين فى كل هذه البلاد ووصف كتاب الغرب أن ما يحـدث فى العالم الاسلامى انما هو فى حقيقة مواجهة بين الشرق الاسـلامى والغرب المسيحى(٥) على الرغم من أن الثورات كانت موجهة الى الحكام المسلمين المستبدين المتعاونين مع الغرب .

وكما جرت العـادة فان الاستعمار يفضـل أن يضرب المسـلمون بعضهم بعضـا بالنيابة عنه . فيلجأ الى تحريك الأحقاد على الأوضـاع الحدودية الخاطئة التى فرضهـا الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية بين الأوطان الاسـلامية . وكانت العراق على سبيل المثـال قد اقتطعت انجلترا منها منطقة عربستان فى الجنوب الشرقى منهـا والتى تهيمن علـى شط العرب وأعطتها لايران سـنة ١٩٢٠ م وكانت هـذه المنطقة مجال نزاع مستمر بين الطرفين لزرع الأحقاد فى نفوس المسـلمين واستعداء بعضهم على بعض فى الوقت المناسب فيحصد الاستعمار ثمرة هذا بالهيمنه

---

(٣) وبالطبع فان الشريعة توجب رجم الرجل الزانى المتزوج أيضا ، وربما تناساها الكاتب كنوع من التشهير بالاسـلام فى الغرب الذى يرجم المرأة فقط .

(٤) المرجع السابق .

(٥) انظر : مجلة الحوادث اللبنانية عـدد ١٢٠٧ فى ٢١ ديسمبر ١٩٧٩ م مقال بعنوان هل هى حرب بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى أم حرب بين العالم الثالث وأمريكا ؟ .

على موارد تلك البلاد ، وهــذه السياسة كانت فى المــاضى أملا يراود لويس التاسع ملك فرنســا والتى ضمنها وصيته المشهورة التى أشرنا اليها فى الجزء الأول من هذه الدراسة .

فاستعدى الاستعمار كلا من العراق وايران ضــد بعضهما البعض فقامت حرب مهلكة بينهما ســنة ١٩٨١ م ومازالت مستمرة ألى وقتنــا هذا (١٩٨٤ م) وهكذا بدأت عملية مســاعدة الخصــم على كسر ذراع نفسه بنفســه ، وهذه المسألة معروفة فى لعبة المصــارعة الأمريكــه فاللاعب لايحاول استخدام قوته فى كسر ذراع خصــمه بل يضع هــذه الذراع فى حركة بارعة فى وضــع خاص تحت ثقل جسم الخصم فيحطمها هذا الثقل ، أى مساعدة الخصم على كسر ذراع نفسه !!

وفى لبنان كان الوضــع يهدد بقيام دولة اســلامية عمل لها الدروز والسنة والشيعة وغيرهم ممن رفضوا هيمنة الموازنــة ولعب الأمريكيون لعبتهم المعروفة واذا بكل القوى اللبنانية بل وكل قوى المنطقة تتصــارع وتتصادم وتمت عملية كسر ذراع الخصم دون عناء من الغرب .

ومن العجب والمؤسف أن الجميع فى الشرق الأوسط يتطلعون الى واشنطن الآن لوقف عملية طحن العظام بين العراق وايران فى لبنان .

ولكن الدولة الاستعمارية فكرت فى الاســتفادة من الصراع العسكرى فى المنطقة حيث لم يتم ذلك سلميا ، وأعنى بذلك اســتغلال جو الحرب فى العالم الاســلامى بتجارة الســلاح والعيش على هذه التجارة وضمان استنزاف الموارد عن طريق بيع صفقات الأسلحة الى البلاد الاســلامية التى يتم بها القضــاء على كل أمل فى التقدم فى هــذه البلاد حيث تقضى على الموارد وتحرق كل تقــدم بالمدافع والطائرات والقنابل فى ســاحات القتال ، فالدول الاستعمارية بذلك فائزة فى وضــع الحرب أيضا كما أنها فائزة فى وضع السلم .

والاحصائيات المتعلقة بتسويق الســلاح فى العالم توضح المــأساة التى خطط لهــا الاستعمار لاستنزاف موارد البلاد الاســلامية ، وتتنافس

فى هـذا المجال دول الغرب فقد نشرت مجلة الأسبوع العربى التى تصدر باللغة العربية فى باريس احصـائية خطيرة فى سـنة ١٩٨٢ ، وتقول هـذه الاحصائية التى استقتها مما ينشر فى الغرب بأن قيمة مشـتريات الأسلحة فى سـنة ١٩٨٠ فى دول العـالم الثالث وغالبيتها دول اسلامية ، قيمة هـذه المشتريات بلغت ٢ر٤٤ مليار دولار أمريكى(٦) وتحتل الدول العربية المركز الاول بين دول العـالم الثالث فى شراء الأسلحة ، ويحتل الاتحـاد السوفيتى المركز الاول فى مبيعات الاسلحة تليه فرنسا فالولايات المتحدة ، ويقدر تقرير امريكى رسمى قيمة مبيعات الاتحاد السوفيتى من الأسلحة فى سـنة ١٩٨٠ بنحو ٨ر١٤ مليار دولار ، تليها مبيعات فرنسا ٢ر٨ مليار دولار أمريكي فالولايات المتحدة الأمريكية ٦ر٦ مليار دولار أمريكى ويقول التقرير ان الولايات المتحدة الأمريكية زودت العـالم الثالث بمنشآت عسـكرية وقدمت اليه تدريبات وخدمات أخرى لاتشمل أسلحة تبلغ قيمتها ١ر٥ مليار دولار أمريكى .

ويلاحظ ان الدول الاسـلامية بدأت تعتمد بصـورة متزايدة على السـلاح الفرنسى ، واستنادا الى تقرير رسـمى فرنسى نشر فى مطلع عام ١٩٨٣ م فان قيمة عقود بيع المعـدات العسكرية التى وقعتها فرنسا فى يناير وفبراير ١٩٨٢ بلغت ٢٢ مليـار فرنك فرنسى وتوزعت العقود الرسـمية على السـعودية بمبلغ ١١ مليـار فرنك ومصر ٧ر٥ مليارات والعراق ٤ مليارات ونيجيريا بمقدار مليار فرنك فرنسى فقط(٧) .

قمع الدول الاسلامية عسكريا ونوويا :

ان الدول الاستعمارية هى التى تتآمر باستمرار على الدول الاسلامية وتحاول الابقاء على مشاكلها التى تعوقها عن النمو ، وذلك بايجاد اسرائيل وخلق وطن قومى لهـا فى المنطقة كما أوضحنا فى الجزء الأول من هـذه

---

(٦) مجلة الأسبوع العربى عـدد ١١٧٠ بتاريخ ١٥ مائس ١٩٨٢ ، ص ١٩

(٧) المرجع السابق .

الدراســـة وتساعدها منــذ الحرب الأولى حتى تم اعلان دولة : اسرائيل سـنة ١٩٤٨ وساعدت اسرائيل منـذ لحظة ميلادها على ان تظل الدولة الاولى في التسلح لكي تقمع الدول العربية الاســلامية عسكريا باستمرار فجعلت منهـا ترسانة عسـكرية استطاعت ان تنتصر على الدول العربية المجاورة في حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ وكادت تنتصر في حرب ١٩٧٣ لولا تدخل عامل المفاجأة وعوامل اخرى جعلت الحرب بالتعـادل وتعاونت الدول الصناعية على وقفها خوفا على امدادات البترول .

واضافت الدولة الاستعمارية بعدا آخر الى قمع العالم الاســلامى وهو البعد الذرى أو مايسمى بالقمع الذرى والنووى فقد ساعدت اسرائيل منذ لحظة ميلادها على ان يكون لهـا اسلحة ذرية ، فبعد عام واحد من قيام اسرائيل أى في سـنة ١٩٤٩ م أرســلت حكومة بن جوريون (أول رئيس لوزراء اسرائيل) بعثة لهـا الى فرنسا لدراســة العلوم الذرية ، وقـد استطاع احـد اليهود السوفييتالهروب الى اسرائيل في سـنة ١٩٥٣ ويدعى (دوستروفكى) حاملا معه معـادلة علمية جديدة لانتـاج المـاء الثقيل اللازم لصناعة القنبلة الذرية ، ومقابل كشف أسرار هــذه المعادلة لفرنسا تولت فرنسا رعاية المشروع النووى الاسرائيلى .

وقـد تطور هذا المشروع فيما بعد عندما قام (اوبنهايمر) أبو القنبلة الذرية الأمريكية وهو يهودى أيضـا بالاقامة في اسرائيل وبموافقة الحكومة الأمريكية حصـلت اسرائيل على تقارير سرية أمريكية عن البحث العلمى النووى بالاضافة الى ٤٥ مجلدا علميا تضمنت حصيلة الدراسات والأبحاث النووية الأمريكية ، وتولت الولايات المتحدة تدريب واعـداد ١٦٥ عالمـا إسرائيليا في المفاعلات النووية الأمريكية وهم الذين قادوا فيما بعد عملية الصناعات النووية الاسرائيلية .

ومن ثم أنشـأت اسرائيل عدة مفاعلات نووية الأول مفاعل يسمى مفاعل (ناحال سوريك) في جنوب تل أبيب بمعونة فرنسـا ، وفي سنة ١٩٥٧ أنشـأت مفاعل (ريشون لتون) وفي سـنة ١٩٦٤ أقامت مفاعل

(ديمونة قرب مدينة بئر سبع) وهـــذا المفاعل الأخير تنتج منه اسرائيل القنبلة الذرية التي تقدرها المصـــادر العلمية بعدد يتراوح بين عشر قنابل وعشرين قنبلة ، وفي ســـنة ١٩٦٦ بدأت العمل في مفاعل النبي روبين وتستغله اسرائيل في تحلية مياه البحر المـــالحة وانتاج الكهرباء(٨) .

وتقول اسرائيل في الوقت نفســـه بالقضاء على أي محاولة عربيـــة أو اســـلامية لامتلاك القنبلة الذرية ، فقـــد قامت في شـــهر يوليو من عام ١٩٨١ بالعدوان على المفـــاعل النووي العراقي الذي تم انشـــاؤه بمساعدة فرنســـا ، وذلك بحجة ان العراق قـــد يصبح دولة نووية منتجة للســـلاح النووي الأمر الذي يعرض مســـتقبلا أمن وســـلامة اسرائيل للخطر ، وعندما تعهدت فرنســـا باعادة بناء المفـــاعل النووي العراقي اعترضت اسرائيل بشـــدة واستعملت قوة الصهاينة في فرنسا للضـــغط على الرئيس الفرنسي ميتران للتراجع ، واشترط ميتران على العراق عدم انتاج سلاح نووي من هذا المفاعل .

ولـــا كانت باكستان من بين الدول الاســـلامية التي تقدمت فيهـــا الأبحاث النووية في مفاعلات ذرية متقدمة فان اسرائيل هددت بضرب المفاعل النووي الباكستاني وتخطط لذلك كما ذكرت التقارير مؤخرا ويطلقون على القنبلة الذرية المنتظرة في باكستان بالقنبلة الذرية الاسلامية .

وأخيرا فان الانبعاث الاســـلامي في البلدان الاسلامية بات مقلقـــا للاستعمار ، ويعتبره كتاب الغرب استفزازا لهم وللاتحاد السوفيتي فقد كتبت مجلة « جويشي كرونيكل » الانجليزية الأسبوعية مقالا تحت عنوان : « الاسلام المجاهد(٩) » يقول فيه :

« لا جدال بأن نجاح القيادة الشـــيعية في ازاحة الشاه واقامة نظام جديد متأثر بالاســـلام في ايران سيكون حافزا رئيســـيا لأية مؤسســـة

---

(٨) انظر : مجلة الأسبوع العربي ، العدد ١١٧٠ في ١٩٨٢/٣/١٥ ص ١٨

(٩) بتاريخ ١٩٧٩/١/٥ م

اســـلامية فى أى مكان لكى تعيد التأكيد على نفوذها الضخم ، هذا النفوذ ودور الاســـلام فى الحياة اليومية لمئات الملايين فى قارتى آسيا وافريقيا كانت تتجاهله حتى الآن حسابات المعلقين الغربيين المهتمين بقضايا عملية تتعلق بامدادات النفط والسياســـة والأمن ، ولكن صانعى السياسة فى الغرب سكونون قصيرى النظر اذا أهملوا تلك النداءات الملحة التى يطلقها الجامعيون والأكاديميون فى أنحـــاء العـــالم الاســـلامى لاعادة النظر فى « البركات » المفترضة من « التحـــديث » والعودة الى تعاليم الاســـلام الأساسية . هـــذه النداءات تندرج فى صـــلب الاستفزازات الاســـلامية الجديدة حيث لاتســـمع فقط فى الأنظمة المعتدلة فى العالم العربى وانما ايضا فى الأنظمة الأكثر راديكالية » .

« ..... واذا القينا نظرة شـــاملة وجدنا انه ليس فى وسع الغرب ولا حتى الاتحـــاد السوفيتى أن ينظر بلا مبالاة الى الوعى الذاتى المتنامى والثقة بالنفس عند المســـلمين ، اللتين — اذا اخطىء توجيههما أو التحكم فيهما — يمكن أن تزعزعا توازن قســـم كبير من الكرة الأرضية(١٠) » .

من كل هـــذا يتضح لنا تربص الدول الاستعمارية ليقظة العـــالم الاسلامى ، ومحاولة كتاب الدول الاستعمارية استعداء ساســـة بلادهم عليه ، ولكن عجلة التغيير التاريخية ماضية فى طريقها لتحقيق أمانى الشعوب الاســـلامية المقهورة والتى طال ظلمها ، ولايستطيع أحـــد مهما أوتى من قوة وجبروت ايقافها أو العمل على توجيهها لصـــالحه .

١٩٨٤/١/١ م

دكتور

مصطفى محمد رمضان

---

(١٠) نقلا عن مجلة الحوادث عـــدد ١١٥٨ بتاريخ ١٩٧٩/١/١٢ م.
(نص مترجم للعربية) .

الفصل الثامن

ايران فوق بركان

ايران فوق بركان

منذ عام ١٩٧٧ م والشعب الايرانى يملأ الأسماع والأبصار فى أجهزة الاعلام العالمية بثورته الاسلامية التى نجحت فى القضاء على الأسرة البهلويه الحاكمة فى ايران منذ عام ١٩٢٥ ، والذى اسسها رضا خان فى تلك السنة ، وثورة ايران أول ثورة اسلامية شعبية فى العالم الاسلامى توجه جيشا مدججا بالسلاح فى عنفوان قوته كان يخدم نظام الامبراطور محمد رضا بهلوى ، ومن وراء هذا الجيش كانت أقوى الدول فى العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية التى استشرى نفوذها كالسرطان فى جميع قطاعات ايران فى الجيش والوزارات المختلفة ، ومع هذا تنجح هذه الثورة ضد القوى الداخلية والخارجية وتقيم جمهورية اسلامية فى عام ١٩٧٩ م .

وعلينا اذا أردنا أن نفهم هذه الثورة أن نرجع الى تاريخ الشعب الايرانى فى فترة التاريخ الحديث والمعاصر ، وكنا فى الجزء الأول قد تناولنا تاريخ الانقلاب الشيعى فى فارس على يد الأسرة الصفوية فى مطلع القرن العاشر الهجرى الى أن تم لها توحيد غالبية بلاد فارس مما أثار عليها القوى السنيه المجاورة لها فى أفغانستان شرقا والأناضول غربا ، وعلى الرغم من هزيمة الصفويين كما ذكرنا أمام الدولة العثمانية أيام الشاه اسماعيل الصفوى ٩٢٠ هـ الا انهم عادوا مره أخرى الى تجميع صفوفهم حول اسماعيل الصفوى ، ولم يستطع العثمانيون القضاء على الحركة الصفوية الشيعية فى فارس نهائيا كما قضوا على الدولة المملوكيه فى مصر والشام والجزيرة العربية سنة ٩٢٣ هـ ، وذلك لأن دولة المماليك كانت مؤسسة عسكرية منفصلة عن الشعب العربى فى المناطق التى حكمتها وبمجرد القضاء عليها فى ميادين القتال استسلمت الشعوب العزلاء من السلاح فى مناطق حكمها ، وكانت الدولة العثمانية دولة سنيه قبل دولة المماليك فلم يكن من الصعب استمرار حكم هذه المنطقة بعد الدولة المملوكيه ، أما الدولة الصفويه فكانت بجانب انها حركة فكرية شيعيه مسلمة كانت حركة قومية فارسيه يشترك فيها الشعب الفارسى

كله لبعث القومية الفارسيه ، وليس من السهل القضاء على الحركات الفكريه الشيعيه فى جولة او جولات لان الافكار تظل كافية فى أذهان الشعب ويتجمع الناس حولها مرة أخرى ، وهذا ما حدث فى فارس فقد ظلت نحو خمسة قرون منذ أن اسسها الشعب اسماعيل الصفوى سنة ٩٠٧ ه تواجه أخطار الأوزبك السنة من الشرق فى افغانستان والعثمانيون السنة أيضا فى الغرب ، وظلت ايضا منذ أن تأسست فيها الاسرة الصفويه وكأنها فوق بركان يهدأ احيانا ويثور احيانا أخرى فيحدث الانقلاب والعنف فى حياة الناس لتغيير الأوضاع الجائرة والحكام المستبدين الخاضعين لأطماعهم احيانا وللاستعمار احيانا أخرى ، وفى غضون ذلك اصبح علماء المذهب الشيعى الجعفرى فى فارس قوة سياسية قادرة على أن تعلن تمردها وثورتها على السلطة القائمة ، وكانت ثورتهم ومازالت ذات مضمون اجتماعى لأنها تحارب فسادا الحكم القائم والأطماع الأجنبية فى بلادهم ، ومن ثم فان تاريخ ايران الحديث والمعاصر ملىء بالثورات العنيفة والمقاومة الضارية ضد الحكام والدخلاء .

ويجب علينا ان نتناول بشىء من التفصيل التعاليم التى ساعدت على ظهور هذه المقاومة المتصلة التى اصبح يمتاز بها الشعب الايرانى لكى نستعين بها على فهم الأوضاع الحاضرة .

ويتخلص مذهب هذه الجماعة الشيعة فى أنهم يقولون بأن النبى عليه الصلاة والسلام قد اختار قبل وفاته على بن أبى طالب خليفة له ، لكن ابا بكر وعمر وعثمان تمكنوا من الوصول الى الخلافة قبله ، وعلى الرغم من وصول على الى الخلافة بعد مقتل عثمان ابن عفان الا أن الامويين ظلوا يناوئون خلافة على مناواة انتهت باستشهاده واستشهاد ابنه الحسين بن على عند كربلاء بالعراق وتم الأمر للأمويين ونقلوا عاصمة الخلافة الاسلامية الى دمشق فى سنة ٤١ ه .

ويقول شيعة ايران ان سلطة الخلافة الأموية (٤١ — ١٣٢ ه) والخلافة العباسية بعد ذلك (١٣٢ — ٦٥٦ ه) ليست شرعية ، اذا

أن السلطة الشرعية على المسلمين فى هاتين الفترتين كان من المفروض أن تكون فى أيدى الأئمة من نسل على بن أبى طالب عن طريق ابنته فاطمة الزهراء الذين هم أولى بالخلافة ، ويبلغ عدد هؤلاء الأئمة اثنى عشر أولهم على بن أبى طالب ، ويدعى الشيعة بأن الامام الثانى عشر وهو محمد المهدى ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) قد اختفى وسوف يعود فى الوقت المناسب ، وتلت اختفاء الامام فترة كان فيها نواب الأئمة يمثلونهم(١) ، وعرف هذا العهد بعهد الوكالة عن الأئمة ، وبعد وفاة الوكيل الرابع بدأ عهد الاحتجاب الكبير والوكالة العامة اى وكالة جميع علماء الدين عن الامام المختفى اعمالا بقول جعفر الصادق الامام السادس (٨١ — ١٣٩ هـ) أن كل من يتولى القضاء بين المسلمين والاجتهاد يعتبر وكيلا عنه ، ولما كان جعفر الصادق هو مؤسس الفقه الشيعى فان شيعة فارس يسمون بالجعفرية ، وعلى ذلك فان علماء الشيعة وما يسمون بالمجتهدين يؤدون دور الوكالة عن الامام المحتجب حتى يظهر ، ومن ثم فهم يقومون بأعمال الامام نفسه والامام فى نظرهم معصوم وهذه العصمة لاتمتد الى المجتهدين(٢) .

وقد تضافرت عدة عوامل لتعميق الخلاف بين السنة والشيعة فى القرون الأولى للاسلام ، فبعد مقتل على والحسين تفرق ابنائه وأصبحوا عرضة للاضطهاد الشديد ، حتى أن الخلفاء الأمويين جعلوا محك الايمان فى بعض الأحيان أن يسب المرء عليا وأسرته والفشل فى هذا الاختبار عقوبته الموت ، ولكى يتحاشى الشيعة هذا المصير لجأوا الى مبدأ (التقية) والذى يعنى عندهم انه من الشرعى أن يظهر الانسان غير ما يبطن اذا ما وقع فى يد العدو ، أو اذا وجد حياته فى خطر أكيد ، الى أن أعلن الخمينى مؤخرا أنه لم يعد الشيعى فى حاجة ان يبطن

---

(١) محمد حسنين هيكل : مدافع آيات الله ، الطبعة الأولى ، دار الشروق ، بيروت ١٤٠٢ هـ ص ١٠٩ .

(٢) انظر : ليونارد بايندر ، الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط ، تعريب خيرى حماد ، دار القلم بالقاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٦٧ — ٧٧ .

غير ما يظهر والغى هـذا المبدأ من حياة الشـيعة وأن الايرانيين وصلوا الى مرحلة النضوج والاسـتقلال تجعل هذا المبدأ الذى كثيرا ما اساؤوا تطبيقه فى المـاضى لا لزوم لـه على الاطلاق(٣) لأنها لاشـك أضعفت معارضتهم ولعل الـذى دفع الخمينى الى الغائهـا هو أن بعض الشيعة غلافى معناها حتى أصبحوا يهربون من المسئولية ومن المجاهرة بقول الحق خوفا من السلطان مما ليس بموجود فى تاريخ نضال الشيعة .

ويقول الأسـتاذ احمد محمد شاكر : « أما مانسب الى الشـيعة الامامية من الغلو فى التقية ، فما نظن كله صحيحا بل لعل اكثره مما عرى المسـلمين من الضعف فى القرون الأخيرة ، وبعضه مما لقى متقدموهم من شدائد قد يضعف عن حملها بعضهم ، ومن اقـدم أقوال أئمتهم فى ذلـك قول الشريف الرضى (٤٠٦ هـ) ... وقال بعضهم : معنى ذلك أن يكون المؤمن بين الكفار وصـيدا ، أو فى حكـم الوحيـد ، اذا كان قليـل الناصر ، غالب المظاهر ، والكفار لهم الغلبة والكثرة والدار والحوزة ، فمباح له أن يخالقهم بأحسـن خلقه ، حتى يجعل الله له منهم مخرجا ، ويتيح له فرجا ، ولا تكون التقية بأن يـدخل معهم فى انتهـاك محرم ، أو استحلال محرم : بل التقية بالقول والكلام والقلب عاقـد على خلاف ما يظهر اللسان » ثم قـال : « وقد ذهب المحققون من العلماء الى أن من اكره على الكفر فلم يفعل حتى قتل ، أنه افضـل ممن اظهر الكفر بلسانه ، وان أضمر الايمان بقلبه(٤) » .

---

(٣) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١ . وقـال أصحاب أبى حنيفة : « التقية رخصة من الله تعالى وتركها أفضل ، فلو أكره على الكفر فلم يفعل حتى قتـل فهو افضـل ممن اظهر ورفضها ابن حنبل ، وقال الرازى انما تجوز التقية فيما يتعلق باظهار الحق والدين ، وأماما يرجع الى الغير ، كالقتل والزنا وغصب الأموال وغيره فغير جائزا البته .
انظر : تعليق الأستاذ احمد محمد شاكر على مادة التقية فى دائرة المعارف الاسلامية النسخة العربية .

(٤) الشريف الرضى ، حقائق التـأويل ، طبعـة النجف بالعراق سنة ١٣٥٥ هـ جـ ٥ ص ٧٤ — ٧٥

فهذا وغيره يؤيد ما ذهبنا اليه من تبرئة الأئمة من الشيعة من عار هذه التهمه التى ألصقت بهم ، وأن خطأ من أخطأ من علمائهم أو من عامتهم لايجيز أن ينسب الى فرقتهم وشيعتهم(٥) » .

وأخيرا فان لدى شيعة ايران ارتباط عضوى بالتقاليد الثورية الاسلامية أى بعنصر العدالة الاجتماعية فى تعاليم الرسول والسعى نحو تحقيقها حتى لو أدى ذلك الى معارضة السلطة السياسية والاستشهاد كما استشهد الحسين بن على فى كربلاء والاقتداء به .

ولقد تحقق لشيعة فارس الأمل الذى ينشدونه فى فارس وتكونت لهم دولة بفضل كفاح اسماعيل الصفوى وصمدت دولتهم أمام هجمات السنة من الشرق ومن الغرب كما سلف ان شرحنا ، وبعد وفاة الشاه اسماعيل سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٤ م) خلفه ابنه (طهماسب الأول) الذى تولى العرش وهو فى سن العاشرة وامتد حكمه اثنتين وخمسين سنة (٩٣٠ — ٩٨٤ هـ) (١٥٢٤ — ١٥٧٦ م) وفى عصره سقطت بغداد فى يد العثمانيين سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م) ودخلها السلطان العثمانى سليمان القانونى فى تلك السنة ، ووقعت تبريز أكثر من مرة تحت الاحتلال ، وازاء تعرضها بهذا الشكل لخطر الغزو العثمانى نقل طهماسب العاصمة الى (قزوين)(٦) .

وكادت الدولة الصفوية تعود الى رحاب أهل السنة والجماعة فى عهد اسماعيل الصفوى الثانى (٩٨٤ — ٩٨٥ هـ) الذى لم يدم كثيرا فقد تولى السلطة بعد وفاة والده طهماسب سنة ٩٨٤ هـ (١٥٧٦ م) ونظرا لأن اسماعيل الثانى كان مكروها من والده الذى سجنه زهاء ربع قرن من الزمان فانه خرج من السجن الى العرش وقلبه يفيض بالحقد

---

(٥) انظر تعليق الأستاذ أحمد محمد شاكر على مادة « التقية » فى دائرة المعارف الاسلامية مرجع سبق ذكره .

(٦) دكتور بديع جمعة وزميله ، تاريخ الصفوييه وحضارتهم ، الجزء الأول مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٦

فشرع يقتل ويسمل عيون كل الذكور من أفراد البيت الصفوى ممن يحتمل تآمرهم ضـــده ، كما قتل كثير من ضباط وعلماء القزلباش الذين شـــغلوا مناصب هامة فى عهد والده ، وأبعد عن دوائر بلاطه بعض العلماء المتعصبين للمذهب الشيعى ، وصـــادر كتبهم وأبطل عادة لعن أبو بكر وعمر وعثمان على المنابر ، وأيقن القزلباشية ميله الشديد الى السنة وكراهيته للشيعة فتآمروا عليه ودسوا لـــه الســم فى الشراب فمات فى نوفمبر من ســـنة ١٥٧٧ م (٩٨٠ هـ) أى بعد حوالى عام من توليه السلطة فى فارس(٧) .

وأعقبت وفاته فترة من الحرب الأهلية استمرت حتى سنة ٩٩٧ هـ (١٥٨٨ م) وهى الســـنة التى آل العرش الصفوى فيهـــا الى عباس الأول حفيد طهماسب وقـــد استمر فى الحكم حتى سنة ١٠٣٨ هـ(٨) ، وفى عصر عباس بلغت الدولة الصـــفوية الذروة فى القوة والتوسع وتخطى عباس الفترة الصـــفوية الأولى التى سبقته والتى كانت الدولة الصفوية تتطور فيهـــا ببطء ومعاناة ، وعبر بالفرس الى عصر قام فيه بتنظيم الدولة على أسس قوية كان من أهمهـــا انشـــاء جيش من الغلمـــان أو القولار (أى العبيد) وهم فى الغالب من أسرى اقليم جورجيا الذين تحولوا الى الاســـلام ، وكان هدف عباس هو مقاومة القزلباش بهؤلاء الجنود الجدد ، لأن القزلباش كثرت مشاغباتهم له وخروجهم عليه .

وادرك عباس الذى كان يكافح فى الـــداخل والخارج أنه يجب أن يهادن العثمانيين فعقد معهم معـــاهدة فرهاد باشا ٩٩٩ هـ (١٥٩٠ م) وانتى تنازل بمقتضاها عن مساحات واســـعة من الأراضى الفارســـية للعثمانيين منهـــا أذربيجان وجورجيا وكردستان(٩) ، وازاء هـــذا التطور نقل عاصمة دولته من قزوين الى الداخل فى أسفهـــان ســـنة ١٠٠٧ هـ

(٧) المرجع السابق ، ص ١٥٤ — ١٦٢

(٨) ستانلى لين بول ، تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسرة الحاكمة ، ترجمة د. أحمد السعيد ، طبعة دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٩ م ج ٢، ص ٥٤٥

(٩) د. محمود صالح منسى ، معالم تاريخ الشرق الاسلامى ص ٥١

(١٥٩٨ م) ، ووجه همته الى مقـــاومة الأوزبك السنيين فى الشرق ، وكانت قبـــائل الأوزبك تعيش أصلا فى المنـــاطق الشمالية الشرقيـــة من فارس وتحولت من الوثنية الى الاســـلام على المذهب السنى وبدأت تعلب دورا هاما فى منطقة أفغانستان على حســـاب الدولة التيمورية وبسطوا سيطرتهم على هيرات وخراسان ، ووقفت وجهـــا لوجه أمام الصفويين فى فارس فكان الصراع على الأرض وعلى المـــذهب ، وهدأت الأحوال فى الشرق بوقوع منازعات أسرية بين الأوزبك ، وفى ســـنة ١٠١٤ هـ وجه عباس اهتمامه الى العثمانيين غربا واسترد العراق منهم .

ولقد زاد النشاط الدبلوماسى والتجارى فى عهد عبـــاس الأول فى فارس ، واستفاد عباس من المنافسة الانجليزية البرتغالية للسيطرة على الخليج العربى ، فطلب من بريطانيا المعونة للتخلص من نفوذ البرتغاليين فى هرمز ، فأمده الانجليز بالمعونة للتخلص من البرتغاليين سنة ١٠٣٢ هـ (١٦٢٢ م) ومن هنا بدأت العلاقات مع الانجليز وبدأ التعاون فى شتى المجالات الاقتصـــادية والتجارية مع بريطانيا ، كما فتح للهولنديين وكالة تجارية فى بندر عباس .

وبعد موت عباس ســـنة ١٠٣٨ هـ دخلت ايران فى دور الضـــعف والتدهور وتعرضت للغزو من الأوزبك فى أفغانســـتان وتمكن الأفغان من القضاء على الدولة الصفوية سنة ١١٣٥ هـ .

فترة الحكم الأفغـــانى :

دخلت فارس فى الفترة من ١١٣٥ حتى ســـنة ١٢٠٩ هـ تحت السيطرة الأفغانية وذلك عندما زحف محمود بن ويس(١٠) الأفغـــانى على فارس ودخل أصفهان وتنازل له الشاه حسين الصفوى عن الحكم وانتهت بذلك الأسرة الصـــفوية كحاكمة لفارس ، وفى جو من الأطماع العثمانية فى الغرب

---

(١٠) هو من عائلة الأفغان التى تسمى أحيانا غلجيلر والتى تنتمى الى أصل تركى ، ستانلى لين بول ، مرجع سبق ذكره ص ٥٤٦

والروســـية فى الشمال والانجليز فى الجنوب والمطالبين بعرش فارس فى داخل البلاد استطاع الحكم الأفغانى لفارس أن يستمر حتى سنة ١٢٠٩ هـ وحاول الأفغان ان يتغلبوا على أطماع العثمانيين بحكم أنهم سنة مثلهم .

وأهم ما يجب ملاحظته هنا هو أنه على الرغم من سيطرة الأفغان الســـنية على ايران هـــذه الفترة الا أن وجه ايران الشـــيعى الـــذى تكون على يد الصفويين لم يتغير ، وظلت ايران دولة شيعية .

عهد الأسرة القجارية : ١٢٠٩ — ١٣٤٤ هـ :

أصل الأسرة القجارية من (جرجان) من قبائل التركمان فى شـــمال شرق ايران ، وبدأ نفوذهم فى الظهور عندما حاولوا احتضان ورثة العرش الصفوى فى فترة الحكم الأفغانى ، وشـــيئا فشيئا تمكنوا من الســـيطرة على الأمور فى فارس لصالحهم فى ســـنة ١٢٠٩ هـ ، وطردوا الأفغانيين من البلاد ، وفى عصرهم نقلوا عاصمة ايران الى (طهران) شأنهم فى ذلك شأن كل الحكام الجـــدد يميلون لاختيار عواصم جديدة لهم بالاضافة الى أن طهران كانت قريبة من (جرجان) موطنهم الأصلى ومنه يأتى العون والمدد لهم ، وطهران أيضـــا موقعها مناسب من حيث أنها تتوسط المقاطعات والأقاليم الشمالية أكثر مناطق فارس خصوبة ومن ناحية كثافة السكان .

ولقد صادفت فارس فى عصر القجار كثيرا من المشـــاكل والأزمات الخارجية والداخلية ، أما بالنســـبة للمشاكل الداخلية فتتمثل فى ثورات أغاخان والبابية والبهائية وحركات زعماء القبـــائل والأمراء الطامعين فى العرش .

أما ثورة أغا خان (١٨٣٨ — ١٨٣٩ م) التى قام بهـــا فى كرمان متزعما طائفة الاسماعيلية الذين كانوا يعتقدون انهم يستحقون أن يلعبوا الدور الرئيسى فى ادارة شئون البـــلاد وليس القجار ، الا أن أغا خان لم يســـتطع أن يحقق هدفه من الثورة ففر الى كراتشى سنة ١٨٤٣ م وان كان الاسماعيلية استمروا فى الاعتداء على الأراضى الفارسية من قواعدهم فى الهند .

البابيــــة والبهائية :

وشــــهد النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى انشقاقا فى داخل الحركة الشيعية الايرانية ففى عام ١٢٦٠ هـ (١٨٤٤) ادعى رجل يسمى (ميرزا على محمد الشيرازى) أنه على صـــلة مبـــاشرة مع آخر امام من أئمة الشـــيعة الاثنى عشر الذى اختفى قبل الف عام (٢٦٠ هـ) وادعى أيضا أن عودة الامام منتظرة وأنه يمهد لـــه الطريق ولقب نفسه بالباب (باب الله(*)) وتبعته بعض الأتباع سموا انفسهم بالبابية ، وكثر أتبـــاع هذا الباب وتملكتهم العصبية الدينيـــة واستولى عليهم شـــعور العقيدة المتوهج فأصبحوا خطرا على الفكر الشـــيعى ورأى فيهم رجال السلطة القجارية خطرا يهدد المجتمع الشـــيعى الايرانى بالانقسام فبدأوا فى تعقبهم ومحاولة القضاء عليهم .

وعارضها المجتمع الشيعى الايرانى فى مجمله لأنها ربطت تعاليمها — بطريقة ملتوية — باتجاهات الحضارة الغربية فرفضت مشروعية (الجهاد) وهـــذا أبان عن تبعيتها للاستعمار الذى يجاهد من أجل ابطال الجهاد ، وعارضت الحدود التى شرعها الاســـلام وحرم الباب الختان (الطهارة) ومنع المرأة من لبس الحجاب ، ودعا الى تحريم تعـــدد الزوجات وبدأ فى انشاء مدارس لنشر دعوته وحمل لوائها(١١) .

وزاد من تعقب الســـلطة لها أنها أخذت ترمى الى أهداف سياسية وفكر البابيون فى القضـــاء على الأسرة الحاكمة فى ايران واقامة مملكة بابية على أنقاضها يكون على رأسها الباب وبذلك تشابكت الأهداف الدينية والسياسية مع بعضها وتقاربت تقاربا يشبه الالتحام والتقت الســـلطات

(*) لفظة الباب لفظة متداولة عنـــد الصـــوفية بمعنى الوســـيلة الموصلة الى معرفة الحقيقة الالهية ، فيقال أنت بابى ومقصدى وتبع الباب أناس تلقبوا بالبابيين .

(١١) باول شمتز ، الاسلام قوة الغد العالمية ، ص ١٢٦ ٤٢

القبض على الباب فى أوائل عام ١٨٥٠ واعدمته مع بعض اتباعه فى ٨ يوليو ١٨٥٠(١٢) .

واستمرت الحركة بعد مقتل الباب فى خليفته الذى عينه قبل اعدامه وهو (ميزا يحيى) واستمرت قوتها ايضا فى مناواة السلطة ودبروا مؤامرة فى سنة ١٩٠٢ لقتل (الشاه ناصر الدين) غير انها فشلت مما جعل السلطة تزداد فى تعقبهم فى كل مكان للقضاء عليهم وخرج (ميرزا يحيى) واخوه غير الشقيق وهو (ميرزا حسين على المازندرانى) وهو اكبر أولاد الميرزا عباس نورى وزير الدولة الايرانية ، خرج الاثنان خارج ايران عندما اشتدت الحملة عليهما واستقرا فى (بغداد) وكانا على اتصال بأتباعهما فى ايران ، وعندما شعر الشاه بقوة البابية المهاجرة وتاثيرها فى داخل المجتمع الايرانى اتصل بالباب العالى لاخراجهم من العراق فاستدعاهم السلطان الى استانبول ونفاهم فى ادريانوبل فى غرب تركيا .

وفى المنفى حدث انشقاق فى البابية ، فقد اعلن ميرزا (حسين على المازندرانى) أن الامام الثانى عشر عاد فى شخصه وروح الامام حلت فى جسمه حتى اصبح الامام نفسه وصدقه الناس واتبعوه ووقعت بينه وبين اخيه مشاحنات وصلت الى العداوة ، فتدخلت الدولة العثمانية فى حسم النزاع فأرسلت (ميرزا يحيى) الذى سمى نفسه « صبح أزل » يعنى « الفجر الخالد » هو وأتباعه الى قبرص ، بينما رحل أخوه حسين الذى اطلق على نفسه (بهاء الله) مع أتباعه الى فلسطين واتخذ من مدينة عكا مستقرا له .

ومات ميرزا يحيى فى قبرص صغير السن وتفرق أتباعه أما (بهاء الله) فقد مكن لنفسه فى منفاه وظل على اتصال بأتباعه فى ايران حتى وافته

---

(١٢) المرجع السابق ص ١٢٧ ذكر د. عبد الصبور مرزوق أن اعدامه تم فى سنة ١٨٤٩ ١٢٦٥ هـ ، انظر الغزو الفكرى أهدافه ووسائله ص ٧٨

المنية فى سنة ١٨٩٢ ويقـدر بأول اتباعـه فى ايران عند وفاته بحوالى مليون(١٣) .

وبعد وفاة بهاء الله (حسين على) حمل ولده الأكبر (عبد البهاء) مهمة الدعوة وزاد فى مبادىء البهائية ووسع فى دائرتها عالميا ودعا الى اعتبار الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجـديد) مصـدر وتوجية بجانب القرآن واسس طائفة عالمية تـدعو الى التسـامح بين الأديان الثلاثة ومركزهم الرئيسى فى أمريكا واقيمت مراكز للطائفة فى فرنسا وانجلترا والمـانيا ونالت هذه الحركة عطف اوربا وأمريكا .

ومن العجب ان تجد عطفا من الأسرة البهلوية فى عصر رضا بهلوى وعصر ابنه محمد رضا فأصبح لهـا نفوذ كبير فى الحكومـة والجيش ، وخصـوم البهائية فى ايران يتهمونهم بالارتداد عن الاسـلام واتصـالهم بالصهيونية العالمية والاستعمار ويقولون ان بهـاء الله أنقـذه من الموت شـنقا فى ايران قنصل روسيا القيصرية وقنصـل انجلترا فى ذلك الوقت ، وأحـد اسباب ثورة الخمينى وشيعة ايران على الشاه حمايته للبهائيه ونفوذهم الواسع فى الجيش والادارة والحكم ، ويقولون بأن (أمير عباس هويدا) رئيس وزراء الشـاه لنحو ١٣ سنة ينحدر من اسرة بهائية وانه هو شخصيا بهائى والبهائيون لا ينكرون بهائيته(١٤) .

ولعل أكبر دليل علـى انحراف البابيـة والبهائيـة موقف المبشرين والمؤتمرات التبشيرية منهمـا ففى مؤتمر لكتو بالهند سـنة ١٩١١ اعـد تقرير عن أوضاع فارس الاسلامية وتلى فى المؤتمر وكان الـذى اعـدة القسيس اسلسيتن الذى مضى عليه ٢٣ سنة فى فارس ، فوصـف الحالة فى فارس وقال :

---

(١٣) المرجع السابق ١٢٩ ص ٤٥ ١
(١٤) انظر الحوادث عدد ١١٥٩ ١٩ من يناير سنة ١٩٧٩

« ان عصر الحرية الدينية سيزيد فى عدد البابيين والبهائيين ، وانــه يوجد الوف من الفارسيين ينبذون الاسلام(١٥)

وبجانب الانشقاقات الدينية والمذهبيـــة فى فارس زادت الأطمــاع الاستعمارية فى فارس وخاصة الروسية والانجليزية واصبحت على عهــد الأسرة القجارية تهدد اســتقلال البلاد ، فقد كان لروسيا اطماعهــا فى شــمال فارس وتدخلت بريطانيا ليكون لهـــا مركزها فى فارس الجنوبية بحجة الدفاع عن الهند فى وجه روســـيا الى تحسدها على امتلاك الهند ، وفى القرن الثالث عشر الهجرى (١٩ م) حقق الروس كثيرا من الانتصارات فى فارس ، ففى ســـنة ١٢٢٨ هـ (١٨١٣ م) تنازل الفرس لهم عن عدة مقاطعات منهـــا (جورجيا) ، كما تعهد الفرس بعــدم الاحتفاظ بســفن لهم فى بحر قزوين (الخزر) وتعهد الشـــاه فى سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م) بألا يســـمح لشركات أجنبية بمد خطوط حديدية أو شق قنوات الا بعــد الحصول على موافقة الروس(١٦) .

وفى نهاية عصر الأسرة القجارية قويت تنظيمات رجال الدين ضــد الدولة وطالبت باصلاحات شتى ، وهم الذين اعتمدت عليهم الدولـــة فى بدايتهـــا ، وتوجد ست مراتب لرجال الدين : المرتبة الأولى : هى مرحلة طالب العلم ، المرتبة الثانية : مرتبة المجتهد عندما ينهى فترة الدراســة ويتخرج وهى تعنى حرفيا شخص أجهد نفســـه كى يكون رأيا ، المرتبة الثالثة : مبلغ الرسالة ، والرابعة : حجة الاسلام والخامسة : « آية الله » والسادســـة والأخيرة « آيـــة الله العظمى » الذى يصـــبح يشكل آلى « مرجعية » اى شخصا يرجع اليه فى كل شىء(١٧) وحسب التقاليد ليس هناك اكثر من خمســـة أشخاص فى مرتبة « آية الله العظمى » فى نفس الوقت ولا يمكن القبض عليهم طبقا لدستور عام ١٩٠٦ م .

---

(١٥) الغارة على العالم الاسلامى ص ٧٥

(١٦) محمود صالح منسى ، معالم تاريخ الشرق الاسلامى ، ص ٦٠.

(١٧) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٢

ورجال الدين فى فارس لهم موارد مالية ضخمة تأتيهم من الشعب فعلى الشيعى أن يدفع مبلغا كبيرا من المال من دخله السنوى أو الشهرى يصل الى خمس الدخل الى آية الله أو من يمثله فى مدينته أو قريته لينفق منها على رجال الدين على المساجد والفقراء وما يراه رجال الدين من أمور ، ويعتقد الشيعى فى ايران أن رزقه مرهون بأداء هذه الضريبة فان شح بها أجدبت عليه السبل أو أصابه المرض أو حلت به الرزايا ، تلك عقيدة أساسية عند الشيعة فى ايران . وهذه احدى نقاط الخلاف الهامة بين رجال الدين الشيعة والسنيين ، وأعنى بها وضع الشيعة المالى المستقل عن الدولة ، ففى البلاد السنية تستولى الدولة على الأوقاف والهبات من الناس وتدفع لرجال الدين والعلماء مرتبات(١٨) .

وفرق شاسع بين الوضعين فى النظام الشيعى لاتستطيع الدولة أن تمنع عن رجال الدين هذه الأموال التى تأتيهم رغدا من كل مكان ومن ثم يتمتعون بحرية الرأى ولايخشون صولة الحكام وتخويفهم فى مجال الرزق بقطع مرتباتهم ، وعلى العكس من ذلك فان الحكام فى البلاد السنية بما لهم من هيمنة على الأوقاف والخيرات فانهم يستطيعون أن يرهبوا رجال الدين ويمنعوا عنهم مرتباتهم ، وسوف نرى فيما يلى أثر هذه القاعدة الاقتصادية لرجال الدين فى مجال نجاح الثورة الاسلامية مؤخرا .

وكان أهم حكام الأسرة القجارية ناصر الدين شاه (١٢٦٥ — ١٣١٤ هـ) وفى نهاية عصره قويت حركة المعارضة الدينية ضده وطالبت باصلاحات دستورية وقوى هذه الحركة وأعطاها قبسا من نوره ثائر الشرق الأول جمال الدين الأفغانى ، فقد أثار جمال الدين الرأى العام فى فارس ضد ناصر الدين شاه لأنه فتح بلاده للانجليز والروس ويخضع لهم ، ومع أن الشاه طرده من البلاد الا أن حركة المعارضة استمرت ضده الى أن قتله شاب من رجال الدين سنة ١٣١٤ هـ ومن أشياع جمال الدين الأفغانى ، وكان جمال الدين يقيم فى تركيا فى هذه اللحظة وعند ما اعترف

---

(١٨) المرجع السابق ، ص ١١٢ — ١١٣

الجانى بأنه تلميذ جمال الدين طلبت الحكومة الفارسية من السلطان عبد الحميد تسليم جمال الدين اليها لأنها اعتبرته الفاعل غير المباشر اذ أن أفكار الجانى مستمدة منه ، وعلى الرغم من أن الحميد كان متبرما من جرأة الأفغانى وضاق به زرعا فى عاصمة دولته الا أنه لم يسلمه وظلت المفاوضات مستمرة غير أن أعوان عبد الحميد دسوا للأفغانى السم فمات قبل أن تنتهى محادثات تسليمه وسلمت الدولة العثمانية ثلاثة من تلاميذه بدلا منه الى ايران وتم اعدامهم(١٩) .

وانتصر رجال الدين فى أول مواجهة بينهم وبين الشاه فى العصر الحديث ، وكان مصرع ناصر الدين الذى حكم من سنة ١٢٦٥ هـ حتى سنة ١٣١٤ هـ أى نحو خمسين سنة سببا فى انهيار قواعد حكم الأسرة القجارية ، وعلى الرغم من أن خلفاء ناصر الدين حاولوا عده محاولات يائسة لانقاذ عرشهم الا أن ذلك لم يجد فقد أصدروا دستورا فى سنة ١٩٠٦ م (١٣٢٥ هـ) اضطر الى وضعه شاه ايران « مظفر الدين » (١٣١٣ — ١٣٢٥ هـ) أحد ملوك القجار بعد ثورة عارمة ضد استبداد الأسرة وبذخها وترفها ونقمة على التدخل الأجنبى بها الذى قسم البلاد الى منطقة نفوذ روسية فى الشمال ومنطقة نفوذ انجليزية فى الجنوب ، واضطر الشاه فى سنة ١٣٢٥ هـ الى الرضوخ لمطالب الشعب ومنح البلاد دستورا ، واجتمع أول مجلس نيابى فى السنة نفسها التى قامت فيها الثورة وهى سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٦ م) ورغم هذا الرضوخ للثوار الا أن الفوضى استمرت حتى نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م)(٢٠) ، وأهم ما فى دستور سنة ١٣٢٥ هو أنه نص على تكوين لجنة مراقبة التشريعات للمحافظة على الطابع الاسلامى لايران ، ومهمة اللجنة مراقبة القوانين فى البلاد ومدى مطابقتها للشريعة الاسلامية ، وهى أشبه بالمحكمة الدستورية العليا التى تراقب انطباق

---

(١٩) باول شمتز ، الاسلام قوة الغد العالمية ، ص ١١١.

(٢٠) محمد شاكر ، يران ، من مطبوعات مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) . ص ٥٦ — ٥٧

القوانين على دســـتور البلاد وفلسفتها العامة وهى موجودة فى كل النظم الديموقراطية الحقيقية فى أوربا وأمريكا .

ومما هو جدير بالذكر أن هـــذا الانجاز يعد الأول من نوعه فى العالم الاســـلامى على حد علمنا فلم يحـــدث أن تكونت مثل هـــذه اللجنة فى أى قطر من أقطار العالم الاســـلامى مما سمح للقوانين الوضعية الدخيلة بالتسرب الى النظام القانونى والقضائى فى البلاد الاســـلامية فى غفلة من شعوبهـــا .

وقد حاول الشاه محمد على (١٣٢٥ — ١٣٢٦ هـ) الغاء هذا الدستور بمعاونة روســـيا وبالاعتماد على الفرقة القوقازيـــة التى يقودها ضباط روس الا أن المحاولة باءت بالفشـــل وتنازل الشاه عن العرش فى سنة ١٣٢٦ هـ واستمر الضغط الانجليزى والروسى يتزايد فى البـــلاد ، ورفض رجال الدين أن يرضخوا وحرضوا الشـــعب على استمرار المقاومة وحاول الألمـــان الاستفادة من هـــذه الأوضاع ، وكانت ايران ميدانا للصـــدام بين الألمـــان والأتراك من جهة ، والروس والانجليز من جهـــة أخرى ، وخرجت فارس من الحرب مرهقة ، وفى حالة سيئة من الفوضى فى شتى المجالات السياسية والاقتصـــادية والعسكرية وحاول الانجليز تكبيلهـــا بمعاهدة فى ســـنة ١٣٣٨ هـ (١٩١٩ م) تجعلها تحت حمايتهم ، ولكن المجلس النيابى رفضهـــا ، ورفضتها الوزارة التى كان يرأسها ضياء الدين الطباطبائى فى ســـنة ١٩٢١ م(٢١) .

أما الروس الذين كانوا فى وضع غير حسن بعد قيام الثورة الشيوعية وحركات الانفصـــال والتمرد التى قامت فى كل مكان من بلادهم فقد رغبوا أن يحسنوا علاقاتهم بجيرانهم حتى لايلقى الانفصاليون اى تأييد منهم ، وحتى لايلقى الناقمون على الشيوعيين أيه مساعدة وهـــذا ما جعلهم يتنازلون عن ديونهم وامتيازاتهم التى كانت لهم وان كانوا قد احتفظوا بالمصـــايد فى بحر الخزر .

---

(٢١) د. محمود منسى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٤.

ورضى الشاه أحمد بن محمد على (١٣٢٦ — ١٣٤٣ هـ) بالمعاهدة الانجليزية السالفة وبقيت موافقة المجلس عليها معلقة مما زاد من معارضة رجال الدين فى ايران وسعوا للقضاء عليه وحاولت روسيا فى هذا الجو أن تستفيد من العداء .

الثورة الشيوعية فى روسيا تلوح بالحرية للفرس :

كانت روسيا بعد قيام الانقلاب الشيوعى بها قد وجهت بيانا الى العالم الاسلامى للتحريض ضد الدخلاء الأجانب والاستعمار الغربى فى العالم الاسلامى ، ومما جاء فى نداء الحكومة الروسية بتاريخ ٢٤ من نوفمبر ١٩١٧ م .

« لقد سقطت ممالك المغتصبين والقراصنة الرأسماليين وان الأرض تغلى تحت أقدام المعتدين الاستعماريين ، يامسلمو روسيا يا من ضربت مساجدكم وهدمت بيوت عبادتكم نعلن لكم : أن عقائدكم الدينية وشعائركم ومنشآتكم الحضارية والقومية ستصبح ابتداء من اليوم مصونة لن تمتد اليها يد آثمة ، أقيموا حياتكم القومية فى جو الحرية دون أن يعوقها عائق ، فلكم الحق فى ذلك » .

ثم خاطب الروس المسلمين خارج روسيا بقولهم :

« يا مسلمو الشرق : يا ايرانيون ، ياأتراك ، ياعرب ، يامن مارس المغتصبون الاستعماريون القادمون من أوربا التجارة ترونا بأرواحكم وأموالكم وحرياتكم وأوطانكم ، يامن قسم دياركم هؤلاء النهاب الذين أشعلوا الحرب العالمية نعلن لكم :

— أن معاهدات القيصر المخلوع السرية التى نص فيها على السماح له بغزو القسطنطينية بالقوة قد مزقت ومحيت من الوجود ، فالجمهورية الروسية وحكومتها ترفض الغزو المسلح لأراضى دولة أجنبية .

— ان معاهدة تقسيم ايران قد مزقت وأزيلت من الوجود ، فبعد أن تنتهى العمليات العسكرية ستنسحب القوات الروسية مباشرة من

ايران ، وستكفل الحرية للشعب الايرانى ليقرر مصـــيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر .

— ان معاهدة تقســيم تركيا واغتصاب أرمينية قد مزقت ومحيت من الوجود . وبعد أن تنتهى العمليات الحربية ســتكفل الحرية أيضا لشعب أرمينيا ليقرر مصيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر(٢٢) .

وبهذا الأسلوب المــاهر البارع الخداع خاطب الشيوعيون العـــالم الاســـلامى فى وقت كانت انجلترا وفرنســـا تقتسمانه ، وتحاول دول أوربا فرض الوصــــاية على كثير من أجزائه ، وكان الهدف من وراء هـــذا النداء ليس حرية الشعوب الاســـلامية بقدر ما ترغب روسيا أن تثور هـــذه الشعوب ضـــد الدول الغربية التى وقفت ضد الثورة الروسية الشيوعية وناصبتها العداء . وقـــد أراد الروس بذلك عقد تحالف مع المســـلمين لمقاومة الدول الرأسمالية .

وقـــد نشرت جريدة « أرفستيا » فى ١٠ من ديسمبر ١٩٧٧ م أى بعد فترة وجيزه من نشر البيان السالف ، برنامجا مجددا لسياسة الحكومـــة الســـوفيتية تجاه فارس وعزز هـــذا البرنامج بخطاب من « تروتسكى » الى الســـفير الفارسى فى بطرسبرج ، ومما ذكره « تروتسكى » فى هـــذا الخطاب : التأكيد مرة اخرى على تنازل روســـيا عن حقهـــا فى المعاهدة الانجليزية الروســـية التى عقدت فى ١٨ أغسطس ١٩٠٧ م والتى نص فيها على تقسيم فارس الى منطقة نفوذ انجليزية وأخرى روسية .

ولقد كان للبيان الروسى أثر قوى فى العالم الاســـلامى ففى تركيا وفارس وصف البيان بأنه (وثيقة الحرية) اذا ما تحقق ما جاء فيه ، وأثر النداء الروسى فى الفكر السياسى للعالم الاســـلامى وفتح الطريق أمـــام الروس فى هذه البلاد ، وعلى أثر ذلك وضـــع الايرانيون خطة لقيام اتحاد بينهم وبين تركيا بهدف عمـــل رباط ثورى بين كل المســـلمين سواء كانوا

---

(٢٢) باول شمتز ، مرجع سبق ذكره ص ٢٤١ — ٢٤٢.

فى مستعمرات انجليزية أو فرنسية أو ايطالية أو المانية أو هولندية أو غيرها(٢٣) .

وبدأت مرحلة جديدة من العلاقات الفارسية الروسية وقد قوبل دخول الجيش الأحمر فى فارس بالترحيب فى بادىء الأمر ، لأنهم اعتبروه مساعدا لهم ضد الانجليز ، وفهموا أنه صديق وحليف يقف معهم ضد الاستعمار الانجليزى ، ولكن اتضح للفرس أن هذا الجيش يحاول اشعال نار الثورة الشيوعية وبلشفة فارس ، بدأت مقاومة الروس . وعليه فقد اعترف الروس بهذا الفشل فكتبت صحيفة أزفستيا لسان الثورة الشيوعية تقوم فى عام ١٩٢٠ م :

« ان من الضلال أن نعتقد أن الثوار الفارسيين شيوعيون وأنهم النموذج الذى يلتزم بقواعد ثورتنا الاشتراكية ، فليس فى فارس عمال مصانع بل بلد زراعى متخلف ، ولاينبغى أن نحاول القيام بثورة لم توجد بعد الافتراضات المقدرة لقيامها ، ولم يهيأ الجو لمثل هذا العمل ، فنحن نحتاج الى صداقة فارس لأن وراء هذا البلد تمتد مناطق نفوذ انجلترا ، وازدياد النفوذ الروسى طبقا لهذا المفهوم يعنى بالنسبة لرأس المال الانجليزى اجباره على مسالمتنا(٢٤) »

وصول رضا خان الى حكم فارس :

ولقد اكتفت موسكو بتقديم المساعدات العسكرية الى الثوار الفرس وخاصة الى الفرق القوقازية التى رعاها الروس من قبل والتى أضحت فى عام ١٩٢٠ بقيادة رضا خان بعد انسحاب الضباط الروس منها وأصبحت فى أيدى ضباط الصف الذى كان رضا خان أكثرهم طموحا وذكاءا وكان فى درجة رقيب فى سنة ١٩١٧ ، وقد عين وكيلا لقائد فرقة القوقاز عن

---

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٤.
(٢٤) المرجع السابق ، ص ٢٥١.

طريق تدخل قائد القوات البريطانية فى ايران الجنرال « أدموند ايرونسايد » لأن البريطانيين كانوا مهتمين بملء الفراغ الذى تركه الروس(٢٥) .

وكان رضا خان من أصل ريفى(٢٦) وأميا تماما ، وان كان علم نفسه فيما بعد القراءة والكتابة بعد أن أصبح من كبار الضباط ، وكان المجلس النيابى ورجال الدين مازالوا يعارضون الشاه والانجليز فى فرض المعاهدة الانجليزية التى سبق أن اشرنا اليها ، وكان رضا خان قد صار قائدا للفرقة القوقازية (الحرس الامبراطورى) فتحالف مع رجال الدين ونال رضاهم ، ومن ناحية أخرى رتب أموره مع الانجليز من وراء رجال الدين للقضاء على آخر شاه من اسرة القجار ، وتحرك رضا خان سنة ١٣٤٠ ﻫ بفرقته العسكرية وغير الحكومة فى طهران ونصب نفسه وزيرا للدفاع وقائدا أعلى للجيش ، ثم بعد ذلك رئيسا للوزراء ، والغى المعاهدة الانجليزية وفى سنة ١٣٤٤ ﻫ قرر المجلس النيابى اقصاء أحمد شاه قاجار عن الحكم وفى نفس العلم قررت جمعية تأسيسية بأن يعهد بالملك الى رضا خان باسم رضا شاه بهلوى(٢٧) .

وسار رضا بهلوى على نهج كمال أتاتورك ، وقد أقر فى السنوات الأولى من حكمه النظام والأمن والغى الامتيازات الأجنبية والاتفاق مع شركة البترول الانجليزية ، وعقد اتفاقا جديدا معها حصل فيه على شروط افضل من السابقة ، واخضع القبائل ، وعمل على توطين البدو ،

---

(٢٥) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ص ٤٦

(٢٦) ولد رضا خان فى سنة ١٨٧٨ م فى قرية « ألاشت » من اقليم مازندران شمال ايران وكان جده مراد عى ممن عملوا فى جيش القجار ووالده عباس على فكان رقيبا فى الجيش وتوفى فى سنة ميلاد ابنه رضا وأوصى بأن سنخرط ابنه فى الجندية أيضا .

انظر : د. عبد السلام عبد العزيز فهمى ، تاريخ ايران السياسى فى القرن العشرين ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٣

(٢٧) اتخذ لقب « بهلوى » للأسرة التى كان يأمل تأسيسها و « بهلوى » هو اسم اللغة التى كانت سائدة فى ايران قبل الاسلام .

وافتتح كثيرا من المدارس وانشـــأ جامعة طهران ســـنة ١٣٥٤ هـ . ووفق فى هذه الأشياء والأعمال السالفة(٢٨) .

لكنـــه أراد محاكاة كمـــال أتاتورك فى بعض الاجراءات العلمانيـــة ومنها الغـــاء حجاب المرأة ودعوة النســـاء الى الخروج ســـافرات الى الشـــوارع وألغى الأوقاف الاسلامية كل هـــذه الأعمال فرضها ودعا اليها بقوة ، وكان يقدم على كتابة الفارسية بالحروف اللاتينية ونبذ الحروف العربية كما فعـــل مصطفى كمال بالتركية لكن عارضه رجال الدين بشدة ، واســـتدعى بعض الخبراء الألمـــان فى هذا المجال وسألهم عما اذا كـــان الشعب الفارسى سيتمكن فيما بعـــد من قراءة « الشاهنامة » للفردوس ، و « نهج البلاغة » للامام على بن أبى طالب وشعر « الشيرازى » وغير ذلك من الكتب التى تشـــد قلوب الشيعة فى فارس ومن أعلى وأرقى آداب اللغة الفارســـية . فرد عليه الخبراء الألمـــان بصدق لن يستطيع الشعب قراءة هـــذه الروائع فيما بعد اذا كتبت الفارســـية بالحروف اللاتينية لأن الشعب الفارسى سينفصل عن ماضيه وتراثه كما انفصل الشعب التركى عن تراثه عنـــد ما كتب التركية بحروف لاتينية . وعنـــد ذلك كف عن محاولتـــه .

وانقلب حكمه الى نظام استبدادى على الرغم من أنه احتفظ بالمجلس النيابى من الناحية المظهرية ، كما أصـــبح يملك مساحات شاســـعة من الأراضى ، وكانت الهضبة الايرانية تسمى حتى سنة ١٣٤٤ هـ باســـم فارس نســـبة الى ذلك الاقليم الواقع فى الجنوب الغربى منها ، وفى تلك الســـنة أطلق عليها رضا بهلوى اســـم ايران نسبة الى الشعوب الآرية التى سكنت الهضبة منذ أقـــدم العصور وابعادا لهـــا عن المسمى الذى يربطهـــا بالاسلام والتراث الاســـلامى .

---

(٢٨) محمد شاكر ، ايران ، مرجع سبق ذكره ص ٥٨ — ٥٩
وانظر أيضا : عبد السلام عبد العزيز فهمى ، مرجع ســـبق ذكره ص ٦٥ — ٩٤

وكان جشـــع رضا بهلوى أسوأ من جشع الحكام الفجار الـــذين سبقوه ، فالتفت الى ضياعهم واســـتولى عليها وعلى ثرواتهم حتى زادت ثروته بطريقة واضحة وسريعـــة ، وقد قدرت ممتلكاته عندما تنـــازل عن العرش ســـنة ١٩٤١ بألفى قرية يعمل فيهـــا ربع مليون من الشـــعب الايرانى .

وعندما وصـــل ابنه محمد الى سن الزواج ، عمد الى مصاهرة أعظم الأسر الملكية فى البلاد العربية وهى أسرة محمد على فى مصر ، كوسيله يثبت بها أن عائلته مقبولة ضمن مجموعة العائلات المـــالكة فى المنطقة(٢٩) وكان من اللازم تغيير الدستور الذى ينص على أن تكون زوجة الشـــاه ايرانية المولد ، وتم الاتصـــال بالقاهرة فى هذا الشأن ولعب على ماهر رئيس الديوان الملكى دورا فى هذا المجال ورحب بالفكرة ورأى فيها على ماهر وســـيلة لنشر نفوذ مصر فى المنطقة كلهـــا ، ورحب الملك فـــاروق بالفكرة ، وفى أوائل عام ١٩٣٨ م وصـــل محمد رضا الى القاهرة واختيرت له أخت فاروق الأميرة فوزية لتكون زوجة له ، ولكن هـــذا الزواج فشل فشلا ذريعا وفى ســـنة ١٩٤٨ م تم الفراق بسبب مضايقات والدة الشاه محمد وأخته الشقيقة التوأم « الأميرة أشرف » والتى كانت أقوى شخصية من أخيهـــا الشاه ، ولعبت فى عصر أخيها دورا هاما فى السياسة ، وكان والدها رضـــا معجبا بشخصيتها الجادة وصلابتها ، وكان يعتقد أنها تشبه شخصيته الى حد كبير(٣٠) .

وعلى الرغم من أن رضا بهلوى اســـتعان برجال الدين فى الوصول الى الحكم بيد أنه بطش بهم فى قسوة وعنف فألقى بهم فى غيابات السجون ،

---

(٢٩) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٧

(٣٠) يذكر محمد حســـنين هيكل أنه التقى بهـــا فى قصرها ســـنة ١٩٥١ ، وفى حـــديث طويل معهـــا قالت : انها سمعت والدها بنفسهـــا يردد محتجا على المقادير « بأن الطبيعة لابد وأن تكون قـــد خلطت الأمور فى رحم زوجته اذ كان يجب أن تكون أشرف هى الولد ، ومحمد رضا هو البنت » المرجع السابق ، ص ٤٩

وفرق جموعهم فى بطون الريف وسفوح الجبـال ، وحاول أن يجردهم من سـلاح المـال الذى يعتمدون عليه فى معارضتهم للشاه ، وحاول أن يمنع عنهم المـال الطائل الذى يدفعه الشـيعة لهم ونجح جزئيا فى ذلك ، وزادت نغمته عليهم لأنهم رفضوا تنصيبه ملكا على البلاد(٣١) وظلوا يعارضونه وينقدون اجراءاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى ايران .

لكن حكم رضـا بهلوى لم يسـلم من القوى الكبرى ، فلما قامت الحرب العالمية الثـانية تقرب الى ألمـانيا لكى يخفف من أطماع روسـيا وبريطانيا فى ايران وصار لديه بعض الخبراء الألمـان ، فطلب الانجليز والروس من الشـاه واقصاء هؤلاء الألمـان باعتبارهم مصدر خطر كبير للحلفـاء ، وأيدت أمريكا هـذا الطلب ولكنـه رفض ، فدخلت القوات الروسية البلاد من الشـمال والانجليز من الجنوب واحتلتا البلاد ، وأيدت الولايات المتحدة الأمريكية هـذا الاحتلال وطلب الحلفاء من رضا بهلوى التنـازل عن العرش لابنه محمد ، وتم ذلك فى يونيو ١٩٤١ ، وطلبوا منه مغادرة البلاد(٣٢) .

وطلب الشـاه مقابلة ابنه قبـل رحيله (الى جنوب أفريقيا لكى يظل فى قبضة الحلفاء) وكانت الدموع فى عينى رضـا بهلوى وهو يقول لابنه : « هل تستطيع الاحتفاظ بالعرش ؟ » ولم يقل الابن شـيئا ، واستمر الأب فى كلامه : « أنا لم أفشـل فى الاحتفاظ بالعرش لكن قوى أقوى منى أحكمت الحصـار حولى . لقد احتفظت لك بالعرش ، فهل تستطيع أن تحتفظ به ؟ » ولم يملك الابن الا أن يومىء برأسه موافقا .

---

(٣١) عبد السلام عبد العزيز فهمى ، مرجع سبق ذكره ص ٥٥

(٣٢) غادر بندر عباس فى سـفينة انجليزية متوجهـا الى جزيزة موريشيس الانجيزية فى المحيط الهندى وبعد فترة انتقل الى جنوب أفريقيا . ولم تطل حياته طلايلا بها حيث مات سنة ١٩٤٤

انظرا : عبد السلام عبد العزيز فهمى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٧ — ٩٨

وأهم شيء قاله رضا بهلوى لابنه عندما خاطبه بكلمات تـــدل على أنه هو وغيره من الحكام صنيعة الدول الاستعمارية لاحول لهم ولا قوة فى بلادهم ومن الأفضـــل عدم مقاومة الاستعمار وطلب منه احناء الراس له عندما قال :

« انصت يابنى ، لاتقـــاوم فنحن والعالم أجمع نواجه عاصفة أقوى منا جميعا . فاحن رأسك لها الى أن تمر » .

كان فى استطاعة محمد رضا أن ينفذ وصية والده فيما يتعلق بطاعة الدول الاستعمارية غير أنه لم يكن فى مقدوره تنفيذ طلبه الأخير منه عندما قال له : « أنجب ابنا » وكرر له هـــذا الطلب فى صيغة الأمر لأن ذلك فى يد الله سبحانه وتعـــالى . وكان ذلك طلب الحريص على دوام ملكه فى أسرته وعلى الرغم من أن المقادير ساعدت محمدرضـــا فيما بعد بانجاب الابن(٣٣) ، الا أنه لم يكن فى مقدوره أن يحتفظ بالملك لهذا الابن لأن رياح السياسة الدولية ومعارضة رجال الدين قضت على ملكه كما ســـنذكر بعد قليل .

حكم محمد رضا بهلوى :

كان عمر محمد رضا بهلوى عندما خلف والده فى الحكم ٢٣ عاما ، وكان يعانى من انخفاض روحه المعنوية بسبب ســـوء تربية والده لـــه الذى كان يضغط عليه كثيرا فى مرحلة شـــبابه ، ويصفه بأنه ابله مما جعل محمد رضـــا قليل الثقة بنفســـه ، ولقد صـــدم محمد رضا صدمة عميقة بما حـــدث لأبيه ، وأحسن بالرهبة من المسئوليات التى ألقيت على كاهله ، وانتابته الحيرة بسبب كل المشـــاكل المحيطة به ، وكان مدركا بأنه لا يتميز بصفات خارقة يواجه بها الموقف الذى أطاح بوالده .

---

(٣٣) تزوج محمد رضا مرتين ولم ينجب أولادا ، فتزوج للمرة الثالثة ابنة احـــد الضباط ، وهى فرح ديبا فأنجبت له أكبر ابنائه هو رضا بهلوى وقـــد ولد عام ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) وله ابن آخر وابنتان وهم على رضا وفرح وليلى . انظر محمد شاكر ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٤

ودخلت القوات الروســـية والبريطانية ايران فى أغسطس ١٩٤١ م وأصبحت ايران بمثابة جسر لعبور الســـلاح والمؤن الى الجبهة الروسية ، وأصبحت مصـــدرا رئيسيا للبترول يمد الحلفاء فى الحرب ، وبعد دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب بجانب الحلفاء أصـــبح يوجد ٢٨ ألف جندى أمريكى فى ايران أغلبهم كان يقوم بتوصـــيل المعدات العسكريـــة للجبهة الروســـية على حين كان آخرون يشكلون شـــبكة واســـعة من الخدمات الاضـــافية من الاشارة وتعبيد الطرق والخدمات الطبية وغيرها مع وجود كثير من رجال المخابرات بطبيعة الحال ، وعين الدكتور الأمريكى « ميلزبو » مديرا للشئون المـــالية الايرانية وأعطى ســـلطات تنفيذية على الحياة الاقتصادية بأسرها .

كما شغل الجنرال « كليرنس ريدلى » الأمريكى منصب رئيس البعثة العسكريـــة فى الجليش الايرانى ، وعين الكولونيل الأمريكى « نورمان » مستشارا للحكومة الايرانية وأصبح بعد ذلك مديرا لبوليس الأقاليم ، كما عين الأمريكيون الجنرال « دونالدكونولى » رئيسا لقيادة الخليج الفارسى المســـتقلة ومقر قيادتهـــا فى عبدان ، والجنرال « باتريك بورلى » ممثلا شخصيا للرئيس الأمريكى روزفلت فى ايران ، ولم يقتصر الأمر على هؤلاء المسئولين الذين كان لهم ســـلطات واسعة بل كان هناك من الموظفين الأمريكان فى ايران ، وكان هناك قبول فى البداية للأمريكيين فى ايران من والشعب(٣٤) وشيئا فشيئا اتضح للايرانيين أنهم لايقلون سوءا عن الانجليز والروس .

واستمرت قوات الحلفاء فى ايران طيلة الحرب وكان لابد من اظهار حســـن النوايا للشـــعب الايرانى ، وعقب اجتماع الثلاثة الكبار (روزفلت وتشرشل وستالين) فى مؤتمر القمـــة بطهران فى أول ديسمبر ١٩٤٣ م صـــدر اعلان ايران بتوقيعهم ، ونظم عملية انســـحاب القوات المتحالفة من ايران ، وأشـــار الى تضحيات ايران فى الحرب ، وتعهد الحلفاء بتقديم

---

(٣٤) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨

العون الايرانى أثناء الحرب وبعـــدها ، كما وعد بانســـحاب كل القوات الأجنبية من ايران خلال ســـتة أشهر بعـــد توقف القتـــال مع ألمـــانيا وشركائهـــا .

وفى ٢١ مايو ١٩٤٥ بادرت الحكومة الايرانية بارســـال مذكرة الى حكومات روســـيا وأمريكا وبريطانيا تطلب فيهـــا بدء جلاء قواتهـــا ، غير أن الســـفير الايرانى فى واشنطن ذكر للمسؤلين فى وزارة الخارجيـــة الأمريكية أن المذكرة الايرانية عن انســـحاب القوات « لم تكن بطبيعة الحال موجهة للقوات الأمريكية ، وكان من الضرورى ذكر هـــذه القوات حتى لاتتضايق الحكومتان السوفيتية والأنجليزية(٣٥) » .

وبهذا الوضـــع المتميز تمتعت القوات الأمريكية فى ايران بنفوذ كبير ، وتم الاتفاق فى واشنطن أن تأخذ ايران الأولوية فى امدادها بالأسلحة .

وساهمت هـــذه الحالة فى زيادة التأييد الشعبى للجبهة الوطنية التى يتزعمها محمد مصـــدق (١٨٨١ — ١٩٦٧ م) وخاصـــة عندما أعلنت أذربيجان الايرانية انفصالهـــا عن ايران بعاصمتها (تبريز) وذلك بدعم من الاتحاد السوفيتى الأمر الذى ألهب الشعور القومى(٣٦) .

أما موقف ايران من ألمـــانيا الهتلرية ودول المحور فانها قامت فى ربيع عام ١٩٤٢ م بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع كل من ألمـــانيا وايطاليا واليابان وطردت جاليات هـــذه الدول من ايران ثم أعلنت فى ٩ ســـبتمبر ١٩٤٣ الحرب على ألمـــانيا تضامنا مع الحلفاء(٣٧) .

---

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٦٠

(٣٦) كما أعلنت منطقة كردستان الايرانية فى أوائل شهر يناير سنة ١٩٤٦ م قيـــام جمهورية كردية مستقلة هى « جمهورية مها باد » تحت رياسة القـــاضى محمد ومشـــاركة الملا مصطفى البرزانى ، وتـــدعيم من روســـيا .
انظر : د. عبد الســـلام عبد العزيز فهمى ، مرجع ســـبق ذكرة ، ص ١١٦

(٣٧) د. عبد السلام عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص ١٠٦

والتزم الأمريكيون بما قدموه لايران من وعود ، وغادرت جيوشهم الأراضى الايرانية فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٥ م أى بعـــد انتهاء الحرب مباشرة ، وتدخلوا بالطرق الدبلوماسية لدى حلفائهم البريطانيين والروس للاقتداء بهم وتنفيذ قرارات ونصوص معاهدة التحالف الثلاثى « ومؤتمر طهران » وفعلا بـــدأ الانجليز فى الانسحاب تدريجيا صـــوب الجنوب ، وطالب الروس بامتيازات بترولية فوعدهم بذلك رئيس الوزراء (أحمـــد قوام السلطنة) المـــاكر ولا ينهم حتى يخرجوا من البلاد وعين احد الوزراء من حزب توده الشيوعى الايرانى لارضاء الروس وسمح بنشـــاط متزايد للعناصر الموالية لروسيا فى البلاد ، ورفع الخطر على اجتماعات حزب توده ، وصادر بعض الصحف المعادية للسوفييت ، وأمر بالقبض على بعض الشخصيات المعروفة بعدائها للسوفييت ، وفى مقابل ذلك نجح فى أواخر مارس ١٩٤٦ فى الحصول على تاريخ محـــدد لانسحاب القوات الروسية من بلاده(٣٨) فى غضون شهر ونصف ابتداء من ٢٤ مارس ١٩٤٦(٣٩) .

ونجح رئيس الوزراء فى خداع الروس ، فدعا الى اجراء انتخابات جديدة ، بعـــد أن أقتنع الروس وحزب تود ، أن مثل هـــذه الانتخابات ستؤدى الى تشكيل مجلس متعاطف مع فكرة منح الروس امتيازات تنقيب عن البترول فى شـــمال ايران ، وفى منتصف ديسمبر عام ١٩٤٦ دخلت قوات الشـــاه تبريز عاصـــمة أذربيجان بحجة أنه لايمكن اجراء انتخابات دون أن يكون للحكومة ســـلطة فعلية على كل أنحاء ايران وتم اســـقاط النظـــام العميل لروسيا فى تبريز(٤٠) لكن حينما اجتمع المجلس الجـــديد فى نهاية الأمر صـــوت بالاجماع تقريبا ضـــد منح الروس أية امتيازات

(٣٨) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٩

(٣٩) د. عبد السلام عبد العزيز فهمى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٤

(٤٠) وفى نفس الوقت نجحت القوات الايرانيـــة فى القضـــاء على « جمهورية مهاباد » الكردية وتحطيم الأكراد كعنصر بشرى متماســـك ، والقضاء على أملهم فى الاستقلال .

بترولية ، ولم يكن أمام الاتحاد السوفيتى سوى أن يوجه اللوم لحكومة ايران واتهامها بخيانة تعهداتها(٤١).

وعلى الرغم من ذلك فقد نجحت ايران فى اجلاء القوات المحتلة لأراضيها ، وأعلن رئيس الوزراء الايرانى فى ٩ من مايو ١٩٤٦ اتمام جلاء القوات السوفيتية عن البلاد(٤٢) وتفرغ رئيس الوزراء لمشاكل ايران الداخلية فقضى على الحركات الانفصالية فى البلاد للأذربيجانيين والأكراد وقبائل البختيارية فى أقليم أصفهان ، وقبائل بى كعب العربية فى اقليم عربستان ، وفر زعماء هذه الحركات خارج ايران .

وبرز اسم « قوام السلطنة » فى ايران وأصبح نجمه لامعا بدرجة أقلقت الشاه نفسه ، وكون قوام السلطنة حزبا سياسيا جديدا هو « الحزب الديموقراطى الايرانى » وفاز بأغلبية ساحقة فى انتخابات سنة ١٩٤٧ م ، غير أنه استقال فى العاشر من ديسمبر ١٩٤٧ م عقب اقتراع المجلس عدم الثقة بحكومته ، وذلك بعد أن رفض المجلس اتفاقية سنة ١٩٤٦ التى وقعها قوام السلطنة مع الاتحاد السوفيتى بشأن وعود امتيازات التنقيب عن البترول التى سلف ذكرها . لكن قوام السلطنة قد أدى دوره كاملا فى خداع الروس خدمة لبلاده حتى تم جلاء القوات الأجنبية عنها وبدأت مرحلة أخرى من تاريخ ايران تتمثل فى المناداة بتأميم البترول وتزعم هذه الحركة (محمد مصدق) وتحالف مع رجال الدين . وفى غضون ذلك قوى النفوذ الأمريكى فى البلاد على حساب الروس والانجليز .

ونظرت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الرأسماليين فى أوربا الى ايران على انها مكان مناسب لخلق قوة حربية تساعد على ايقاف المد الشيوعى فى المنطقة ، ورأت تهيئة ايران لزعامة الدول الآسيوية

---

(٤١) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٢

(٤٢) د. عبد السلام عبد العزيز فهمى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٥

الاســـلامية ، واحياء الجامعة الاسلامية لخدمة أغراض المعسكر الرأسمالى للقضاء على الدعاية الشيوعيـــة ورأت ضرورة السيطرة على اقتصـــاد ايران واغراقهـــا فى سيل من المعونات الغربية لربطها فى النهاية بالكتلة الغربية ، وبالفعل تم تزويد ايران بكثير من عتاد الحرب المتبقى من الحرب العـــالمية وكان مكدسا فى مخـــازن السلاح الأمريكية فى آسيا وأفريقيـــا وأوربا ، كما ارسلت مع هـــذا الســـلاح كثير من الخبراء والمستشارين الأمريكيين ، وشيئا فشيئا كثر الأمريكان فى ايران ، وكان هنـــاك جانب طيب فى مجال العلاقات الأمريكية الايرانية وهو تقـــديم المعونات الاقتصادية والغذاء للشـــعب الايرانى فى وقت كانت فيه ايران مفلسه بسبب ما حدث لهـــا ابان الحرب العالمية الثانية .

أزمة البترول فى ايران :

زاد التنافس بين انجلترا وروســـيا والولايات المتحدة الأمريكية على بترول ايران ورأت كل دولة أن لهـــا الحق فى الحصول على النصـــيب الأوفر من هـــذا البترول انجلترا بحكم تركتهـــا قبل الحرب وامتيازاتهـــا المرعبة وروسيا بحكم الجـــار القوى الذى يهدد باثارة الأقليات فى ايران ، وأمريكا بحكم كونهـــا الحليف القوى الذى ساعد قهر النازية بمساعداته العسكرية الفعـــالة أثناء الحرب ، ونسيت هـــذه الأطراف فى غمرة تنازعها الطرف الأصلى صاحب الحق الشرعى فى هـــذا البترول وهو ايران وظهر الدكتور محمد مصـــدق(٤٣) زعيم الكتلة الوطنية ورئيس لجنـــة البترول

---

(٤٣) اسمه الحقيقى « محمد ميرزا هدايت » وأطلق عليه مصـــدق لصـــدقه وأمانته ، وقـــد ولد فى عام ١٨٨١ م وكان والده وزير للماليـــة لمدة ثلاثين عاما ينتمى الى أسرة ثرية ووالدته من القجار ، ومع ذلـــك فكان ميالا لصـــالح الفئات الكادحة فى ايران بـــدأ حياته موظفا بوزارة المـــالية فى اقاليم ايران بعيدا عن العـــاصمة لمدة عشر سنوات ، ثم اتجه الى العمل السياسى وبدأ يخطب فى الجماهير فى فترات الاضطراب السياسى فى ايران فابعدته الـــدولة الى باريس فدرس بها الاقتصـــاد لمدة ثلاث سنوات وحصـــل على الدكتوراه فى القـــانون من جامعع السربون ، وعين وزيرا للمالية ســـنة ١٩٢١ ، فأعلن على الفور تخفيض مرتبات جميع =

فى المجلس النيابى ، وقد بدأت الأزمة البترولية عندما نظرت بريطانيا الى حليفتها الولايات المتحدة الأمريكة وهى تحـاول أن تستحوذ على النصيب الأوفر من بترول ايران وخشـيت أن تستولى فى النهايـة على البترول الايرانى ، فعرضت بريطانيا على ايران عقـد اتفاق اضـافى بشـأن امتيازاتها وبدأت المفاوضات بشـأن هذا الاتفاق فى يوليو سنة ١٩٤٩ م . وتعثرت بسبب معارضة مجلس النواب بزعامة محمد مصـدق ، وذلـك على الرغم من مناصرة (ساعد محمد ساعد) رئيس الوزراء الايرانى .

وكتب رئيس لجنة البترول (مصدق) تقريرا يقول فيه :

« ان اللجنة ترى خير عمل تقوم بـه هو تأميم البترول » وكان هذا التقرير سببا فى سقوط الوزارة ، وخلفتها وزارة الجنرال « على رزم آراه » أقوى رجـل فى ايران والعسكرى الذى قاد القوات الايرانية فى حروبهـا ضد الانفصاليين وحقق الوحـدة . وطلب من الشـاه أن يكون صدور القرار بتعيينه يحمل لقب (الحاج على رزم آراه) وليس الجنرال وخلع ملابسـه العسكرية وارتدى الملابس المدنية ، ودخل مبنى البرلمـان فى اليوم التالى ليواجه النواب الثائرين بزى جديد(٤٤) واعتقد رئيس الوزراء أنـه يستطيع ارهاب النواب والشـعب بماضيه العسكرى ، وظهر ضعف ايمانه بفكرة تأميم البترول وأراد المماطلة والمنـاورة ليكسب الوقت ، لكن المجلس كان متحدا على مسألة تأميم البترول .

وكان الشـاه غير مبال بمسـألة التأميم وكان يخشى من الغرب اذا هو أقـدم على ذلك ، ولكنه أراد اسـتعمال قوة الجنرال « رزم » وكان عمر الجنرال ٤٩ عاما ، وواجه موقفـا صعبا بزعامة مصـدق الـذى

= كبار الموظفين فى الدولة الى النصف ، فتم عزله وانتخبه الشعب ممثلا له فى البرلمـان ، وعارض تنصيب رضا بهلوى ملكا ، فأدخله السجن سنة ١٩٤٠ ، ثم أصبح زعيما للبرلمـان فى سنة ١٩٥١ .

انظر : جريدة الأخبار القاهرية ، عدد ١٩٦٧/٣/٦

(٤٤) د. عبد السلام عبد العزيز فهمى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٥

قال له : « أنت لست بحاج فلماذا تحاول خداعنا ؟ .. أنت جنرال — ثعلب فى ثياب قط عد الى الشخص الذى أرسلك الى هنا » .

وكان مصـــدق يتمتع بقدرة فائقة فى الخطابة المؤثره فى الجماهير ، وقـــد حضر له محمد حسنين هيكل (الكاتب الصحفى المرموق فى مصر) عدة مناقشـــات فى البرلـــان الايرانى فى تلك الفترة فيذكر عنه بأنه على الرغم من أنه قد بلغ الســـبعين من عمره الا أنه كان قادرا على تحريك العواطف ، فعادة ما كان يبدأ « بالتحدث الى النواب عن آلام الشـــعب الايرانى ، الى أن يتملكه التأثر من بلاغته شخصـــيا فينفجر باكيا . ثـــم يتحول البكاء الى نوبة ســـعال ثم ينهار تماما فيندفع اليه النواب يقدمون اليه أكواب المـــاء والكولونيا والمنعشات ليشمهـــا وبعد قليل ينجحون فى اعادة مصـــدق للوقوف على قدميه ، ويشرع فى مواصلة خطبته ، ليغلبه التأثر بنفس الطريقة مرة أخرى بعد خمس دقائق . كان الجميع يتعجبون من صدق عواطفه(٤٥) » .

وفى تلك الفترة قوى جناح رجال الدين وتعاهد مع مصـــدق وكان رجال الدين بزعامة « آية الله أبو القاسم كاشانى(٤٦) » وتشكلت جماعة ثورية فدائية من بين رجال الـــدين بزعامة نواب صفوى وصـــادق خلخالى تـــدعى « فدائيان اســـلام » أى الفدائيون المسلمون ، وكان نواب صفوى قـــد قرأ ذات مرة مقالة كتبها صحفى يسمى « كسروى » تهاجم الاسلام فاستشار أحـــد آيات الله فى مدينة « قم » عن عقوبة من يهين الاســـلام فقيل له الموت ، وهنا قرر ان يكون جماعة لتحمل مهمـــة تنفيذ هـــذه العقوبة ، وقامت باغتيال « كسروى » ســـنة ١٩٤٩ الذى كان يعمـــل محاميا بجانب عمله فى الصحافة . وأرســـل آية الله كاشانى لهم يبـــارك عملهم .

---

(٤٥) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٨ — ٧٩
(٤٦) كان كاشانى منفيا فى لبنان نفاه رضـــا بهلوى وعاد الى ايران ابان الحرب .

وارتفعت شعبية كاشانى ، وكان كاشانى من الزعماء الذين لديهم رغبة فى ازالة الفوارق المؤسفة بين الطوائف المسلمة وعلى الأخص بين الشيعة والسنة ، فيذكر الصحفى الأمريكى « روبير جاكسون » أن آية الله كاشانى التقى بحسن البنا زعيم جماعة الاخوان المسلمين فى موسم حج ١٩٤٨ ، « ويبدوا أنهما تفاهما ووصلا الى نقطة رئيسية لولا أن عوجل حسن البنا بالاغتيال(٤٧) » .

وقامت جمعية فدائيان اسلام باغتيال رئيس الوزراء الايرانى « رزم آراه » فى ٢٠ من فبراير سنة ١٩٥١ ، واعلن « نواب صفوى » بيانا يقول فيه : « ان البطل(٤٨) الذى قتل رزم آراه الخائن ادى واجبه » وأصدر آية الله كاشانى بيانا آخر يقول فيه : « ان الرصاصات التى أردت رزم آراه قتيلا كانت رصاصات مباركة مصحوبة بالتوفيق ، لقد كسبنا معركة البترول رغم أنف الخائن المضرج فى دمه » وقبض على قاتله وهو مازال يصيح « الله أكبر » وعندما سألوه عن اسمه لم يكن يجيب الا بقوله « عبد الله » وعندما ضغطوا عليه ليقر باسمه الثانى كان يقول : « موحدى » أى مؤمن بالله الواحد .

ووجه « صفوى » بيانا الى الشاه دون ذكر لأى من القابه مخاطبا اياه بقوله : « بسر بهلوى(٤٩) » أى يا « ابن بهلوى » اخبره فيه بلهجة قاطعة أنه يتحتم عليه أن يصدر أمرا بالافراج فورا عن القاتل وأن يقدم له الاعتذار عما لحقه من ضيق بسبب استجواب البوليس له ، وفشلت الحكومة فى احضار امام واحد يكون مستعدا لاقامة

---

(٤٧) عبد المتعال الجبرى ، لماذا اغتيل الشهيد حسن البنا ؟ دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٧٧ م ص ٣٢

(٤٨) كان هذا البطل هو خليل طهما سب عضو جمعية فدائيان اسلام .

(٤٩) يلاحظ أن لفظة « بسر » تستعمل فى الجزيرة العربية وعلى الأخص فى السعودية ويحرفونها الى « بزر » ويجموعونها على « بزور » الأولاد ، ويطلقون كلمة « بزور » هذه المحرفة عن الأصل الفارسى على الصغار بصفة عامة بنين وبنات .

شـــعائر صـــلاة الجنازة على « رزم آراه « وعرضت الحكومة ثلاثة آلاف جنيه على أحـــد الأئمة ليقوم بشـــعائر الصلاة ، لكن الامام أخبرهم أنه يرى حياته أغلى من هذا بكثير .

وحاول الشاه محمد رضـــا تعيين بعض المخلصين له مثل خليل فهمى نائب رئيس الوزراء المقتول ، وعلى سهيلى الســـفير الايرانى فى لندن ، وحســـين علاء وزير بلاط الشـــاه ، ولكن المجلس رفضهم جميعا ، وتعيين حســـين علاء لعدة أيام تحت وطأة الاحساس بالخطر الخارجى وتوقف أعمال الدولة ، وما كاد يوافق كاشانى ومصـــدق عليه حتى بدأ يشـــق طريقه وســـط الظلام ، فأعلن الأحكام العرفية وعين حاكما عســـكريا على طهران وضواحيهـــا ، فأقاله مجلس النواب ، وعين مكانه محمـــد مصدق فى ٢٦ أبريل سنة ١٩٥١ م .

لم تمض عدة أيام على تأليف وزارة مصـــدق حتى وافق المجلس على قانون تأميم البترول وصـــدق عليه الشاه فى اليوم التالى ، وعهد الى لجنة تؤلف من نواب الشـــعب لانشاء شركة وطنية ايرانية للبترول يحل فيهـــا الخبراء الوطنيون محل الأجانب وترسل البعثات الى الخارج لتعلم صناعة البترول .

والواقع أن شركة البترول الانجليزية الايرانية التى قامت هذه الجهود ضـــدها كانت تشكل دولة داخل الدولة الايرانية ، وتشـــكل كابوســـا جاثما فوق صـــدر الشعب وهى سبب كل الشرور والبلاء ، فكانت الشركة بما لها من امكانيات مالية جبارة تشترى زمم النـــاس فى ايران فتعين الوزراء وتقيل الوزرات وتسبغ عضـــوية المجلس النيابى على من تشاء ، وكان لهـــا هيمنة على رؤساء القبائل فى جنوب ايران كالبختيارية الايرانيين وبنى كعب العربية ، وكان زعماء هـــذه القبائل يملكون ثلاثة فى المـــائة من أســـهم الشركة حيث قـــدمت هدية لهـــم ليبذلوا نفوذهم وجهودهم لحماية مصـــالح الشركة وحراسة انابيبهـــا الممتدة عبر الصحارى وآبارها ومنشآتهـــا من أى اعتداء أو تدمير . وكان تاميم هـــذه الشركة أملا راود الايرانيين خلال نصـــف قرن من أجل تحرير الارادة الايرانية ، وقـــد عبر

محمد مصـــدق عن هذا فى رسالة له الى ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا بقوله :

« ان ايران تســـعى الى بتر النفوذ الآجنبى والعمـــلاء الأجـــانب وأى ســـلطان أجنبى من البلاد وأن تتولى مصـــائرها بنفسها وتضـــمن اســـتقلالها السياسى متعاونة مع الشعوب المحبة للســـلام فى المحافظة على الســـلم والأمن الدوليين ، وانـــه خلال نصف قرن سيطرت فيـــه الشركة على ايران لم يكن ممكنا للحكومة الايرانية أن تتخذ قرارا بمحض ارادتها سواء فى شئونها الداخلية أو فى سياستها الخارجية(٥٠) » .

لكن مشاكل اقتصـــادية كثيرة واجهت مصـــدق كان من أهمها تدبير المـــال اللازم لدفع مرتبات الموظفين المتأخرة ، فقـــد توقفت شركة البترول عن دفع التزاماتها المـــالية للحكومة الايرانية ، وزاد من حـــدة الأزمـــة توقف الشركة عن تكرير البترول فى ٣١ يوليو وشـــهد عام ١٩٥٢ م عرض القضـــية على هيئة الأمم ومحكمة العـــدل الدولية وقيـــام ايران بقطع العلاقات مع بريطانيا ، وقامت بريطانيا بتأليب حلفائهـــا ضد ايران ، فوجد مصـــدق نفسه عاجزا عن عمل أى شىء وهكذا وقف مصدق بمفرده يحارب وخزانته خاوية ، وفرضـــت بريطانيا على ايران حصارا بحريا محكما زاد من عزلة ايران .

واختلف الشاه مع مصـــدق واستغلت بريطانيا هـــذا الخلاف وكانت أمريكا تود أن ترث نفوذ بريطانيا فى ايران ولعبوا دور الوساطة ولكن مصدق رفض وساطتهم ، وفى الوقت نفسه رفض معونة الاتحاد السوفيتى ، ولم يســـلم مصدق من هجوم الشيوعيين عليه لأنه كان يكرههم كرااهيـــة مطلقة ، واتهمه سكرتير الحزب الشيوعى الايرانى (توده) بأنه عميـــل أمريكى يســـعى لانتزاع البترول من الانجليز واعطائه للأمريكيين(٥١) .

---

(٥٠) د. عبد السلام عبد العزيز فهمى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣١

(٥١) قدرى قلعجى ، من مقال له فى مجلة الحوادث ، حول تاريخ حياة الشاه محمد رضا بهلوى ، عدد ١٢٢٤ فى ١٩٨٠/٤/١٨

وعندما رفض الشـــاه طلب مصدق فى اسناد وزارة الدفاع اليــه قـــدم استقالته فى ١٦ يوليو ١٩٥٢ ، وكلف الشاه قوام السلطنة بتأليف الوزارة ، فهاجت الجماهير بزعامة آية الله كاشانى الـــذى نزل الى شوارع طهران وقاد مظاهرة مرعبة واجه بهـــا وحدات من الجيش الايرانى التى نزلت الى شـــوارع طهران لقمـــع الشـــعب واصـــبح المتظـــاهرون أمام مدفعية الجيش ، وأراد آية الله كاشانى أن يزيد من حماسة الجماهير فارتدى كفنا ورفعه المتظاهرون على أكفهم وكان ذلك اشارة الاستعداده للموت فألهب حماس الجماهير الذى يعدون بمآت الآلاف وقرروا الموت ، وتحول الموقف الى مواجهة خطيرة بين جيش مدجج بالسلاح وبين جماهير غفيرة تؤمن بالاستشهاد فى سبيل الله فأصدر الشـــاه أوامره بانسحاب الجيش من الشوارع بعيدا عن المتظاهرين .

وكانت نتيجة هـــذه المظاهرة خوف قوام الســـلطنة على نفســـه فقـــدم استقالته واختفى عن الانظار خوفا على حياته واضطر الشاه الى تكليف مصـــدق بالوزارة من جـــديد ، وكان مصـــدق قـــد بعث من قبل رسالة الى ايزانهاور الرئيس الأمريكى يطلب فيهـــا قرضـــا من الولايات المتحدة الأمريكية وهدد اذا لم يحصل على قرض منهم فانه سيلجأ الى أى مصـــدر آخر وكان معنى ذلك أنه يعنى الاتحاد السوفيتى ، فرد عليه ايزنهاور برســـالة ضمنها هى الاخرى تهديدا مفاده : اذا لم تـــدخل يران فى محادثات فورية مع الشركة البريطانية بشـــأن تسوية المشكلة فلن تقدم لهـــا أمريكا أى قرض ، فغضب مصـــدق واتجه على الفور الى الاستعانة بالشيوعيين وأطلق العنان « لحزب توده » وصحفه وكانت تلـــك غلطة كبرى منه أفقدته أنصـــاره من رجال الدين وعلى رأسهم كاشانى صاحب الفضـــل الأكبر فى النجاح الذى حققه مصـــدق ، وانتخب كاشانى رئيسا للبرلـــان برغم معارضـــه مصدق ، وانطلقت الصحف الشيوعية المتطرفة تهاجم آية الله كاشانى ، وتهيأ الشـــاه للخروج من البلاد لكى يتيح الفرصة لانقلاب مضـــاد ولكن آية الله كاشانى رفض حتى لاينفرد مصـــدق بالسلطة ويستغل الشيوعيون والمستعمرون خروج الشاه .

فعمد مصدق الى حل المجلس النيابى واجرى استفتاء سنة ١٩٥٣ لمنحه السلطة المطلقة للقيام بالاجراءات اللازمة للدفاع عن البلاد وجاء الاستفتاء مؤيدا له على الرغم من معارضة كاشانى ورجال الدين وهنا استعمل الشاه حقه الدستورى فأصدر أمرا باقاله مصدق فى غيبة مجلس النواب الذى يستمد مصدق شرعيته منه ، وتدخل الجيش وقام بانقلاب وغادر الشاه البلاد لفترة وجيزة حتى يستتب الأمن وكان قد عين الجنرال « زاهدى » رئيسا للوزراء ، وقدم مصدق الى المحاكمة وحكمت عليه المحكمة بالسجن ثلاث سنوات(٥٢) .

أما زاهدى فقد أعاد العلاقات مع بريطانيا وسوى مسألة البترول بتكوين اتحاد من شركات الاحتكار البترولية للاشراف على بترول ايران ووافق البرلمان على ذلك ، وعاد الشاه الى ايران منتصرا ، واستقبله الجيش على رأسهم الجنرال زاهدى الذى اعترف له بالفضل فى كل ما حدث غير أنه ادعى أن الفضل الآول لامام الزمان « فهو الذى حمانى وهو الذى أعادنى سالما منتصرا(٥٣) » والقى الجنرال « دفترى » رئيس الشرطة بنفسه على قدمى الشاه وقبل حذاءه ، ونشرت الصحف هذه الصورة التى سيكون لها أعظم الأثر فى حياة الشاه وحياه ايران ، وشعر محمد رضا بأن الشعب الايرانى هو الذى يسجد أمامه مكفرا عن موقفه معربا عن عبوديته ومذلته ، فامتلأ زهوا وكبرياء ، وخيل اليه أن سلطانه مستمد حقا من الله وكثر من حوله بعد ذلك المنافقون الذين يأكلون من فتات مائدته فازداد مع الأيام استعلاء وخيلاء . وكان أول ما قام به بعد ما استعاد ملكه ، أنه ألغى الحريات الديموقراطية وقضى على كل شكل من اشكال المعارضة ، وجاء ينفذ السياسة الأمريكية لأنها هى التى رتبت لكل شىء .

فالأمريكيون وشركة النفط الانجليزية يرغبون فى التخلص من مصدق ، والأمريكيون يخشون التهديد الروسى للاستيلاء على ايران ، و « جون

(٥٢) وبعد خروجه من السجن حددت اقامته فى منزله حتى وافته المنية فى سنة ١٩٦٧ م الأخبار القاهرية ، عدد٦/٣/١٩٦٧ م .
(٥٣) الحوادث ، عدد ١٢٢٤ بتاريخ ١٨ أبريل ١٩٨٠

فوستردالاس » وزير الخارجية الأمريكى يومئذ يقول « ان التهديد السوفيتى لايران هو تهديد حقيقى خطير ووشيك الوقوع » وقال : « لو تمكن الروس من السيطرة على ايران فانهم سيتحكمون فى الخليج الفارسى »(٥٤) وكانت السلطة الحقيقية فى طهران فى تلك الأيام فى يد السفارة الأمريكية فهى التى خططت ونفذت .

وتمت مطاردة رجال الدين وقبض على الكثيرين منهم وأعدموا وقضى على كثير منهم فى السجون والمعتقلات وأن عددا آخر منهم رمى فى بحيرة « ساوة » وهم أحياء ، وكانت هذه العملية تتم بواسطة طائرات الهيلوكوبتر ، التى كانت ترمى بهم فى قاع تلك البحيرة المالحة ، وتم اعدام نواب صفوى زعيم « فدائيان اسلام » وقام الجيش والبوليس بانزال عقوبات خاصة بالمدن التى أظهرت تأييدا واضحا لمصدق والجبهة الوطنية ، أو تلك المدن التى أبدى رجال الدين فيها عداء واضحا فى نقدهم للشاه فكانت مدن « قم » و « شيراز » و « تبريز » و « أصفهان » مسرحا لعمليات تفتيش واعتقال على نطاق واسع ، وفى طهران ازيل بيت مصدق بالجرافات حتى لايتحول الى رمز وقبلة للمعارضة ، وتم قتل حسين فاطمى وزير خارجية مصدق .

وتصرف الشاه بطريقة مختلفة مع حزب توده الشيوعى فقد قبض على خمسين من أعضائه وأودعهم السجن ثم أخلى سبيلهم بعد قليل بأمر من روسيا . وهكذا كان الغضب ينصب على التنظيمات الاسلامية بشكل أقوى مما ينصب على الفئات الأخرى العميلة . أما الجنرال زاهدى فانه استطاع أن يرهب الشعب ويقلم أظافره .

وبعد أن اطمأن محمد رضا بهلوى الى أنه قضى على المعارضة أخذ يؤسس نظاما يقوى من سلطانه ويدعم نفوذه ، فأنشأ نظاما للتجسس على الشعب سماه (المنظمة الوطنية للأمن والمعلومات) وهى تعنى بالفارسية : (سازمانى اطلاعات فاامجينات أى كيشفار) وتلخص فى كلمة واحدة هى (السافاك) .

---

(٥٤) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٨

والسافاك جهـــاز للحفاظ على نظام الشاه وتبعيته للغرب وبقصــد الكشف عن الخلايا الثورية التى تعمل ضد نظامه وضـــد النفوذ الأجنبى الـــذى يحمى الشـــاه ، ويعين الشـــاه رئيس السافاك برتبة نائب رئيس الوزراء ، وكانت هـــذه المنظمة تعمل فى كل مكان وفى كل وزارة يعين أحد ضباطها على الأقل فى منصـــب مدير عام ، وفى كل قسم يوجد أحد عملائها المدربين، وذلك بالاضافة الى أعداد هائلة من عملائها فى الفنادق والمقاهى ومعظمهم يقـــدم المعلومات للسافاك دون مقـــابل ، ســـوى النجاه من قبضـــة السافاك ، واضحى رئيس السافاك من أقوى الشخصـــيات فى البلاد ، وكان هـــذا الجهاز يتعاون مع المخابرات الأمريكية والمخابرات الاسرائيلية ، وكان يعمل فيـــه وينتسب اليه عـــدد كبير قـــدرته الجهات المطلعة بين ٣٠ ألف و ٦٠ ألف فى حين ذهبت مجلة أمريكية الى أنـــه حوالى ٣ ملايين(٥٥) ، وتخطى هـــذا الجهاز الرهيب مهمة القمع التى أنشىء من أجلهـــا الى انه عمل على الغاء حرية التعبير عن الرأى لدرجة جعلت الشخص يشـــك بأمر من يعلن رأيه صراحة عن معارضته للحكومة خوفا من أن يكون عميلا للسافاك ، وقـــد زادت جرائم السافاك فى المجتمع الايرانى فى مجال قتل المعـــارضين أو سجنهم أو نفيهم وراح ضـــحية ذلك كثير من الأبرياء وهجر المعارضون ايران الى العراق ودول الخليج العربى والى أوربا وأمريكا .

ولقد اعترضت المنظمة الدولية لحقوق الانسان وهى أوربية علـــى هـــذا النظام الذى لا يوجد فى العـــالم أجرا منـــه على انتهاك حقوق الانســـان ، وتقول مجلة « الشـــهيد » الايرانية : « وقـــد اســـتطاع السافاك انزال ضربات عنيفة بحركة التحرير الاســـلامية الوطنية فى ايران وارهاقهـــا المتواصل بالتصفيات والاعدامات والاعتقالات ، وخصوصـــا حينما استعدت قيادات حزب توده الشـــيوعى بعد اعتقالهم ، للتعـــاون مع السافاك لضرب الحركات الثورية ، فلقد انهـــار قادة حزب توده تحت التعذيب ، واعترفوا بكل شىء ، ووضعوا كل امكانياتهم فى خدمة السافاك ،

(٥٥) مجلة نيوزويك الأمريكية ، نقلا عن الحوادث ، عدد ١٢٢٥ فى ١٩٨٠/٤/٢٥ م .

ودون أن يعلن السافاك كعادته عن الاعتراف فى الاذاعـــة والتليفزيون ، أخرجهم بعد مدة من الزمن من الســـجن ، وكأنهم لايزالون صـــامدين فى وجه ارهاب الســـلطة ، وبدأوا فى العمل السرى من جديد وحاولوا أن يتسللوا الى داخل المنظمات والحركات الثورية ، ويكشفوا كثيرا من جوانبها وقيادتها وخططها عن طريق التسلل أو انشاء العلاقات الحركية الخاصة ، وكانت كل المعلومات التى يحصلون عليها تتحول الى الى أيـــدى السافاك ، وفى فترة قصيرة من الزمن فى عام ١٩٧١ شن السافاك حملة تصفية واسعة ضـــد كل الحركات الثورية والمنظمات المناضلة ، واعتقل كل القيـــادات والكثير من العناصر ، وكانت هذه ضربة مؤلمـــة جدا تلقتهـــا حركة التحرير الاســـلامية الوطنية فى ايران بفضـــل تعاون حزب توده الشيوعى مع السافاك(٥٦) » .

ووضـــعت خطة أمريكية للسياســـة التى يجب على الشـــاه أن يحـــاول اتباعها ، وقـــد اتضحت هـــذه الخطة من خلال وثيقة وجدتها حكومة الثورة الايرانية فى أرشيف « قصر المرمر » أحد قصـــور الشاه ، واشتملت الوثيقة على سبع توصيات أساسية هى :

١ — ينبغى القيام بحملة مركزة لتقديم الشاه بمثابة الأب للعائلة الايرانية كلهـــا (فرماندة) كما يقول التعبير القـــديم ، مقتدين فى ذلـــك بأفضل التقاليد الايرانية الراسخة .

٢ — ينبغى اســـتخدام كل أساليب الدعاية الممكنة لتدعيم مكانة العرش وســـمعة الشاه شخصيا ، وقد ذكر بهذا الخصـــوص أنه يوجد فى ايران مجموعة جاهزة تقريبا لتأييد الشـــاه ، يمكنه أن يخطب ودها ، وهى النســـاء ، فنصف ســـكان ايران تقريبا من النساء ، واذا كانت المفـــاهيم القديمة تتحكم فى الرجال فان النســـاء أكثر تأثرا بالمفاهيم الجديدة لذا فان العمل على تحرير النساء سيعطى الشاه قاعدة فى كل منزل .

---

(٥٦) مجلة الشهيد الايرانية ، عدد ١٩٧٩/١١/١٧ ، نقلا عن مجلة الحوادث العدد السابق .

٣ — ينبغى على الشاه وحكومته الجديدة أن يبذلوا قصارى جهدهم لأن يزيدوا من حجم الطبقة المتوسطة ويدعموها . فعلى الرغم من قلة قاعدة هذه الطبقة الا انها كانت تمثل اكثر اشكال المعارضة الفعالة لصدق ، فالطبقة المتوسطة بحكم غرائزها ومصالحها تخشى المغامرة ، وتتبنى رؤية علمانية ، لذا يمكن أن تصبح هذه القاعدة الطبيعية للنظام .

٤ — ينبغى أن تظهر وجوه سياسية جديدة ، فالساسة القدامى أمثال أحمد قوام السلطنة ، والسيد ضياء الدين الطباطبائى قد نالت الشيخوخة منهم ، وأصبحوا غير قادرين على مواجهة المستقبل .

٥ — من المستحسن جدا أن يلعب الشاه دورا بارزا فى الشئون الدولية ، على مستوى الشرق الأوسط ، والمستوى العالمى الواسع اذ أنه ثبت أن كثيرا من رؤساء الدول الصغرى استفادوا كثيرا من الصورة التى خلقوها لأنفسهم فى الخارج .

٦ — ينبغى أن يهتم الشاه اهتماما بالغا بالشئون الدينية ، فيعمل جاهدا على انتزاع القيادة الدينية للبلاد من آيات الله فى « قم » فيجب عليه ، على سبيل المثال أن يصر على الذهاب للصلاة كل أسبوع فى مسجد مختلف .

٧ — ينبغى وضع دراسة واعية لتنظيم المخابرات والسيطرة عليها ، ويراعى الاهتمام بشكل خاص بمطالب القوات الجوية ، لأنها اذا احتفظت بولائها فستكون بحكم مقدرتها على الحركة ، فى موقف يسمح لها بالقضاء على أى تهديد من قبل وحدات الجيش ، هذا بالاضافة الى أنها تتكون من أعداد قليلة من الضباط والأفراد ، يتمتعون بامكانية قتال مركزه ، ويسهل احكام القبضة عليهم أكثر مما هو الحال مع الجيش(٥٧) وزاد الاعتماد على أمريكا بصفة مزعجة فى مجال الادارة والجيش ، وتم ارسال كل الضباط من رتبة كولونيل فصاعدا تقريبا لقضاء فترة تدريب فى الولايات المتحدة تتراوح بين سنتين وثلاث سنوات ،

---

(٥٧) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٢ — ٩٣

وخلال فترة حكم الشـــاه التى دامت ٣٨ سنة أرسل مالا يقل عن ١٥ الف ضـــابط لتلقى تدريبهم فى أمريكا خلال هـــذه الفترة من الارتباط الطويل هـــذا بخلاف عـــدة آلاف من صـــغار الضباط وضباط الصف قضـــوا فترات أقصر ، وتم عزل أسلحة الجيش بعضها عن بعض وعن « السافاك » ومنع الشـــاه أى نوع من التنســـيق بين هذه الأجهزة الذى يؤدى الى النقـــد ويؤدى بدوره الى التمرد ، وهـــذا هو الذى جعل قواد الجيش مشلولين عن أن ينسقوا مواقفهم عندما قامت الثورة لأنه لم يكن لديهـــم الوسيلة التى تمكنهم من ذلك .

ومن ناحية أخرى مدت الولايات المتحدة الأمريكية ايران بالمســـاعدات الاقتصـــادية والفنية الا أنهـــا كانت فى حرج دائما أمام جماعات المطالبين بحقوق الانسان فى الغرب فكانت التقارير عن « السافاك » التى تنشر فى الغرب مزعجة فأعلنت أمريكا ازاء هـــذا مضطرة فى عهد الرئيس كنيدى أن المساعدات الأمريكية يجب أن تقترن باصلات داخلية تقوم بهـــا ايران فى مرافقها العـــامة ولاسيما فى حقلى الادارة والزراعة ، ودخلت البـــلاد ابتداء من ســـنة ١٩٦٠ فى طور التنمية الرأسمالية والاصـــلاح الزراعى وأطلق الشـــاه على ذلك فى ٢٦ يناير ١٩٦٣ ما عرف باســـم « الثورة البيضاء » (انقلاب سفيد) وتقوم هذه الثورة على الأركان السته التالية :

١ — الغاء النظام الاقطاعى .

٢ — تأميم أراضى الغابات .

٣ — بيع الشركات الصـــناعية التى تملكها الدولـــة الى مصـــالح خاصـــة .

٤ — مشاركة العمال فى الأرباح المتأتيه عن الصناعة

٥ — حق التصـــويت للنساء (ويلاحظ هنا ان ما فى المذكرة السابقة بدأ ينفذ) .

٦ — تأسيس جهاز للتعليم ينتقل الى القرى .

ثم ألحقت بها ستة مبادىء أخرى هى :

١ — تأسيس جيش الصـــحة من الأطباء وأطباء الأسنان والصيادلة ومســـاعدى الأطباء لتقـــديم كافة الخدمات الصحية والوقائية فى القرى والأرياف .

٢ — تأسيس جيش الاعمار والارشـــاد من المهندســـين والفنيين لتقـــديم كافة الخدمات الهندسية والانشـــائية والارشادات الزراعية فى القرى والأرياف .

٣ — اقامة بيوت العـــدل والانصـــاف فى القرى والأرياف لحـــل المنازعات التى تنشـــأ فى الريف بالطرق الحبيه وبطريقـــة التراضى بين الطرفين .

٤ — تأميم مصادر المياه الجوفية وجعلها ملكا للقطاع العام .

٥ — اعمار وتجديد بنـــاء البلاد على أسس ومخططات عصريـــة صحيه لتطوير وتوســـيع المدن وحل أزمة الســـكن وتأمين كافة الخدمات البلدية والمشاريع الانشائية .

٦ — الاصـــلاح الادارى والثورة التعليمة بهدف القضـــاء علـــى الروتين الادارى ، وتغيير أسس التعليم ليكون منسجما مع متطلبات العصر ومنطق التطور العلمى .

ثم أضيف بندان آخران الى بنود هذه الثورة الاثنى عشر .

البند الأول : يقضى بعرض أسهم المعامل والمصانع الحكومية والأهلية على المواطنين لشرائهـــا تلافيا لكل احتكار يمكن أن ينشـــأ فى القطـــاع الصـــناعى .

البند الثانى : يقضى بتحديد الأسعار الحقيقية للسلع من أجل مكافحة الغلاء .

وزعم الشـــاه أن هـــذه الثورة للقضاء على الفساد الذى ينخر فى المجتمع الايرانى وجهـــاز الدولة وطغيان الاقطـــاع الزراعى والقضاء على ما يعانيه الشـــعب الكادح من جور وبؤس ، وذكر أن التناقضات والمظالم

الاجتماعية كانت خلال السنوات المـائه المـاضية عوامل للثورة والانقلابات، والتغييرات المفاجئه التى ادت الى اسـتبدال أنظمـة الحكم فى كثير من البلدان بأنظمة أخرى وادعى أيضـا أنه يهتم فى ثورته هذه بالروحانيات والدين وصـيانة الحريات الفردية والجماعية ، وعنـدما طرح الشـاه مبادىء هـذه الثورة على الاستفتاء الشعبى ، كان التصـويت عليهـا بنسبة ٩٩ر٩٩٪ بالقبول والايجاب (!)(٥٨) .

ومن ناحية أخرى زادت عائدات البترول زيادة مضطردة بعـد أن تسلمت شركة البترول الايرانية الوطنية ادارة اخراج البترول من الشركات البريطانية والأمريكية والفرنسـية والهولندية فى يوليو ١٩٧٣ بموجب اتفاق يعطى لهـا سيادة على الثورة البترولية والمؤسسات التابعة لهـا فى ايران من البترول الى خمس مليارات دولار فى سـنة ١٩٧٣ ، ١٨ مليارا فى سنة ١٩٧٤ ، ١٨ مليارا فى سنة ١٩٧٥ و ٢٠ مليارا فى سنة ١٩٧٦ ، ٢٠ مليارا فى سنة ١٩٧٧ ، وواحد وعشرين مليارا فى سنة ١٩٧٨(٥٩) .

والحق أن ايران قـد حققت تقدما ملحوظا فى مجال التنمية والتصنيع وفى مجال الزراعة ولكن كل ذلك كان فى اطار تدعيم حكم الشاه الدكتاتورى المتسـلط ، وأنشـأ الشـاه حزبا لمسـاندته « حزب البعث القومى » أو مايسمى بالفارسـية (راستاخيز) وقـد أتاح هـذا الحزب المجـال للمنتفعين من ذلك الاصـلاح والعاملين فى المؤسسات الحكومية للاعراب عن ولائهم للشـاه ، وكان الشاه يستطيع أن يسقط فى الانتخابات أى مرشح لايريده ، أو يضمن النجاح للمنافقين .

وقد اطلع العـالم كله فى عام ١٩٧١ على مدى ما وصـل اليه الشاه من تجبر وطغيان فى الاحتفالات الأسـطورية التى أقامها بمناسـبة مرور ٢٥٠٠ سـنة على تأسيس حكم (قورش) بانى امبراطورية فارس للتأكيد على تجدد الروح القومية الآرية المتعصبة ، وارتباطها بتعاليم (زرادشت) أكثر من ارتباطها بتعـاليم الاسلام واظهار الفتح الاسلامى بمظهر الهجرة

---

(٥٨) محمد رضا بهلوى ، الثورة البيضاء ، ١٦ — ٢١
(٥٩) الحوادث ، عدد ١٢٢٥ ؛ فى ٢٥ أبريل ١٩٨٠.

البربريه على الحضـــارة الفارسية التى أوقفت مسيرتها والتقليل من اهمية الفترة الاســـلامية فى تاريخ ايران وربط عظمة ايران بذلك الملك القوى الذى ابتدأ من (قورش) الكبير الى محمد رضا الـــذى توج أثناء هـــذه الاحتفالات امبراطورا باسم : (الشاهنشاه) أى ملك الملوك ، ونعوذ بالله من دلالة هذا اللقب ومنافسته للمولى عز وجل الذى هو بحق ملك الملوك ، كما أســـبغ على نفسه لقبا آخر (آريامهر) ومعناه نور الآريين . وكان معنى ذلك هو نزع الهوية الاســـلامية عن ايران والعودة بهـــا الى النزعة الشعوبية الفارسية الآرية تماما كما فعل مصطفى كمال أتاتورك فى تركيا عندما الغى الخلافة الاســـلامية وتعصب للتركية ، وهى مثل الفرعونيـــة فى مصر والفينيقية فى الشـــام والبابلية فى العراق ، والقومية العربية فى ديار العرب .

وقد الغى الشـــاه التقويم الهجرى واتبع التقويم الفارسى القـــديم ، وظهرت على الشـــاه أعراض التأله أو على الأقل أنه مبعوث العنايـــة الالهية التى تدعمه فى خطواته ، فيذكر فى مقدمة كتابه « نحو الحضـــارة الكبرى » :

« وأنا كربان ســـفينة بلادى المصيره الضـــاربة فى عرض المحيط الهائج لعالمنا اليوم ، كان اتكالى على العناية الالهيه أساس جميع قراراتى وجهادى ومنطلقهـــا ، لذلك فان تقدمنا محتوم مادمت مؤمنا بأن مشيئتى هى من مشيئته تعالى .

« وأشـــعر قلبيا أن هـــذه المشـــيئه التى لولاها ما تجاوزت طاقتى طاقة انســـان عادى ، فوضتنى كزعيم لهذه الأمة لتأدية هـــذه الرسالة ، فمادامت هذه مشيئته فليس بمقدور كائن من كان أن يحول دون انجـــاز هذه الرسالة ، ســـواء كان المعيق قوة سياسية أو اقتصـــادية أو حتى أية عوامل فردية أو ذاتيه .

« وايمانى هـــذا جزء من روحى وان كان لايتماشى مع أى شـــكل من اشكال الديالكتيك أوالا لاستدلال المـــادى والعلمى ، ذلك أن الأحداث المتباينة والمدهشة فى حياتى أزالت لدى أدنى شـــك فى أن هنـــاك قوة

خارقة هى ماوراء الانســـان ، رسمت قدرى مصيرى وشـــعبى ، وانا أستوحى جميع أعمالى من هـــذه القوة الخارقة ، فهى سر نجاحى وموجهة دفة قيـــادتى(٦٠) » .

وفى مجال محاولة الشـــاه تدعيم حكمه اعتمد على الأقليات الدينية المنشـــقة عن الشيعة (كالبهائية) واخـــذ يشجعهم وعينهم فى كل وسائل الاتصـــال العسكرى مثل الرادار واللاسلكى وغيرها ، وكانت احـــدى نتائج هـــذه الخطوة عندما قامت الثورة الاســـلامية وبرزت شكوكها تجاه البهائية أن تعطلت وسائل الاتصال فى الجيش .

كما تعاونت ايران الشاه مع اسرائيل الى أبعد الحـــدود وتحـــدت شـــعور العرب وأمدت اسرائيل بأغلبية ما تحتاجه من بترول ووصـــل التعاون الى درجة أن « السافاك » والمخابرات الاسرائيلية (الموســـاد) تعاونتا الى أبعـــد الحدود ، كما تعاونت السافاك مع المخابرات المركزية الأمريكية ، واختارت حكومة الشـــاه بعض الضباط ومنهم ضباط من أفراد الحرس الجمهورى وأرسلتهم للتدريب فى اسرائيل ، وكانت احـــدى نتائج هـــذه الخطوة هى تشـــجيع العرب للمعارضـــة الايرانية كما ســـترى فيما بعد عند قيام الثورة الاسلامية .

وقد قامت أجهزت الاعلام الغربية والصهيونية بحملة ترويج واسعة النطـــاق لحكم الشاه على أنه النموذج الذى يجب على دول العالم الثالث أن تقتفى أثره ، وخاصة فى الاعلام الأمريكى المسيطر عليه اليهود ، فهو فى نظرهم الحكم المستقر القوى المصـــلح المتفتح غير المتعصـــب المســـلم صـــديق الولايات المتحدة واسرائيل ، وكان ذلك بســـبب أن الصهيونيـــة راضـــية على نظـــام حكم الشـــاه وسياسته المعترفة باسرائيل وعلاقته السياسية والاقتصادية الوطيدة بها وانقاذه اياها من الحصار الاقتصادى العربى المفروض حولهـــا من العرب ، ولمـــا كان اليهود يتحكمون فى الاعلام

---

(٦٠) مقدمة كتاب « نحو الحضارة الكبرى » لمحمد رضا بهلوى ، نقلا عن الحوادث اللبنانية ـــ العدد السابق .

العـــالمى والأمريكى بصـــفة خاصة فقـــد عملوا له هـــذه الدعاية الجبارة مدفوعة الثمن بطبيعة الحـــال ، وظهر أخيرا ما هو أدهى وأمر ، أن هذه الدعاية الاعلامية للشـــاه كانت مدفوعة الثمن للصحفيين بعملة غالية يسيل لهـــا لعاب الصحفيين ، وهى الســـجاد العجمى الفاخر الذى كان يقدمه القصر لهم ، وشـــهد على ذلك شاهد من أهلها أخير ، وهو مساعد مدير الشئون الصحفية الايرانى كما أعلن ذلك مؤخرا(٦١) .

* * *

(٦١) الحوادث عدد ١١٥٨ بتاريخ الجمعة ١٢ من يناير ١٩٧٩ م .

الفصـــل التاســـع

الثورة الاســـلامية فى ايران

على الرغم من أن الشاه محمد رضا بهلوى حاول فى العقود الثلاثة الأخيرة من حكمه أن يجعل من ايران قوة كبرى بالاعتماد على موارد البترول الضخمة الا أن معارضــة رجال الدين له ظلت قائمة ، وزادها اشتعالا تلك العوامل التى ســبق أن أشرنا اليها فى الفصــل الســابق ، وهى تكميم الأفواه بجهاز السافاك ومحاولة الشــاه ربط النهضة الايرانيــة الأخيرة باحياء الفارسية القديمة والعلمانية الأوربية والتعاون مع الصهونية العالمية رغم تعاطف الشــعب الايرانى مع اخوانهم العرب ومناصرتهــم لقضية فلســطين .

وبدات المعارضــة تحلل اســباب فشلها على أيام حركة مصــدق وآية الله كاشــانى ، فاستخلصت ان الفشــل يرجع الى اعتماد الثوار على الجهــاز الحكومى القــائم وعلى العملية الديمقراطية فى انتخاب رئيس الوزراء عن طريق مجلس النواب ، فعلى الرغم من أن رجال الدين احتلوا أغلبية المقــاعد فى أيام مصــدق وكان آية الله كاشانى رئيسا لمجلس النواب الا أن ذلك لم ينقذ البلاد ، وقررت المعارضة السرية فى ايران أن لابــد من مواجهة العنف بالعنف فذلك هو الســلاح القوى لمن يريدون تغييرا وبدات الجمعيات السرية فى الانتشار ، وكان من اهمها :

١ — مجاهدى خلق : التى تأسست فى أواخر الخمسينيات ، وتشكلت من بعض عناصر الجبهة القومية التى تم حلهــا وحظر نشــاطها ، وكانت ذات ملامح اســلامية ، وتبنت العديد من الأفكار التقدمية الشــائعة فى العالم الثالث .

٢ — فدائيان خلق : وهى جماعة ماركسية الاتجاه بشكل واضــح وتعد الوريث لحزب توده الــذى تلاشى تقريبا وقتلته الحكومة قتلا كما سلف أن ذكرنا .

وسلكت هاتان المنظمتان مســلكا ارهابيا كســلاح ضــد ارهاب السافاك للمعارضة ، وتمكنتا من البقاء على الرغم من اختراق السافاك لصفوفهما ، وأصبحت فدائيان خلق أكثر فاعلية عنــدما اتصلت بمنظمــة فلســطينية هى « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » التى يشرف عليها

جورج حيثى ، وقامت الجبهة الشــعبية بتدريب أعضاء « فدائيان خلق » فى لبنـــان .

واتصــلت بعض الجماعات من المعارضة(١) الايرانيـــة بحكومـــة الثورة المصرية حوالى خمسين فردا على رأسهم : ابراهيم يزدى وصادق قطب زاده الــذى تولى وزارة خارجية ايران فى حكومة الثورة ومصطفى الشمرانى ممن تقلدوا مناصب قيادية بعد الثورة . وقــد حضر هؤلاء الى القاهرة للتدريب على الســلاح ، وتم ارسالهم الى معسكر انشاص خارج القــاهرة ، وهى ضيعة كانت للملك فاروق وقــد أعدتها حكومة الثورة لكى يتلقى فيهــا جماعات جبهات التحرير المختلفة تدريبهم ، وهناك التقوا بجماعات من الفلســطينين والآريتريين وغيرهم من الأفارقة كما أرســلت مصر أيام عبد الناصر مســاعدات مالية لأسر الــذين قتلهم الشــاه ، وتجاوب عبد الناصر مع رســالة بعثها اليه آية الله الخمينى يطلب منــه مساعدة هذه الأسر(٢) .

المعارضـــة الاســـلامية فى قم :

ونظرا للمراقبة الشــديدة التى يتعرض لها المعارضون لحكم الشاه فى طهران واســتمرار الضغط عليهم فقد هجروا المدينة تماما وتمركزوا فى مدينة « قم » وعلى الأخص المعارضة الاسلامية ، وهى القوة الرئيسية(٣) ،

---

(١) كان فى ايران بجانب مجاهدى خلق وفدائيان اسلام عدة أحزاب علمانية أهمها : ١ — حزب ايران ٢ — حزب الأمة الايرانيـــة ٣ — حزب الشعب الايرانى ٤ — حركة تحرير ايران التى كان يقودها مهدى بازرجان وآية الله طلقانى وانفصلت الحركة الأخيرة عام ١٩٦١ عن الجبهة الوطنية لأنهــا طالبت بالتأكيد على القيم الاســلامية وهنـــاك أحزاب اقليمية فى ايران مثل : ١ — الحزب الديموقراطى الكردستانى ٢ — جبهة تحرير الأهواز ٣ — رابطة شعب بلوشستان ٤ — وجمهورى خلق مسلمان أذربيجان .
انظر : قدرى قلعجى الشــاه الطريد ، الحوادث عــدد ١٢٢٦ ، بتاريخ ١٩٨٠/٥/٢

(٢) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٨

(٣) المعارضة الاسلامية قديمة فى ايران من أيام أسرة القجار كما سلفت أن أوضحنا .

ومدينـــة قم هى العاصمة الدينية فى ايران وهى التى دفنت فيها أخت الامام جعفر الرضـــا فاطمة المعصـــومة سنة ٢٠١ هـ (٨١٦ م) وقـــد اهتـــم الصفويون بهـــذه المدينة منذ أن أسسوا دولة شـــيعيه فى فارس فى القرن العاشر الهجرى ، فاحاط الشـــاه عباس الأول (٩٩٨ — ١٠٣٩ هـ) قبر فاطمة المعصـــومة بآيات من فن العمارة الاســـلامى ، وأصبحت المدينة مركز للدراسات الاســـلامية وملتقى العلماء ومثوى الأتقياء الذين يفضلون أن يدفنوا فيهـــا ، ويشعر الزائر للمدينة بهالة من القداســـة تحيط بالمكان ولجأ رجال الـــدين الى قم ليكونوا بعيـــدا عن أعين الرقباء من رجـــال الســـافاك .

وفى « قم » برز من بين رجال الدين زعيم قوى هو : « آية الله روح الله موســـوى الخمينى » الذى يرجع أصـــله الى قرية خمين التى تبعد ٨٠ ميلا جنوب غربى مدينـــة قم ، وقـــد ولد عام ١٩٠٢ من والد يدعى مصطفى موسوى من رجال الدين ، وقـــد مات والده مقتولا بيد بعض الاقطاعيين لأنه كان يدافع عن حقوق الفلاحين ، وذلك بعـــد ميلاده بأقل من عـــام ، وماتت أمه ســـنة ١٩١٨ ، والتحق الخمينى منذ صغره بالمدارس الاسلامية فى مدينـــة « أراك » وفى مدينة « قم » وكان فقير الحـــال لدرجة انه كان ينام فى المســـجد الذى يتلقى فيه دروس العلم ، وسرعان ما أتم دراسته ، وحصل على شهادة فى الفلسفة الاسلامية والمنطق ، وبدأ فى القاء دروسه على أيام الشـــاه رضا بهلوى ، ونظرا لأنه كثير التعرض للأمور السياسية فقـــد وجد متابعة له من « المخابرات الخاصـــة برضا بهلوى ، ثم بعـــده من السافاك التى أنشـــأها محمد رضا بعد ذلك ، وبلغت قمة ايذائه عندما قتلت أحد أبنائه ويسمى مصطفى فيما بعد .

ونظرا لجراة الخمينى فى حوزته (أى حلقته التى يلقى فيها دروسه) بـــدأت الســـافاك ترصـــد تحركاتـــه وعلمت بمبلـــغ من المـــال (١٥٠ الف دولار) أرســـله عبد الناصر الى أسر الأرامل واليتامى(٤) من

(٤) ارسل عبد الناصر هـــذا المبلغ (كما ذكر محمد حسنين هيكل دون تحديد للســـنة التى أرسله فيهـــا) عن طريق عبد الحميد السراج

منكوبى حكم الشـــاه ، فأراد الشاه استغلال هذا الحادث فأذاع خطابا توجه به الى القيـــادات الدينية فى ايران يسألهم عن رأيهم فى زعيم دينى (دون أن يصرح باسم الخمينى) يأخذ مالا من غير الشـــيعة ، ولم يسكت الخمينى ورد على الشـــاه فى « حوزته » فى اليوم التـــالى قائلا : « لقد آن الأوان لأن تنتهى « التقية » وأن نقف ونعلن مانؤمن به » .

ثم اقتبس جزءا مما قاله الشـــاه فى الاذاعـــة وعلق عليه قائلا : « أنا لست فى حاجة الى نقود ، فالهبات التى تجىء من حوزتى تغطى كل احتياجاتها ، والنقود التى أرسلهـــا الرئيس جمال عبد الناصر لم تكن مرســـلة لى ، وانما للجنة المساعدات ، لسد احتياجات الأرامل والأيتام هؤلاء الـــذين ترملوا وتيتموا من جراء حكم الشـــاه وحكم أبيه من قبله ، واننى أنتهز هذه الفرصة لأعلن نهاية التقية(٥) » .

وبهذا الاعلان أصبح الخمينى أول زعيم شـــيعى يستنكر التقيـــة ويهاجم الشـــاه علنا وبشـــكل مباشر ، وعندما أعلن الشـــاه ثورتـــه البيضـاء ســـنة ١٩٦٢ التى سبق أن أشرنا اليهـــا هاجمه الخمينى فحاولت أجهزة الدعاية الشـــاهانية ابرازه على أنه معـــاد لحقوق المرأة لأن الشاه كان يتيح للنســـاء حق الانتخـــاب وحق الترشيح ، واستـــعان الخمينى بالعناصر الشـــابة من رجال الدين فبدأت تلتف حوله ، وكان الخمينى ينظر الى مفهوم الحضـــارة الغربيـــة بمنظار يختلف عن الشـــاه فهو يقول : « ان الكلام عن أن الشـــاه أراد أن ينقل الحضارة الغربية الى ايران كذب محض ، ولقـــد خان الشـــاه بهذا الكذب الشعب الايرانى ، كما أهان الغرب ، وما كان يحاول ترويجه باسم الحضارة الغربية ليس الا اشاعة الفســـاد ، وتفريغ الانســـان من هويته ومقومات وجوده وضرب المثـــل

= رئيس جهاز المخابرات فى ذلك الوقت واخذه شخص لبنانى وغادر مطار بيروت ، ولكنه قبض عليه فى مطار طهران ووقع فى يد المخابرات الايرانية التى أبلغت الشاه بدورها . (محمد حسنين هيكل ، المرجع الســـابق ، ص ١١٥) .

(٥) المرجع السابق ، ص ١١٥ — ١١٦.

والقيم الانســـانية تحت شعار الحضارة الغربية(٦) » كان معنى ذلك أن الخمينى يوضـــح له أن هناك فرق بين جوهر الحضـــارة وبعض مظاهر الفساد فيهـــا .

وتقدم الخمينى ومن ورائه الجماهير وخاصـــة الشباب خطوة الى الأمام فى معارضته فقـــدم عريضة الى الشـــاه وقع عليها معه رجال الدين الشبان طلب فيهـــا من الشاه تحطيم سلاســـل العبودية مع أمريكا ، وعـــدم التضحية بمصـــالح الشعب من أجل مصالح الصهيونية وأمريكا ، وأن يحترم حرية المســـلمين والايفرض حكمه بالرصاص وخداع النـــاس بالانتخابات والثورة البيضـــاء ، وأن يستخدم ثروة البلاد المتزايدة لمكافحة الفقر والجهل ، فأرســـل الشاه اليه احد رجال السافاك يصحبة أحـــد رجال الدين يخبره أن يكف عن مهاجمة الشـــاه واسرائيل وأمريكا وله أن يخوض فى أى شىء آخر .

ومع ذلك لم يخشى الخمينى ففى اليوم التالى أذاع فى مســـجد فاطمة كل مادار بينه وبين رســـول الشاه ثم تساءل : « مامعنى هـــذا ؟ لمـــاذا لا يســـمح لى بمهاجمة اسرائيل ؟ هل الشاه والد اسرائيل أو أم اسرائيل ؟ ولمـــاذا لايســـمح لى بمهاجمته شخصيا ؟ هل هو على ؟ كلا أنه انسان يخطىء ، واذا أخطأ نقول له انـــه أخطأ مثلما نقول انـــه أصاب عندما يفعل الصـــواب ، وما كل هـــذا بخصوص الولايات المتحدة ؟ هـــل من المفروض أن نمجد من يستعبدوننا ومن حطم احترام أمتنا لنفسها » .

هاجم الخمينى غيره من رجال الدين الصـــامتين وقال : « اما أن ينضم الينا كل رجال الـــدين ، والا فهم أسوأ من المرتدين وان لم يتكلموا جهارا ، فمعنى هـــذا أنهم قد اختاروا جانب الشـــيطان ، وختم الخمينى حـــديثه بموعظة متوجهـــا للشاه ، وقائلا له : « لم أعد قلبى لتقبل انذارك ، وانما أعددته لتلقى رماحك(٧) » .

---

(٦) حسن الزين ، الثورة الايرانية فى أبعادها الفكرية والاجتماعية ، ص ٢٥ وقدرى قلعجى ، الشاه الطريد ، مرجع سبق ذكره ص ٥١

(٧) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ص ١١٧ — ١١٨

ولقد نجح الخمينى فى خطته ضـــد الشاه لانه كان يعارض العنصرية التى أحياها الشــــاه ، فخطة الشاه هى احياء الامبراطورية الفارســـية التى تصلهـــا بالعرقية الآرية وتربط البلاد بالنفوذ الأجنبى ، أما رجال الدين والخمينى فقد تحدثوا عن الرابطة الاسلامية التى تربط جميع الأجناس ســـواء الأكراد أو العرب أو التركمان وغيرهم فى اطار واحـــد لا فرق لأحـــدهم على الآخر الا بالعمل الصـــالح ، ومن ثم تجمعت حوله كـــل الأقليات غير الفارســـية فى ايران لانه يحدثهم بلغة معروفة لديهم وهى الرابطة الاســـلامية التى يكون فيهـــا المسلمون كالجسد الواحد مهمـــا اختلفت أجناسهم ، ولو كانت الثورة الخمينية كما قالت البرائد وغيرها من جرائد الغرب فى بداية الأحـــداث مجرد حركة رجعية تعارض الاصلاح الزراعى لأنه شـــمل الأوقاف الاسلامية الشيعية التى تؤلف ١٥ فى المـــائة من أراضى ايران ، لمـــا استطاعت أن تحتوى المعارضـــة الايرانية كلهـــا بجميع فئاتهـــا ، وأن تحشـــد الأمة بكافة طبقاتهـــا ، ولكن هذه الثورة حين طرحت شعار اســـقاط النظام ، حين تجاوبت البلاد مع هذا الشعار من أقصاها الى أقصـــاها انما كانت تمثل فى أذهان النـــاس محاربة خطة الشـــاه التى تفرض عليها الاغتراب عن عقيدتها(٨) .

وفى شهر مارس ١٩٦٣ هاجمت قوات الشـــاه البريـــه وعملاءه المدرســـة الفيضية التى تعود الخمينى أن يلقى فيها موعظه بمناسبة الذكرى الســـنوية لموت جعفر الصـــادق ، وقتلت حوالى ٢٢ شخصا وقبضت على عـــدد أكبر ، وعندما علم آية الله الحكيم الـــذى يعيش فى العراق بما حدث لزملائه اتصـــل بهم وطلب منهم الحضـــور الى كربلاء والنجف بعيدا عن اضطهاد الشـــاه ، وأعلنت السلطات استعدادها لتسهيل مهمة من يريد الرحيل عن البلاد ، ولكن الخمينى رد على الشـــاه بقوله : « لن أتخلى عن مسئولياتى بعون الله ، واذا كان لنا أن نموت فسنكون من الشهداء واذا كتبت لنا الحياة فسنكون من الظافرين(٩) » .

---

(٨) قدرى قلعجى ، الشاه الطريد ، الحوادث عدد ١٢٢٦ بتاريخ ١٩٨٠/٥/٢

(٩) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠

وازاء هــذا كان لابد من القبض على الخمينى وكان الخمينى قد القى موعظة فى ٥ يونيو ١٩٦٣ بمناســبة مرور اربعين يوما على استشهــاد الشباب بسبب الهجوم على المدرســة الفيضية ، وحشدت الحكومة قوات كبيرة فى مدينة قم ، والقى الخمينى أعنف كلمات وجهها للشــاه حتى هذا التاريخ ، فقــال : « اســتمع الى نصحى ! استمع الى أولئك الــذين تهمهم مصــالح الشعب بشكل حقيقى ! استمع أيهــا البائس العليل ! لقــد عشت حتى الآن خمسا وأربعين عاما فى هــذه الدنيا ، فلتتوقف هنيهة ولتتأمل ماذا قدمت لبلدك . وليكن مصير أبيك درسا تتلقنه . تتهمنا بالرجعية انما أنت الرجعى الأســود » وأكمل حديثه وهاجم الشــاه فى سياسته تجاه أمريكا واسرائيل ، فتحرك البوليس وقبض على الخمينى ، فاندلعت المظاهرات على الفور فى قــم وطهران ، وامتلأت الشــوارع بالدبابات والمدافع وقتلت عشرات المتظاهرين ، وقام أحــد طلبة المدرسة الفيضية باغتيال حسن على منصور رئيس الوزراء .

وزادت الأزمة بينما كان الخمينى قــد أودع السجن فى طهران ، فتحرك آيات الله الآخرين بزعامة شريعتمدارى ، وكان الخمينى لم يحصل على درجة آية الله العظمى ، وكان قــد قدم رسالة الى اللجنة المختصــة من العلماء وكانت قيد الفحص وهى بعنوان « تحرير الوسيله » فوافقت اللجنة على الرســالة وحصل الخمينى على لقب « آيه الله العظمى » وكانت قوانين البلاد تمنع القبض على من يحمل هذا اللقب العلمى والدينى ، واصبح استمرار حبسه قضــية حساسة ، فقررت الســلطات التخلص منه واخراجه من البلاد ، فحملته ســيارة ورمته على الحدود التركية فى منطقة مهجورة لكنه نجح فى عبور الحــدود من تركيا الى النجف ولحقت به أسرته فيما بعد .

وتم التخلص من كثير من انصــاره فى قم بالقتل والســجن والتشريد وخضعت قم الى حين ، ولجأ الشــاه الى اجراء كثير من الاســتفتاءات المزيفة لاظهار حكمه بالطابع الديموقراطى أمام العالم الخارجى لكن التقارير كانت مزعجة لدرجة أحرجت انصاره ٨ أمريكا والغرب ، واختلفت الآراء حول الأعــداد المودعه فى ســجون الشاه ، فقد اعترف الشاه فى سنة

١٩٧٧ بأن هنـــاك ٣٢٠٠ سجين سياسى ، فى حين نكرت هيئة المحلفين الدولية بأن عـــدد المسجونين يتراوح بين ٢٥ الف ، ومائة الف سجين(١٠) . وقبض الشـــاه بيد من حـــديد على البلاد ، وبدأ الخمينى يتصل بأنصاره وبالشعب عن طريق ارســـال الشرائط المسجلة فكان يهاجم الشـــاه فى العراق ثم ترســـل الآشرطة الى ايران وتوزع فيزداد غضب الجماهير ، وكان المريدون يتحلقون لســـماع صوته وانضم اليهم غيرهم ، وسرعان ما تحولت تلك الرســـائل المسجلة على الكاسيت الى رسائل سياســـية وطبع منها الآلاف وتم تداولهـــا خارج مدينة قم ، وفعلت هذه الرسائل فعلهـــا القوى فى البلاد (١١) ، ورغب الشـــاه فى ان يضغط على العراق بشـــأن نشاط الخمينى فى النجف لكنه لم يتمكن من ذلك قبل سنة ١٩٧٥ ففى هـــذه الســـنة تمت اتفاقية بين العراق وايران وسويت المشـــاكل الى حين وتعهـــدت كل من العراق وايران بعـــدم التدخل فى الشـــئون الداخلية للبلد الآخر .

وفى سنة ١٩٧٧ طلبت الســـلطات العراقية من الخمينى اما أن يتوقف عن دعوته للثورة أو يرحل عن البلاد لأن ايران طلبت تنفيذ بنود اتفاقية ســـنة ١٩٧٥ ، واستعد الخمينى لمغادرة العراق الى فرنســـا ، وبينما هو يستعد للرحيل روعته السافاك فى سبتمبر ١٩٧٧ بقتل ابنه مصطفى الذى كان يقوم بدور رئيسى فى حمل رســـائل والده المسجلة الى ايران . وتمالك الخمينى نفســـه وواصل معركته ضد نظام الشـــاه واصدر أربعة تعليمات الى الايرانيين :

١ — أن يقاطعوا المؤســـســـات الحكوميـــة طالمـــا أن الحكومـــة لاتستطيع أن تزعم أنها حكومة اسلامية .

٢ — أن يسحبوا كل أشكال التعاون مع الحكومة .

---

(١٠) الحوادث عدد ١٢٢٦ ، بتاريخ ٢ مايو ١٩٨٠ ص ٥٣

(١١) وبعد نجاح هـــذا الأسلوب من التوعية الثورية أضحى يدرس فى المعاهد السياسية فى الغرب على أنه مجال جـــديد وفريد من نوعـــه واطلقوا عليه (Cassette Revolution) أى الثورة عن طريق شرائط الكاست ، أو الثورة عن طريق الخطابات المسجلة .

٣ — الا يسهموا فى أى نشاط قد يفيد الحكومة .

٤ — أن يقيموا مؤسسات اسلامية جديدة فى كل المجالات الاقتصادية والمالية والقضائية والثقافية .

الخمينى فى فرنسا :

وغادر الخمينى العراق فى ٦ اكتوبر ١٩٧٧ الى باريس واستقر فى ضاحية « نوفل لى شانو » التى تبعد ٢٠ ميلا غربى باريس ، وقد قامت لجنة الطلبة فى باريس باستئجار فيلا له فى هذه الضاحية على حسابها وقامت بترتيب رحلته الى باريس وقاموا بحراسته خوفا على حياته أثناء اقامته فى فرنسا .

الثورة تنتقل الى جميع أنحاء ايران :

وسادت ايران فى عام ١٩٧٨ حالة من الفوضى بسبب كثرة المظاهرات ولم تعد مدينة قم وحدها هى الثائرة وانما انتقلت الثورة الى جميع المدن الايرانية وعلى الأخص طهران وبدأت الاضرابات فى كثير من المواقع فزلزلت الأرض من تحت أقدام الشاه وحكومته ، وكثر تمرد بعض كتائب الجيش وفرار بعضها لأن الخمينى عمل على مخاطبة الجيش وطالبهم فى خطبه بألا يخدموا فى جيش الشاه لانه جيش الشيطان وهم جنود الله المستضعفين ، وينبغى عليهم الا يطلقوا النار على اخوانهم من المسلمين « لأن كل رصاصة تصيب قلب مسلم هى ايضا رصاصة تصيب قلب القرآن ، يجب أن يعودوا الى قراهم ولأسرهم وأراضيهم ، يجب أن يرجعوا الى المسجد الى الله » واخذ الخمينى يحثهم على اخذ أسلحتهم معهم عند الهرب ورسم لهم خطة الهروب فقال : « فلتتركوا الجيش بأعداد صغيرة أسلحتكم معكم ، فهى أسلحة الله »

ودعا الخمينى الى تكوين لجان ثوريه « فليكن كل مسجد لجنة ثوريه » وفى يناير ١٩٧٨ كانت مدينتى « قم » و « مشهد » مسرحا لأحداث دامية هى بداية الانتفاضة فى ايران بسبب أن أحدى صحف الحكومة

تتهجم على آية الله الخمينى ، فثار النـــاس وخرجوا بعد صـــلاة الجمعة مستنكرين فى مظاهرات ملأت شـــوارع قم ومشهد ، وعلى طريقة السافاك واجه الرصاص المتظاهرين وســـقط كثيرون ، قدرتهم بعض المصـــادر بسبعين قتيلا وذكرت مصـــادر أخرى أن الشرطة منعت الدم عن الجرحى فمات منهم كثيرون(١٢) .

والذى زاد من حـــدة غضب الجماهير أن الشاه اتهم المتظاهرين بأنهم شيوعيون ســـود (نسبة لأردية رجال الـــدين الســـوداء) خرجوا احتجاجا على تحرير المراة والاصـــلاح الزراعى ، فتعمد الشـــاه الكذب على الشـــعب والشعب يعرف الحقائق فزادت غضبته ، وزاد خوف الشاه بعـــد أن أطلع على الموقف بنفســـه خلال جولاته بالطائرة المروحيه فى سماء العاصمة طهران ومعرفته بالأعداد الحقيقية التى كانت تملأ الشوارع فأصـــدر أوامره بألا يدخل عليه أحـــد الا بعد التفتيش حتى الامبراطوره ، ولعل ذلك كان بسبب رغبة الامبراطورة فى أن يتنازل الشـــاه عن العرش لابنه خوفا من عواقب الأمور المرتقبة وضـــياع العرش من الأسرة نهائيا ، وكان الشـــاه له راى آخر هو أن يصمد خوفا من أن يفسر الثوار هـــذا العمل ضعفا من جانبه فيضيع كل شىء .

خوف اسرائيل :

وكانت أمريكا واسرائيل فى هلع شـــديد لأن الثوار ازدادت علاقتهم بمنظمة التحرير الفلسطينية التى كانت تقوم بتدريبهم وتزويدهم بالأسلحة وكان بعضهم فى حراســـة الخمينى فى باريس ، وكانت خسارة اسرائيل من جراء سقوط الشـــاه أفدح من خســـارة أى طرف آخر فقد كان يمدهم بالبترول ويتبادلون معه المعلومات حول البلاد العربية ، وكان حجم التجارة بين البلدين يصل الى ٤٠٠ مليون دولار ســـنويا ، وكانت ايران عميلا جيدا فى شراء الســـلاح من اسرائيل ، وكانت سفارة اسرائيل فى طهران

---

(١٢) عبد المنعم سليم ، مجلة الدعوة المصرية (عـــدد ذو الحجة ١٣٩٨ هـ) مقـــال بعنوان « الثائرون فى ايران سود ماركسيون أم مسلمون ايرانيون » .

عبارة عن قلعة فكانت محاطة بالمتاريس ومزودة بأبواب حديدية ، كما كان يوجـد طريق للهرب فى حالة الطوارىء ، عبارة عن سـلم حـديدى يؤدى الى سـطح المبنى ومنه الى مبنى مجاور يمكن النزول عن طريقه الى شـارع آخر ، وقـدم الاسرائيليون بعض التقرير عن الوضـع فى ايران وعن المخاوف التى تساورهم بشـأن الأحداث الجارية ولكن الشاه لم يسـتمع اليهم ونصحهم بعـدم نشر مثل هـذه الشائعات التى تثير الذعر فى الناس(١٣) .

وفى أغسطس ١٩٧٨ وقعت حادثة مروعة فقـد شب حريق فى سينما مزدحم بالرواد فى (عبدان) مدينة البترول ومات ٤٣٠ من جراء الحريق ، والقت الحكومة المسئوليـة على عاتق ماسـموه « بالعناصر الاسـلامية الماركسية » ولكن تذكر بعض المصادر المطلعة أن الحريق من تدبير السافاك لادخال الرعب فى قلوب الطبقة(١٤) التى تقف بجانب الشـاه ، وشهدت عبدان بعـد الحريق اضطرابات عنيفة معادية للحكومة حيث هوجمت المبانى الحكومية ، ونادى المتظاهرين بموت الشـاه ، وتحركت قوات الشاه لاطلاق الرصاص على المتظاهرين .

محاولة التراجع المتأخرة:

استقر رأى الشاه على أن يجرى تغييرات تتعلق بالحريات بممارسة نشاطهـا ، ومن أجل ذلك قام بتعيين رئيس جديد للوزراء هو جعفر شريف امامى فى أول سبتمبر ١٩٧٨ وقـد اختاره الشـاه على أساس انه يتمتع بعلاقة طيبة برجال الدين ، ولكن بعد فوات الأوان .

وعلى الفور أعلن « امامى » برنامجه لتهدئة الخواطر وهو :

١ — الافراج عن المسجونين السياسين .

٢ — زيادة المرتبات الحكومية بنسبة ٤٠٪ .

---

(١٣) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٧ — ١٩٨
(١٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٢

٣ — السماح للأحزاب السياسية الشرعية بممارسة نشاطها .

٤ — اجراء انتخابات جديدة .

٥ — احترام حقوق الانسان .

٦ — قيام حملة تطهير لحزب الحكومة ضد الفساد .

وحاولت الحكومة ارضاء رجال الدين فألغت فى التشكيل الجديد وزارة شئون المرأة التى اقامها الشاه ، وتم الغاء التقويم الامبراطورى الفارسى الجديد والعودة الى التقويم الهجرى(١٥) .

لكن الوقت كان متأخرا فقامت مظاهرات عنيفة فى طهران تطالب بخلع الشاه ، وقيام الجمهورية الاسلامية وعودة الخمينى من المنفى ، وكانت هذه أول مرة تصل فيها المظاهرات الى هذه الجرأة ، فأعلنت الحكومة الأحكام العرفية فى ١٩٧٨/٩/٧ وزادت المصادمات والمظاهرات لدرجة أزعجت أمريكا واسرائيل والشاه ، فاضطر الشاه الى اختيار حكومة عسكرية على رأسها الجنرال (غلام رضا أزهدى) ، رئيس أركان القوات المسلحة ووافقت أمريكا . واحتلت القوات العسكرية مواقعها فى طهران . ومحطة الاذاعة ودور الصحف فى ٦ من نوفمبر ١٩٧٨

وحاول الشاه تهدئة الخواطر فأعلن على الشعب انه ينوى محاربة الفساد والظلم وأن الحكومة العسكرية مؤقتة لكن هذه المحاولات كانت بمثابة محاولة لانقاذ حكمه بينما هو يهوى بشدة من أعلى القمة ولايستطيع أحد انقاذه الا بمعجزة ، وبدات أمريكا فى الاتصال بالمعارضة المدنية والدينية ، وعمل الشاه نفس الشىء فاتصل بكريم سنجابى زعيم الجبهة الوطنية ومن أنصار مصدق وممن سجنوا بعد القضاء على حركته ، وطلب منه الشاه تكوين حكومة قومية فرفضت الجبهة الوطنية أن يكون ذلك فى ظل الأحكام العرفية ، وعول عليه الشاه فى الاتصال بالخمينى

---

(١٥) عبد المنعم سليم ، مجلة الدعوة المصرية ، عدد ذى الحجة ١٣٩٨ هـ ، مرجع سبق ذكره .

فى باريس فلم يتراجع الخمينى فقبضت الحكومة على سنجابى لأنها شكت فى نواياه عقب عودته من باريس فى ١٠ من نوفمبر ١٩٧٨(١٦) .

وبدأت الحكومة تضحى ببعض من كانت تشير اليهم أصابع الاتهام فى مجال الفساد وظلم الشعب ، ففى ٧ نوفمبر قبضت على الجنرال ناصرى رئيس السافاك ، وبعده قبضت على (أمير عباس) الذى ظل رئيسا للوزراء ويقود مسيرة الظلم ١٢ سنة ، وتم القبض على كثير من الموظفين الكبار وعلى عشرة من أصحاب الملايين ، وأعلنت السلطات أنه سيتم محاكمة هؤلاء جميعا بتهمة الفساد ، وسيتم التحقيق مع اخوة واخوات الشاه ، فارسل الخمينى الى الشعب يحذرهم من الا يخدعوا بمثل هذه المناورات وقال لهم : « ان الرجل الذى يجب أن يكون موضع التحقيق هو الشاه نفسه وليس اخوته وأخواته أو مؤسسة بهلوى ، فلتقدموه للمحاكمة » .

وحاولت الحكومة فرض حذر التجول فى البلاد فى أول محرم ١٣٩٩ هـ حيث تبدأ احتفالات الشيعة المعروفة فى الثلث الأول من محرم من كل عام ، ويسودها الحزن ويعم الناس نوع من الفدائية تذكرا لموقف الحسين بن على شهيد كربلاء فيتمنون الموت مثله ، فأرادت الحكومة أن تدرأ هذه الموجة قبل وقوعها بفرض جذر التجول ، لكن الخمينى أرسل اليهم بأن يتحدوا حذر التجول فازدحمت الشوارع بالمتظاهرين وسقط الكثير من القتلى ، وتراجعت الحكومة فألغت حذر التجول فتظاهر فى طهران وحدها يوم عاشوراء (١٠ من محرم ١٣٩٩ هـ) حوالى مليون متظاهر .

وهنا اطمأن الخمينى الى حجم الجماهير التى تطيعه فبدأ يعد العدة لما بعد سقوط الشاه ، فطلب من بازرجان الذى كان فى زيارته فى باريس أن يعد له قائمة بأول وزارة لحكومة الثورة وتم الاتفاق عليها ، وعينه الخمينى ممثلا سياسيا له فى طهران ، وطلب منه أن يذهب الى المناطق البترولية فى الجنوب وينظم اضرابا من عمال البترول وتم هذا الاضراب بنجاح الأمر الذى اخذ بحكومة الشاه ضررا بليغا .

---

(١٦) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٢ ، وانظر ايضا : الياس حرفوش ، واشنطن فى انتظار شاه ايران ، مقال فى مجلة الحوادث ، عدد ١١٥٨ ، ١٢/١/١٩٧٩ م .

موقف الروس والأمريكان :

كانت روسيا ترقب الموقف بحذر شديد وروح ملؤها الصمت والحيرة لما يحدث من اضطرابات شعبية فى كل مكان ، ونرى أمريكا وهى مرتبكة بشأن مصير الشاه والخوف على ضياع مركزها فى ايران . وخافت روسيا من اى تدخل أمريكى مباشر ، فنشرت البرافدا (الجريدة الروسية الناطقة بلسان الحكومة) تحذيرا من بريجنيف بأن اى تدخل من جانب الولايات المتحدة فى شئون ايران الداخلية سوف ينظر اليه الاتحاد السوفيتى على أنه يؤثر على مصالحه الأمنية ، واستمرت روسيا فى تأييد حزب توده الشيوعى ، وكانت ترى أن الحركة الشعبية فى ايران يتزعمها رجال الدين وهذا لايسرها لأن الدين فى نظرها رجعى ، فلم تكن راضية بهذه الحركة على الرغم من أنها شعبية وهى تدعى أنها تناصر الحركات الشعبية ، وهو لاشك تناقض واضح .

وحاول الشاه عندما اشتدت به الأزمة أن يستعين برأى السفير الروسى فى طهران (فينوجرادوف) فيما يحدث ، فأخبر الشاه بأن ذلك هو الصراع الطبقى بين الفقراء والبرجوازية الايرانية ، وازداد نشاط الشيوعيين فى ايران فى تلك الآونة واشار البعض الى خطورة الموقف ، فربما يركب الشيوعيون الموجة ويقطفون ثمرة الثورة من بين أيدى الجماهير الثائرة فى النهاية ، وتتعرض بذلك الثورة الايرانية الى انتكاسة ثورية عندما يفرض الشيوعيون أنفسهم(١٧) وبدأت تظهر على جدران مدينة طهران شعارات « الجمهورية الشعبية » بدلا من « الجمهورية الاسلامية » وهو شعار الخمينى ، وزاد توزيع الكتب الماركسية ، وبدأت عناصر المخابرات الروسية تدخل ايران عن طريق أفغانستان لكى ينظموا اتباعهم(١٨) .

---

(١٧) احسان عبد القدوس ، من مقال له بعنوان « حتى نخرج بسلام بين روسيا وأمريكا » جريدة الشرق الأوسط التى تصدر فى لندن باللغة العربية عدد ١١٦ ١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٩ م .

(١٨) الياس حرفوش ، مجلة الحوادث ، عدد ١١٥٨ ، مرجع سبق ذكره .

أما أمريكا فانهـــا كانت ترقب الموقف فى أسى وتتخبط فى نصائحها للشـــاه فمرة تنصـــحه بحكومة دســـتورية ، واعطاء شىء من الحريات للشـــعب ، ومرة تدفعه الى تكوين حكومة عسكرية ، وفى النهاية عنـــدما اتضـــح لها قوة الثورة ، رأت ان كل هـــذه الحلول لم تعد مقبولة ، وانه لابـــد من رحيل الشـــاه ، فأبرق السفير الأمريكى الى حكومته قـــائلا : « ان الشـــاه لابد أن يرحل » وبدأت أمريكا فى الاتصال بالمعارضة المدنية سرا ، فاتصلت بمهدى بازرجان الـــذى كان ينتمى الى الجبهة الوطنية ، وسبق أن القت الحكومة القبض عليه عندما اعلنت الأحكام العرفية ، وكان يتمتع بثقة الخمينى ورجال الدين لأنه اختلف مع الجبهة الوطنية وكانت له أفكار اســـلامية ، تتصل بالاصـــلاح الاسلامى والحكومة الاســـلامية ، فأفرجت الحكومة عنه بايعاز من أمريكا على أمل أن يتصـــل بالخمينى ، ولكن الخمينى ظل على موقفه ، وعاد بازرجان الى طهران .

وظل الأمريكان على اتصـــال بمهدى بازرجان الذى كان يؤكد لهـــم أنـــه لابد أن يختفى الشـــاه ، واعطى الأمريكان لمهدى بازرجان حريـــة فى الاتصال برجال الدين لمعرفة مطالبهم ، فاتفق مهدى بزرجان مع رجال الدين على نقاط ضرورية أهمها أن يغادر الشـــاه البلاد ، ويتكون مجلس وصاية وتشـــكل حكومة قومية ويحل مجلس النواب وتجرى من جديد انتخابات حرة ، وعرض بازرجان نتيجة مفاوضاته على الخمينى ولكنه رفض لعدم ثقته بأمريكا ، وقال ان هذه المفاوضات خدعة .

وخافت أمريكا على مصنعها فى ايران ، واضحى الوجود الأمريكى فى البلاد مهدد من الطبقة الشـــعبية التى تكره الطبقة الرأسمالية فى ايران لأنهـــا تعتمـــد على أمريكا وتعتمد عليهـــا ايضـــا أمريكا فى تعاملاتهـــا التجارية(١٩) ، وكانت قمة الخوف الأمريكى هو اتصـــال رجال السفارة الأمريكية فى باريس بالخمينى نفســـه وذلك بعد فترة طويلـــة من التكبر

(١٩) المرجع السابق ، نفس المقام .

الأمريكى الذى انهار وسط موجة من الكراهية لكل ما هو أمريكى واسرائيلى فى ايران(٢٠) .

وقدمت السفارة الأمريكية فى باريس تنازلات للخمينى منها السماح له بالعودة الى ايران ومنحه مكانا رئيسيا فى حكومة يختار أعضاءها بنفسه ، ولكن الخمينى كان يشك فى نوايا أمريكا ، فرفض كل حديث عن الاصلاح السياسى فى ظل الامبراطورية القائمة .

وصفوة القول أن الأمريكيين بدأوا يبحثون عن بديل أكثر استقرارا من الشاه ، وهم خائفون من الشيوعيين فى ايران وزيادة النشاط الشيوعى ، كما أنهم ليسوا مرتاحين فى الوقت ذاته لمعارضة الخمينى الذى أعلن عن تصميمه على قطع البترول عن اسرائيل وهو موردها الأساسى ، وتقوم بينه وبين المقاومة الفلسطينية علاقات قوية ، كما أن هناك علاقات قوية مع القذافى أيضا .

والروس ليسوا أكثر ارتياحا من الأمريكان الى المعارضة الدينية فى ايران ، لأن قوة هذه المعارضة ستغذى المسلمين فى الاتحاد السوفيتى الذين يشكلون قومية اسلامية لايستهان بها ، وقيام جمهورية اسلامية على الحدود السوفيتية ستكون له نتائج تهدد أمن الاتحاد السوفيتى واستقرار العلاقات الروسية الايرانية(٢١) .

تعيين حكومة مدنية فى ظل الحكم العسكرى :

فشلت الحكومة العسكرية فى قمع حركة التمرد المدنى والمظاهرات المدمرة وموجة الاضراب عن العمل التى عطلت سير الحياة العامة فى ايران ، وأدركت الحكومة أنها بشأن افناء شعب بأسره ، وازاء هذه الخطورة اضطر الجنرال غلام رضا ازهرى الى تقديم استقالته والخروج من ايران ، وفى ٢٩ من ديسمبر ١٩٧٨ م عين الشاه « شاهبور بختيار »

---

(٢٠) الياس حرفوش ، مجلة الحوادث ، عدد ١١٥٨ ، بتاريخ ١٢/١/١٩٧٩ م ، مرجع سبق ذكره .

(٢١) المرجع السابق ، نفس المكان .

رئيســا للوزراء فى حكومة مدنية فى الظاهر وحكم عسكرى فى الباطن ، وكان بختيار عضــوا فى الجبهة الوطنية ، وكان مشتركا فى المفاوضات مع الأمريكان التى يقوم بهــا بازرجان وعندما رفض بازرجان المضى فى هــذه المفاوضات بأمر من الخمينى لأنهــا خدعة ، استمر بختيار فيهــا وكان يحظى باعجاب الأمريكان ، وانتهى به الأمر الى أن قبل تشــكيل الوزارة .

وحاول بختيار تنفيذ كل ما كانت الجماهير تنادى بــه وطالب بــه الخمينى . ففى اليوم الأول لتعيينه قــال : ان الشاه سيغادر البلاد ، وان « السافاك » ستحل ، وان الصــحف ستصدر بدون مراقبة ، وأن رجال الدين سيديرون أملاكهم بأنفســهم ، وأعلن التوقف عن تزويد اسرائيل وجنوب أفريقيا بالبترول ، وتبنى برنامج المعارضــة الدينية كاملا ، غير أن رجال الدين كانوا غير واثقين بــه لأنه عمل من ورائهم ويريد أن يسحب الثورة من أيديهم .

فأعلن الخمينى انه لن يؤيد بختيار لأن تعيينه غير شرعى طالمــا أن الشــاه هو الــذى قام بتعيينه ، وذكر أن التهديد بانقلاب عســكرى « لن يخيفنا لأن هناك انقلابا قائما بالفعل فحكومة أزهرى كانت انقلابا عســكريا وحكومة بختيار ما هى الا واجهة لانقلاب عســكرى . وبختيار ألعوبة فى يد الجنرالات ، واذا تدخل الجيش فان ذلك سيكون تحت قيادة أمريكا ، فى هذه الحالة فاننا سنعتبر انفسنا فى حالة حرب مع أمريكا(٢٢) » .

فهاجت الجماهير وهتفت فى شوارع ايران بسقوطه وعدم التعــاون معه ، وأعلنت انهــا لاتعترف بأحد سوى الخمينى ، وبذلك أصبح الخمينى هو رجل ايران الأول بلا منافس ، ولابد من عودته من باريس ، ليقود هذه الجماهير التى لاترضى بــه بديلا ، ومع ذلك ظل الأمريكيون يراهنون على بختيار كورقة أخيرة ، وحاول بختيار مجابهة الظروف القاسية لبلاده وســط نار متأججة وبات من الصــعب على أى مسئول أن يهدىء من

---

(٢٢) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٤

غلوائها الا بشق الأنفس ، وحاول بختيار اخــذ موافقة من مجلس النواب للعمل بحريـــة ، ولكن المعارضـــة لم تعط له الفرصة ، وقررت الجبهة الوطنية طرده بمجرد عدم رضا الخمينى عليه .

وفى منتصف يناير وصـــل الوضع فى ايران الى اسوأ حالة من التردى ولم يعد مسألة قمع مظاهرات ، وانما بات الوضـــع ضمان فتح الأفران لاطعام النـــاس ، وتأمين فتح المستشفيات ، وتوفير الوقود لكل منزل ، الى هـــذه الدرجة من البساطة وصـــل المطلوب من اى رئيس حكومة مؤقت أو دائم ، واسرعت الحكومة الأمريكية تقدم النصيحة للشاه بصورة رســـمية لحثه على مغادرة البلاد ، واعلن آية الله الخمينى فى باريس أنه يريـــد القاء القبض على الشـــاه وتقديمـــه الى المحاكمة ، وطافت المظاهرات فى شـــوارع طهران وغيرها من المدن الايرانية تتهم بختيـــار بالخيانة . وذكرت الشعب أنه قريب لبختيـــار مؤسس السافاك وخادم الشـــاه ، وأعلن بختيار فى بعض أحاديثه الصحفية أن ايران ســـوف تضطر الى الغـــاء عقود الســـلاح المبرمة والتى هى فى حدود المليارين ، كما أعلن أن ايران فى عهد حكومته لن تمارس دور الشرطى فى الخليج(٢٣) .

وأعلن الدكتور كريم سنجابى (الذى تم الافراج عنـــه مع من أفرج عنهم بختيار) فى مؤتمر صحفى فى ١٣٩٩/٢/١٢ هـ أن الشعب لم يعـــد يألف استمرار الملكية غير الشرعية ، وأن الايرانيين الثائرين على الشـــاه لايريدون تغيير الحكومة فقط ، ورفض الاشـــتراك فى مجلس الوصايـــة على عرش ايران الى حين عودة الشـــاه من الخارج ، وطلب أن يشكل بدلا منه مجلس وطنى يحكم البلاد بموافقة الامام الخمينى .

الخروج الأخير للشـــاه من البلاد :

ازاء هـــذا الوضع المتدهور فى ايران لم يعد هناك من مخرج سوى أن تســـلم أمريكا بخروج الشاه من البلاد لأنهـــا دافعت عنه كثيرا واصبح

---

(٢٣) حافظ ابراهيم خير الله ، من مقال له حول الوضـــع فى ايران ، جريدة الشرق الأوسط عدد الأربعاء والخميس ١٢ ، ١٣ من صفر ١٣٩٩ (١٠ ، ١١ يناير ١٩٧٩ م) .

موقفهـــا مكشوفا وهى تريـــد أن تحافظ على مصالحهـــا فى ايران حتى ولو على حساب مصلحة بقاء الشـــاه ، فأبلغته قرارها الأخير بضرورة ترك البلاد الى حين .

فأصـــدر الشاه قرارا بتحويل جميع ممتلكات العائلة الحاكمة فى ايران والتى لايمكن نقلها الى صـــندوق خاص ، وأمر بالافراج عن الســـجناء السياسيين ، وأعلن أن الصـــندوق الذى أمر بتحويل هـــذه الممتلكات اليه يسمى « صـــندوق بهلوى » وذلك لاستخدام أرباحها فى الأغراض الدينية والثقافية والاجتماعية والخيرية ، وذلك طبقا للقول القائل « بيدى لا بيد عمرو » وهى أعمال جاءت متأخرة عند الفرغرة ، ومؤسسة بهلوى المزعومة ، كانت موجوده ، كان الشـــاه قد أنشأ مؤســـســـة بهلوى الخيرية فى مطلع الستينيات حتى يحل مكان رجال الدين فى تقـــديم المساعدات ، ويحول اليهـــا الأوقاف الخيرية ، الا ان هـــذه المؤسسة انحرفت منـــذ البداية ، وتحولت الى مصـــدر لرشوة الأنصار والمحاسيب وكانت أحد المواقع الرئيسية التى تقوم فيهـــا الأسرة المـــالكة باصطياد الثروات ، وانهمك أعضـــاء الأسرة المـــالكة فى نقل أموالهم الى الخارج هم وكثير من الأثرياء الخائفين من يوم الحساب ، وحاول الشـــاه أن يأخذ معه مجوهراته المحفوظة فى البنك المركزى لكنه لم يتمكن لاضراب موظفى البنك .

وفى صباح يوم ١٣٩٩/٢/١٩ هـ (١٩٧٩/١/١٧ م) اضطر محمد رضـــا بهلوى لقبول مطالب المعارضة الدينية وغادر طهران متوجها الى أســـوان بمصر ، ولم يتمالك نفســـه وهو يصعد سلم الطائرة ، فانفجر باكيا على الرغم من جبروته فى سابق أيامه ، وغادر أســـوان بعد عـــدة أيام الى المغرب ، ومنهـــا الى جزر البهاما فالمكسيك فالولايات المتحـــدة الأمريكية ، وأخيرا الى بنما ، وكانت أمريكا على اســـتعداد للتخلى عنه اذا نجحت تجربـــة بختيار كتســـوية وســـط بين الامبراطورية المطلقة والجمهورية الاسلامية التى ينادى بها رجال الدين(٢٤) .

---

(٢٤) الحوادث ، عدد ١١٥٨ ، لسنة ١٩٧٩ م .

وعقب انتشـــار نبأ رحيل الشاه فى ايران انطلقت مئات الألوف من أبناء الشعب فى طهران يعبرون عن فرحتهم وخرجت السيارات المزينـــة بالأعلام وصور الامام الخمينى(٢٥) .

عودة الخمينى الى ايران :

عارض شاهبور بختيار فى البداية عودة الخمينى الى ايران وطلب منه اعطاءه فرصـــة لمدة ثلاثة أشهر ينتهى خلالها من تنفيذ البرنامج الذى كان يرى أن الخمينى يرضى عنه ، وذكر له اذا ما عاد فان الجيش سيقوم بمذبحه لامحالة ، لكنه اضطر أخيرا للموافقـــة على عودته قائلا : ان الامام الخمينى تحول فى الخـــارج الى أســـطورة واذا عاد الى ايران فستزول الأسطورة(٢٦) .

وصمم الخمينى على العودة الى ايران على الرغم من أن كثيرا من مستشاريه كانوا يخشون ذلك تحســـبا لمـــا قد يقوم به الجيش من أعمال مضـــادة ، واقترح بازرجان أن يشـــكل الخمينى حكومة فى المنفى ويعلن الجمهورية ، ووافق كثيرون من حاشية الخمينى على هـــذا الرأى ، لكن الخمينى رفض وقال : « ينبغى أن نذهب جميعا الى طهران » وكان معاونو الخمينى يواجهون صـــعوبة فى العثور على طائرة تقلهم الى الوطن وفى النهاية قام أحـــد أثرياء الشـــيعة بايداع ثلاثة ملايين دولار لتغطية أجر طائرة نفاثة من طراز جامبو تابعة لشركة ايرفرانس ، والتأمين المرتفع عليها وعلى طاقمها من الرجال الفرنسيين الـــذين تطوعوا لهذه المهمة ، واســـتقل الخمينى الطائرة ووصـــل الى طهران فى صباح يوم الخميس ٤ من ربيع الأول سنة ١٣٩٩ هـ (أول فبراير ١٩٧٩ م) ومنع الخمينى زوجته وزوجات مؤيديه من القيام بالرحلة معهم(٢٧) .

---

(٥) الشرق الأوسط ، عدد ١٦٥ الأربعاء والخميس ١٧ ، ١٨ يناير ١٩٧٩ م .

(٢٦) الحوادث ، العدد ١١٦٢ بتاريخ ٩ من فبراير ١٩٧٩ ، من مقال لجلال كشك بعنوان : « آيات الله والشعب ضد الجنرالات » .

(٢٧) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٢٩ —

ويصف صحفى مصرى كان على متن الطائرة التى اقلت الخمينى الى طهران هــذه الرحلة أو قل المغــامرة النادرة فيقول : « كان على متن الطائرة مائة وخمسون صحفيا من جميع الجنســيات ، قيل انهم أحــد الأسباب التى ضمنت عــدم اقدامها لســلطات الايرانية على حماقة ضربها فوق ايران(٢٨) » .

وتوجه الخمينى من مطار طهران الى مقبرة زهرة الفردوس وألقى خطابا سياسيا قويا هاجم فيه الشــاه وشرعيته قائلا : ملكية الشــاه غير شرعية لأن الجمعية التى أقرتهــا اتخذت قرارها تحت تهديد الأسنة ومع ذلك فالملكية الوراثية مرفوضــة حتى لو اقرت بالتصويت الحر ، لأن اقرارها يعنى أن الذين أقروها سيتحكمون فى مصير النــاس الذين سيأتون بعدهم بخمسين ســنة ، فكيف يعطى النــاس لأنفسهم هذا الحق ان لكل زمان رجاله ، ولهؤلاء الرجال حق تقرير مصيرهم بأنفسهم ، فلنفرض أن كل الشــعب اختار كاجار ملكا ، فهذا يعنى حق كاجار فى أن يكون ملكا عليهم ، ولكن لايعنى فرض أسرته والنظــام الملكى على المستقبل لأن هذا يعنى أن الذين عاشــوا منذ نصف قرن سيتحكمون فى مصيرنا اليوم ، وليس من حق أى جيل أن يحرم الأجيال من بعده من حرية الاختيار(٢٩) .

وقطع الخمينى بذلك الطريق على أى اقتراح باجراء استفتاء علــى النظام الامبراطورى ، وهو ما يقترحه أنصــار الشاه ، واستمر الخمينى فى خطابه يســقط شرعية كل المؤسسات القائمــة ، فمجلس النواب لم ينتخبه أحــد والحكومة غير شرعية ، وهاجم الولايات المتحدة الأمريكية قائلا : « انهم يعطون نفطنا للولايات المتحدة وغيرها ويأخذون مقابلــه سلاحا لبناء قواعد للدول التى تبيع لنــا هذا السلاح ، وبهــذه الطريقة تبنى الولايات المتحدة قواعدها بنفطنا ويعطوننا ســلاحا أكثر تقدما من قدرة جيشنا على استخدامه وبذلك يبررون وجودهم العسكرى عندنا ، ولو استمر ذلك لعدة سنوات لانهارت بلادنا » .

(٢٨ ، ٢٩) محمد جلال كشك ، آيات الله والشعب ضد الجنرلات والأمريكان ، الحوادث ، عدد ١١٦٢ فى ٩ فبراير ١٩٧٩.

وهاجم حكومة بختيارى بقوله : « انــه يقول ان البلد لا يتحمل حكومتين وأنا أوافق ، وعليه هو أن يرحل لأن حكومته غير شرعيه وأمريكا وبريطانيا وحــدهما يعترفان به ويطالبان الجيش بدعمه » .

ثم خاطب القوات المســلحة فدعاها للعودة الى احضـــان الشعب وتحرير نفســـها من النفوذ الأجنبى « ايهـــا السيد الجنرال الا تريد أن تكون حرا ؟ ! وانت ياســيادة العقيد ، اتريد أن تكون دمية ؟ » ثم أكد أنه لا نية فى الانتقـــام من الضباط المرتبطين بالعهد الامبراطورى بل ستحفظ كرامتهم ، ثم خاطب الجيش قائلا : « نريد جيشـــا ، لاعصابة يحكمهـــا الأجانب(٣٠) » .

وكانت الجماهير والصحافة العالمية والمحلية تنتظر منـــه اعلان المجلس الثورى الاســـلامى فى خطاب المقبرة ، ولكن الامام فضل الانتظار للتعرف على الواقع ، وأخـــذ فترة يتعرف فيهـــا الموقف السياسى لكى يزن القوى الحقيقية فى الساحة ، ولم يعلن المجلس ولم يحدد أسماء ، وقضى الخمينى اليوم الأول والثـــانى فى التشاور مع رجال الدين وانصاره من رجال السياسة والمعارضين لحكومة الشاه ولبختيار .

وفى يوم السبت ٦ من ربيع الأول ١٣٩٩ هـ (٣ من فبراير ١٩٧٩ م) أعلن الخمينى فى مؤتمر صحفى أنه هو رئيس مجلس الثورة الاســـلامى وانه قد شكلا لمجلس ، وسيعين المجلس حكومة تطرح دستور الجمهورية الاســـلامية للاستفتاء ، ثم تجرى انتخابات الجمعية التشريعية ، وأن الأقليات ستتمتع بحقوق المواطنين كاملـــة ، وأن الجهـــاد مشروع اذا استقدمت الحكومة معونة أمريكية أو جنود اسرائيليين ، وفى يوم الاثنين ٨ من ربيع الأول عين بازرجان رئيسا للحكومة وكان قـــد اتفق معه من قبل وهو فى باريس على أعضائها .

وفى أيام قليلة احتلت صور الخمينى كل مكان كانت به صور الشاه أو تماثيله ، وهو الـــذى كان مجرد ذكر اسمه محرما منذ خمسة شهور ؟

---

(٣٠) المرجع السابق ، نفس المقال .

وان الثلاثة ملايين الذين خرجوا لاستقبال الخمينى يشكلون تفويضا شرعيا يخوله لاستلام السلطة وادارة دفة الأمور فى البلاد ، كما قال سنجابى رئيس الجبهة الوطنية ، **وليس فى العالم الاسلامى رجل تجمعت له محبة الجماهير مثل الخمينى ، والواقع أن الخمينى أعاد الايرانيين الى الاعتزاز بالاسلام والكرامة الوطنية ، وأصبح يمثل فى نظرهم الادارة القوية التى نجحت فى تخليص الشعب من القهر ، بل وأحيى الأمل لدى كثير من المقهورين المسلمين فى العالم .**

وفى اليوم الثالث أذاع راديو طهران لأول مرة فى تاريخه نشرة انباء باللغة العربية فى الساعة الواحدة بعد ظهر ٣ فبراير ، وذلك احتراما لمشاعر حوالى ٢ مليون عربى فى ايران ومساواتهم ببضعة آلاف من الأمريكيين الذين يذاع لهم برنامجا كاملا بالانجليزية (!) فى الاذاعة والتليفزيون .

واخذت كل السلطات الحكومية التابعة لبختيار تتلاشى ، فقد استقال رئيس مجلس الوصاية على العرش « جلال طهرانى » وقدم استقالته للخمينى قائلا : « ان المجلس غير شرعى » وعمدة طهران « جواد شهرستانى » قدم هو الآخر استقالته قائلا : « بارادة الشعب واجماع الأمة انت قائد الثورة التى بنور الاسلام ستنتصر ، وبما أن الحكومة الحالية غير شرعية فانى أقدم استقالتى » وقد قبل استقالته وعينه من قبله عمدة لطهران وطلب منه أن يضيف الى خطاب الاستقالة الذى سيقدمه لبختيار خبر التعيين ، واستقال حاكم بلوشستان « حسن اسلامى » ومجلس النواب استقال منه حوالى ٧٢ من مجموع ٢٦٨ عضوا واختفى حوالى مائة عضو ، ولم يعد مع بختيار سوى حوالى مائة عضو ولم يستطع أن يجتمع بختيار بهم الا سرا ، هذا بالاضافة الى أن جميع رجال الدين انضموا الى الخمينى ، وجاء وفد من كردستان السنية لمبايعة الامام الذى كان يؤكد فى كل أحاديثه على وحدة جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم .

واتخذ الخمينى مقرا له فى طهران فى مدرسة رافع الحسينية فى أحد اكثر أحياء ايران شعبية وهو حى « جاله » وتم تركيب أجهزة

الاتصـــال بالعالم الخارجى بهـــذه المدرســـة عن طريق عمـــال التلكس والاتصـــالات الخارجية المضربين ليستخدمها الصحفيون فى ارسال اخبار الثورة الى العالم ، لأن الشبكة الحكومية معطلة بسبب الاضراب .

وحاولت أمريكا أن تتحرك مع عميلها بختيار وصـــدرت الأوامر الى جنرال امريكى يسمى « هويزر » ينظم الانقلاب العســـكرى فى ايران ، بأن لحظة الانقلاب المضـــاد قد حانت ، ولكن لم يكن هناك جيش يمكن أن يقوم بهـــذه الحركة لأن جميع قطاعات الجيش كانت قد انضمت الى الثوار ولم يعـــد سوى كبار القادة ، ولذلك قرر الجنرال « هويزر » بعد أن أعلم واشنطن بالموقف أن يختفى من سماء ايران(٣١) .

واتصـــل الجنرال غرياغى قائـــد الجيش بمهـــدى بازرجان رئيس وزراء الثورة ، وطلب منه أن يرسل مندوبا عنـــه لكى يتسلم منه الجيش ولم يكن هناك جيش يمكن أن يســـلمه ، فقد انتحر أو قتل كثير من القادة الكبار عندما تأكدوا من نجاح الثورة ، وقام الخمينى على الفور بتأليف قوات خاصـــة به تسمى قوات الحرس الوطنى الثورى ، وهى التى قامت يوم حضوره الى طهران بتنظيم ثلاثة ملايين من المســـتقبلين له على طول الطريق بين مطار طهران ومقبرة زهرة الفردوس (١٨ كيلو مترا) وبـــدأ هؤلاء يتلقون تدريبات عسكرية على أيدى ضـــباط من منظمـــة التحرير الفلسطينية ، ولقـــد كافأ الخمينى منظمة التحرير على موقفها فمنحها مقر السفارة الاسرائيلية فى طهران لكى تكون مقرا لمكتب المنظمة فى طهران .

وفجأة لم يجـــد بختيار حوله من رجال وزارته احد ، وحتى قبيلة بختيار تخلصت منه وتخلت عنه وأعربت عن تأييدها للخمينى ، فلم يجد أمامه الا الاختفاء عن الأنظار ، وبعـــد فترة ظهر خارج البلاد .

---

(٣١) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٣

حكومة الثورة ومشكلة ازدواج الســـلطة :

وتولى مهدى بازرجان رئاســـة الوزراء وأعلن التشـــكيل الوزارى لحكومة الثورة وكانوا فى معظمهم من زملاء بازرجان فى الجبهة الوطنيـــة ومنهم وزراء ممن كانوا فى المنفى مع الامام فى باريس مثل قطب زاده الذى كان وزيرا للخارجية وابراهيم يازدى وأبو الحسن بنى صـــدر وغيرهم ، غير أن هـــذه السلطة الوزارية وجـــدت نفسها بعد فترة عاجزة عن ممارسة الســـلطة ، أمام السلطة الثورية المتمثلة فى رجال الدين بزعامة الخمينى ، وهى التى تتولى الشرعية الثورية التى تملك التغيير فى البلاد باسم « المجلس الثورى » .

أى أنه أصـــبح فى البلاد ازدواج فى السلطة فهناك واجهة رسمية للحكم فى البلاد بزعامة رئيس الوزراء وليس فى يدها ســـلطة ، وهنـــاك ســـلطة دينية ثورية ترى من صالحها تصفية الأوضاع والقضاء قضـــاء مبرما على مراكز القوى القديمة فى كل مكان فى الدولـــة ، وتملك هـــذه الســـلطة قوة التغيير فى البلاد باســـم المجلس الثورى ، وقـــد حققت نجاحا كبيرا فى هذا المجال فقضت على الجيش وعلى الشرطة والبيروقراطية الحكومية ، فتخلصت الســـلطة الثوريـــة من مســـتويين من الموظفين ، واستعانت بالمستوى الثالث الذى لم يدنس فى نظرها .

وكان من الطبيعى أن يتســـع التباعد بين حكومة بازرجان ورجـــال الســـلطة الثورية ، فبازرجان ومعظم وزرائه ساسة ليبراليون يؤمنون بالديموقراطية بشكلهـــا العربى التقليدى . وهم لايجيزون منطق الثورة فى التصفيات الجســـدية ، وأصبح من الصعب اقناع رجال الـــدين بأن آراءهم ووجهات نظرهم وتصرفاتهم ليســـت مقدسة أو مثالية ، وبـــدأ جناح من الجبهة الوطنية فى الانسحاب بزعامة كريم ســـنجابى ، وهـــذا الجناح أكثر عقلانية وليبرالية من الجناح الذى بقى وآثر الانتظار بزعامة بازرجان وهم وطنيون محافظون .

غير أن الســـلطة التنفيذية بزعامة بازرجان وجـــدت نفسهـــا فى النهاية عاجزة عن ممارسة الســـلطة فى جو من الازدواجية بين الســـلطة

التنفيذية والشرعية الثورية ، واضطر بازرجان الى الانسحاب ومعـــه كثير من جماعته ، وليس هـــذا الانسحاب بسبب الخلاف على اســلامية الحكم والدولة ، وانما بسبب ازدواجية الحكم ، فقـــدم بازرجان استقالته فى نوفمبر ١٩٧٩ وبعث بهـــا الى الخمينى فى مقره الذى انتقل اليه فى مدينة « قم » دون أن يـــذهب الى هناك شخصيا كما تقضى بذلـــك الأعراف السياسية وقال فى استقالته ما يلى :

« نتيجة للخلافات المتكررة ونظرا للمداخلات واختلاف الآراء داخل مجلس الوزراء ، وحيث أصـــبح من المستحيل علينا القيـــام بواجبنا ، ونظرا لأن خلاص الثورة فى هـــذه المرحلة التاريخية الدقيقة التى تمر بها ايران يتطلب وجود حكومة متحدة لذلك أقدم استقالتى لتتمكنوا من اختيار شخص آخر(٣٢) » .

وقبل الخمينى الاستقالة فورا ، وأشاد بنزاهة بازرجان واخلاصـــه فى عمله ، ثم أمر المجلس الثورى بتسلم ادارة شـــئون البلاد والتحضير لاستفتاء جديد واجراء انتخابات لمجلس النواب وانتخابات لرئيس الجمهورية، وذلك فى مدة أقصاها شهر فبراير ١٩٨٠ م أى بعد مرور عام على قيـــام الثورة .

والواقع أن هنـــاك تنافس بين هؤلاء الذين مكثوا فى ايران طوال الوقت وتعرضوا لتعذيب الســـافاك ورصاص الجيش ، وبين أولئك الذين نظموا الثورة فى الخارج وعادوا مع الامام من باريس ، وكان رجال الدين يتمتعون بتأييد محلى قوى ولهم قاعدة قويـــة من الجماهير ، بينما كان العائدون لايملكون شـــيئا من القواعد الشعبية ، وكان الخمينى « يعتقد أنه من المستحسن أن تظهر الخلافات .... بين هـــذه المجموعات المختلفة أثناء حياته ، لأن لديه القدرة على حسم هذه الخلافات لمـــا يتمتع به من مكانة خاصـــة . وهذا أفضـــل من أن تترك هذه الخلافات الى أن تتفتح وتنفجر

(٣٢) مجلة الوطن العربى — العـــدد ١٤٤ — بتاريخ ١٥ نوفمبر ١٩٧٩ ص ٣٧

بعد موته(٣٣) » وحاول الخمينى أن يخلق نوعا من التوازن بين الرئيس ومجلس النواب ، وبين الادارة الحكومية ورجال الدين .

ويتوزع آيات الله فى قيـــادات التنظيمات الاسلامية القوية ، **فآيـــة الله صـــادق خلخالى يتولى قيادة المحاكم الثوريـــة** ، ويصدر أحكامه دون عودة الى أى جهة قضـــائية ، فيتولى رجالـــه القبض على المتهمين وتتم محاكمتهم ومعاقبتهم بسرعة ، وأحيانا يوســـع صادق خلخالى من نشاطه فيصرح بتصريحات عنتريه ويهدد بنشر مبادىء الثورة الايرانيـــة فى كل المنطقة ، وذكر فى مقابلة صحفية مع مجلة الحوادث اللبنانية أنه تعرف فى شـــبابه على نواب صفوى مؤسس منظمة فدائيان اســـلام ، وذلك أيام طلبه للعلم بالمدرســـة الفيضـــية فى مدينة « قم » وكان زميلا لمصطفى الخمينى بن آية الله الخمينى الـــذى اغتالته السافاك ، وذكر أنه اشترك مع نواب صفوى فى اعـــداد عملية للاستيلاء على جثمان رضا خان بهلوى وحرقه أثناء الجنازة الرســـمية التى أعدت لهـــا الحكومة فى طهران ، فيقول : « وبعد ما أعددنا البنزين كشفت العملية والقى القبض علينا ... وضربنا وقد بقيت مراقبا منذ ذلك الوقت وحتى آخر عهد الشاه » .

وقال صـــادق خلخالى عن ظروف اختياره رئيسا لمنظمـــة فدائيان اســـلام : « حدث أننى بحثت عن قاتل مؤسسها نواب صفوى وهو الفريق محمد تقى مجيدى ، فحكمت عليه بالاعـــدام وسلمته الى الباقين من أعضاء فدائيان اســـلام فنفذوا فيه حكم الاعـــدام ... بعد ذلك قالوا لى نعتمد عليك » وذكر فى هـــذه المقابلة الصحفية أيضـــا « أن جمعية فدائيـــان اســـلام لها تشكيلاتها ومكاتبها وعلاقاتهـــا مع الحركات الاسلامية لكن قادتها يستشيروننى فى مسألة الاعـــدام فقط ويأخذون الحكم منى » وقال : « بأن منظمته كان لهـــا علاقات مع حركة الاخوان المسلمين فى مصر أيام حسن البنا » ، وقال : « بأنه شخصيا له علاقات مع الاخوان المســـلمين فى الخليج(٣٤) » .

---

(٣٣) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٩
(٣٤) الحوادث عدد ١٢٢٤ ، الجمعة ٨ من أبريل ١٩٨٠

وتضم المؤسسة الثورية أيضا « آية الله مهدى فاكانى » الذى يتولى رئاســة اللجان الثورية التى تقوم مقــام الشرطة فى حفظ الأمن ، ويرأس كل لجنة فرعية رجل دين يتخذ القرارات مباشرة . أما الحرس الثورى الــذى حل محل الجيش فيتولى « آية الله لاهونى » الاشراف المباشر عليه ، وكان آية الله الطالقانى قبل وفاته هو الرئيس الفعلى للمجلس الثورى الذى يتراوح أعضاؤه بين ٢٠ — ٣٠ عضوا من أعوان الخمينى وتلامذته المخلصين ، وتتراوح أعمارهم ما بين ٤٠ و ٥٠ ســنة ولم يكشف النقاب عن أسماء أعضــائه رسميا وان كان من المعروف أن منهم : آية الله حسين منتظرى ، وآية الله صــادق خلخالى ، وآية الله محمد بهشتى ، وآية الله مفتح ، بالاضافة الى بعض الشخصيات المدنية منها أبو الحسن بنى صدر وقطب زاده ، ومهدى بازرجان ، وابراهيم يزدى(٣٥) .

ضرب النفوذ الأمريكى فى ايران :

كانت الســفارة الأمريكية فى طهران أحد القلاع الاستعمارية القوية فى العالم الاســلامى ، اذا لم تكن أقواها على الاطلاق ، فقــد ركزت عليهــا أمريكا وجعلتها مركزا للتجسس فى منطقة الشرق الأوسط فكان يتجمع فيهــا يوميا كل المعلومات عن الشرق الأوسط ، وكان هناك تنسيق بين هــذا المركز واسرائيل وجهاز المخابرات الايرانى (السافاك) ، وكانت هذه الســفارة تشكل حكومة داخل حكومة ايران ، وانشئت فقل هى المركز الفعلى لادارة البلاد ، ولم تكن مهمة موظفى الســفارة مجرد الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية مع حكومة الشــاه ، وانما أصبحت حمايــة نظامه المتعاون معهم على استغلال ثروات ايران ، وكان بالسفارة عناصر من المخابرات المركزية الأمريكية .

وعندما اشتدت يــد الثورة فى داخل ايران وهددت الشاه والوجود الأمريكى والصهيونى فى ايران ازداد نشــاط السفارة الأمريكية ، وتوجس رجال الثورة خيفة من أعمال السفارة المضادة لثورتهم ، وتذكروا الانقلاب

---

(٣٥) مجلة الوطن العربى ، عدد ١٤٤ ، بتاريخ ١٥ نوفمبر ١٩٧٩ ص ٣٧

الأمريكى المضـــاد الذى دبرته السفارة الأمريكية عام ١٩٥٣ ، وتم لهـــم اعادة الشـــاه وضربوا المعارضة الايرانية ضربة قاصمة ، وتم القضـــاء على معارضة مصـــدق ورجال الدين ، فصدقت نية رجال الثورة علـــى احتلال مجمع الســـفارة التى هى فى عقر دارهم قبل أن تفترسهم وتقضى على ثورتهم ، وتجارب المـــاضى ماثلة أمامهم .

وكانت قـــد حدثت بعض الصدف الطيبة التى ساعدت رجال الثورة فى الاقـــدام على احتلال الســـفارة ، فعندما تم القبض علـــى الجنرال ((نعمة الله ناصرى)) رئيس جهاز السافاك حصلت منه الثورة على اعترافات مفيدة منهـــا : انه كان للسافاك عميل داخل الســـفارة الأمريكية واسمه الحركى ((حافظ)) فاتصلت به حكومة الثورة سرا ، ووعدته بالأمان اذا ما استمر فى نشاطه لصالحهم ، وتعـــاون حافظ فعلا تحت التهديد مع رجال الثورة وسلمهم عـــدة وثائق هامة أبانت عن التحركات السريـــة الأمريكية ضـــد الثورة ، وكانت هـــذه المعلومات عاملا من عوامل الاسراع فى احتلال السفارة ، حيث أن بعض الوثائق كانت تـــدل على أن رحلة الشـــاه الى الولايات المتحدة أمر دبر له من قبل الثورة ، وعندما ترك الشـــاه المكسيك الى نيويورك يوم ٢٢ من أكتوبر ١٩٧٩ لم يعد هنـــاك أدنى شـــك فى أن هناك أمر يدبر ضد الثورة ، وتراءت أمام رجال الثورة ذكريات عام ١٩٥٣ المفزعة .

وطلب الخمينى من الطلبة حراس الثورة فى بيان أن يفتحوا عيونهم ويرقبوا مؤامرة الولايات المتحدة هـــذا العدو الخبيث ، وبناء على ذلـــك قامت اللجنة الثورية داخل جامعة طهران باعتمـــاد خطة للهجوم علـــى السفارة الأمريكية للاستيلاء على بقية الوثائق التى كانوا يعلمون أنهـــا ستزودهم بكثير من المعلومات عن سياسات الشـــاه واتجاهاتـــه وخطط أمريكا ضـــدهم .

وفى ٤ من نوفمبر ١٩٧٩ قامت قوة من الطلبة حوالى ٤٠٠ طالب من المليشيا الثورية معززين بمساندة الخمينى سرا بالهجوم على السفارة الأمريكية ، وكان « حافظ » عميل السافاك قد أعطاهم معلومات عن مواقع الحرس ونقاط الضعف التى كان يتصور وجودها فى سور السفارة ، وزودهم بخريطة لكل مبانى السفارة ، ولذلك عندما بدأ الهجوم نفذته فرقة مدربة تعرف كل الأماكن ، وخلال ثلاث ساعات تم لهم احتلالها ، واحتجز الطلاب أعضاء السفارة كرهائن ، واشترطوا لاطلاق سراحهم تسليم الشاه السابق الى ايران لمحاكمته ، والأهم من ذلك استولى الطلبة على الوثائق المودعة فى السفارة ، واستفادت حكومة الثورة من هذه الوثائق فى مجالات كثيرة .

ورفضت الحكومة الأمريكية تسليم الشاه الى الثوار ، وزاد توتر أمريكا ، وفرضت على ايران حصارا اقتصاديا فعالا وأوعزت الى حلفائها بمقاطعة ايران اقتصاديا لاجبارها على الركوع ، ولكن الخمينى كان يتعلل بأنه لايستطيع السيطرة على الطلاب وينبغى عدم أخذهم بشدة للمحافظة على أرواح الرهائن ، وقامت أمريكا باستعمال أوراقها القديمة فى كل بلد اسلامى ، فاتصلت بالأقليات فى ايران لتفجير ثورتهم وأمدتهم بالسلاح وأوعزت الى حلفائها بمساعدتهم ، فقام عرب اقليم « عربستان » بثورة يريدون الاستقلال ، وقام الأكراد فى الشمال الغربى والأتراك على الحدود التركية وطالب كل هؤلاء بالحكم الذاتى الذى تعهد به الخمينى اذا نجحت الثورة ، وكان رد الحكومة على هؤلاء جميعا بعمليات قمعية ، ولم تستطع ايران أن تقوم بعمل حاسم ضدهم لأن جيشها قد تم حله ، وألف الخمينى بدلا منه قوات الحرس الثورى والتى لم تستطع وقف تمرد الأقليات فى ايران .

وطالت فترة احتجاز الرهائن فى السفارة الأمريكية حتى اذلت أمريكا ، وعبثا حاولت جهـــات كثيرة التدخل لاطلاق سراح رجال السفارة الأمريكية ، وخاصـــة بعد أن وصلت الثورة الى هدفها فى ابطال مفعول الســـفارة الأمريكية كمركز للتخطيط للثورة المضادة ، وتم الحصول على الوثائق ، **لكن الخمينى بعد ما ادرك عجز أمريكا عن عمل شىء فعال ضـــدهم كان يقول لأصدقائه مبررا هـــذا العمل : « اننى أريد أن اعلم المستضعفين فى العـــالم أن هناك نقاط ضعف لدى جبابرة العالم يمكن استغلالها لاذلالهم »** وفعلا بدأت صورة أمريكا تهتز فى العالم وخاصة عندما قامت ايران بنشر المخازى الموجودة فى الوثائق الأمريكيـــة التى أبانت خطط أمريكا من أجل السيطرة على الدول الضعيفة فى العالم الاسلامى وفى العالم كله .

ولقد أثرت الوثائق فى شـــعبية بعض رجال الثورة مثل « أبو الحسن بنى صـــدر » فقد وجد رجال الثورة أن اسمه تردد كثيرا فى بعض الوثائق بشـــأن اتصالات أمريكية به ، فانتهى به الأمر الى أن حاصره رجال الدين والطلبة ، وعلى الرغم من أنه تم انتخابه رئيسا للجمهورية فى عام ١٩٨٠ وكان يحظى بتأييد الخمينى ، الا أن كل هـــذا لم يعفه من المسئولية نظرا لأن اتصالاته بأمريكا التى أو ضحتها الوثائق لم تتم بعلم الخمينى ولا بعلم أى فرد من أعوانه بهـــا ، ولم يجد مفرا سوى الهروب الى خارج ايران .

ولقد حظيت وثائق الســـفارة الأمريكية باهتمام كثير من الدول وعلى الأخص الاتحاد السوفيتى الذى تحايل على ايران بشأنها وسلمت اليـــه ايران صـــورا لمجموعات كبيرة منهـــا من باب المداراة للـــدب الروسى وحظيت باهتمام كبيرا أيضـــا بين المعنيين بكتابة التاريخ لأنها تضع أيدى المؤرخين والكتاب فى مجال السياسة على الوســـائل السرية لاخضـــاع الشعـــوب .

وحاول كثيرون من مدعى الدفاع عن حقوق الانسان التدخل لحل مشكلة الرهائن فى السفارة الأمريكية باعتبارها مشكلة انسانية فحسب بصرف النظر عن الاعتبارات السياسية ، فكان رد الخمينى عليهم عنيفا يعرفهم فيه بتضاربهم مع أنفسهم ازاء المشاكل الانسانية فى العالم ، وأنهم لايتحركون لمأساة اسلامية وانما يتحركون لمشكلة تتعلق بالغرب فقط ،**فعندما ارسل بابا الفاتيكان رسالة الى الخمينى بشان اطلاق سراح الرهائن الأمريكيين رد عليه بقوله : « لاتشغل نفسك بما يحدث فى ايران ولتوجه ناظريك الى ما يحدث فى أمريكا ، لماذا لزمت الصمت عندما احتلت القدس ؟ »** .

وعندما قال له احد الصحفيين بأن أخذ الرهائن ضد القانون الدولى رد عليه الخمينى قائلا : « وما هى الفوائد التى عادت على ايران من القانون الدولى ؟ هل منع الشاه من وضع يده على ثروات البلاد ؟ هل منع الأمريكيين من الاطاحة بحكومة ايرانية دستورية وقتل زعمائها ؟ اننا لانرى أن القانون الدولى قد احترم مطلقا فى حالة ايران ، وبالتالى لانرى أى مبرر يفرض علينا ان نحترمه الآن(٣٦) » .

وبقى الخمينى على صموده يتحدى العالم كله حتى اثرت مسألة الرهائن فى الأوضاع السياسية داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، وأثرت فى مصير الرئيس الأمريكى « كارتر » الذى اعتلى كرسى الرئاسة فى مطلع عام ١٩٧٧ ، ونزلت بشعبيته الى الحضيض وخاصة عندما حاول انقاذ الرهائن بحركة انقضاض عسكرية بانزال بعض القوات الأمريكية فى صحراء ايران وفشلت الطائرات فى هذه العملية لأنها اصطدمت فى بعضها أثناء نزولها فاحترقت وشبت النيران فيها وقضت على قواتها المعدة للحركة ،

---

(٣٦) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٥ ، ٢٥٠ .

وكانت روسيا تراقب هـــذه المغامرة ، فاتصلت بأمريكا تحذرها من مغبة الاندفاع فى المغامرات اليائســـة ، وكانت النتيجة هى سقوط « كارتر » فى انتخابات الرئاســـة لفترة ثانية ، ولم يقبل الايرانيون حل المشـــكلة الا فى مطلع عهد خليفته « ريجان » فى يناير ١٩٨١

قامت الجزائر بدور كبير فى مجال التوســـط لفك أسر الرهائن ، فقد كانت هى البلد الذى يقوم برعاية المصـــالح الايرانية فى أمريكا ، وهى بلد اســـلامى لها حكومة ثورية تستطيع اقناع ايران ، وكان لايران شروط خاصـــة بالافراج عن بعض المدخرات الايرانية فى بنوك أمريكا وحكومة الثورة فى أمس الحاجة اليها بعد أن عضتها أمريكا بناب الحصار الاقتصادى ، ولم يكن هنـــاك مجال للتمسك بالشرط القـــديم وهو تسليم الشاه لحكومة الثورة ، ذلك لأن المقـــادير كانت قـــد سبقت الثوار الى الشاه عقب انتقاله الى مصر للعلاج فى أحـــد مستشفياتها فى ٢٤ مارس ١٩٨٠ حيث قضى نحبه وهو يعـــانى من مرض السرطان الخبيث فى ٢٧ من يوليو ١٩٨٠ ، ودفن فى مصر حيث كان أبوه قد دفن من قبل .

ولقـــد نجا الشاه بأعجوبة من غدر الأمريكيين به فى أخريات حياته ، فتذكر بعض الروايات التى نشرت فى مطلع عام ١٩٨٠ أن كارتر حاول أن يجعل من الشـــاه ثمنا للافراج عن الرهائن الأمريكيين فاتفق مع حكومة « بنما » التى استضافت الشـــاه ، على أن توقع من ايران معاهدة تسليم الرهائن ، وتمت اتصـــالات مع ايران فى هـــذا الموضوع ، وسافر الى « بنما » ممثل ايران فى التوقيع على هـــذه المعاهدة ، ولكن جهودا أخرى انقذت الشاه قبل التوقيع على تلك المعـــاهدة بوقت قصير ، فقـــد أعلن الرئيس السادات أن طائرة مصرية ستنقل الشـــاه وأسرته الى مصر ، ولكن هـــذه الطائرة لم تتمكن من الوصـــول فى وقت مبكر الأمر الـــذى دفع كيسنجر وروكفلر الى الاسراع فى نقله بطائرة خاصـــة استؤجرت

بثلاثمائة الف دولار ، وكان الشـــاه مترددا فى أن يدفع هــذا المبلغ الكبير لنقل ثمانية أشخاص(٣٧) ، وكان يفضـــل انتظار طائرة السادات ، لولا أن كيسنجر ورو كفلر حذراه بأن البقاء فى بنما بضع ساعات أخرى معنـــاه القبض عليه ثم تســـليمه لأن ممثل ايران كان فى الطريق الى « بنما » ومعه نص معاهدة ايرانية لتسليم الرهائن فى مقابل تسليم الشاه(٣٨) .

ويعتقد البعض أن التقدير النهـــائى لموضوع الرهائن يدل على أن خســـائر الايرانيين تفوق أرباحهم ، ولا يمكن انكار أنهم أذلوا أمريكا وهى أكبر أعدائهم ، وأن فشـــل الأمريكيين الحقيقى يتمثل فى سقوط الشـــاه ، ولم يكن هنـــاك ضرورة لاضافة أى شىء لهذا ، وأن الاستمرار فى حجز الرهائن ســـاعد أمريكا على عزل ايران واظهار حكامها بمظهر القســـاة والعجزة(٣٩) .

غير اننا نعتقد أن عملية الاستيلاء على الوثائق فى السفارة الأمريكية كانت مهمة جـــدا لرجال الثورة بعد ان عرفوا بعضها عن طريق عميلهم المعروف « حافظ » وتم عن طريقها التعرف على خطط الأمريكيين التى كانوا يعتزمون تنفيذها فى ايران ، وفقـــد الأمريكيون بعـــدها خطوط الاتصال مـــع عملائهم فى داخـــل ايران ، وهؤلاء العملاء كانوا يشكلون الرصـــيد الاحتياطى للانقلاب المضـــاد ، الأمر الـــذى ادى الى ارتباك الأمريكيين بعدها تماما ، كما لو كانوا فقـــدوا البوصلة التى توجههم .

---

(٣٧) هو وأفراد أسرته .

(٣٨) انظر : د. أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية الجزء الثامن ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

(٣٩) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٠ .

كما أن ايران فتحت بذلك مجالا كبيرا للضعفاء فى العالم الذين تتحكم فى مصائرهم هذه الأوكار التى تسمى بالسفارات وتنقض على مستقبلهم فى الوقت المناسب ، عندما يريدون التخلص من الحكام العملاء والمستبدين الفاسدين ، فتقوم هذه السفارات بمساندة هؤلاء الحكام لكى يدوم لدولها استغلال الشعوب المطحونة .

على الرغم من أن العالم كله تقريبا — وخاصة الغربى — عارض عملية احتلال السفارة واحتجاز اعضائها كرهائن والتى تمت دون اراقة دماء ، ولو كانت هذه السفارة قادت بتخطيطها المعد انقلابا مضادا لصالح عميلها الشاه الفاسد ضد شعبة المقهور ، وأريقت الدماء فى سبيل ذلك لصفقت دول الغرب كلها لهذا العمل ، ويبدو أن هناك قصور ذاتى لدى العالم الغربى بسبب فعل أجهزة الاعلام الغربية ووكالات الأنباء المضللة التى سببت خللا فى موازين العداله لدى الغربيين ومن لف لفهم الذين يعتبرون الانقلابات المضادة لارادة الشعوب واراقة دماء المقهورين واعادة الحكام العملاء الفاسدين عملا مشروعا ، بينما الاستيلاء على حصن يدبر المكائد لشعب فى عقر داره وابطال مفعوله العدائى دون اراقة دماء عملا غير مشروع وغير اخلاقى .

الحرب الايرانية العراقية :

كانت هناك خلافات على الحدود بين العراق وايران منذ قامت ايران بضم اقليم ((**عربستان**)) اليها فى بداية حكم رضا خان سنة ١٩٢٥ وهى العملية التى قضت بها ايران على امارة المحمرة المستقلة التى كان يحكمها ((**الشيخ خزعل الكعبى**)) آخر أمراء بنى كعب ، وتمكنت ايران من ذلك بمعونة بريطانيا التى أرادت الا يكون بترول هذه المنطقة الكثير فى يد عربية فيكون بترول الخليج العربى كله عربيا ، فدبرت

مؤامرة مع رضـــا بهلوى للاستيلاء على هـــذا الاقليم العربى ، وفى مقابل هـــذا اعطاها رضا بهلوى ما أرادت من نفوذ داخل ايران ، وكان اقليم عربستان أقرب الى العراق منه الى ايران تاريخا ولغه وتقاليد ســـائدة فى كلا المنطقتين ، كما أنه مكمل لجبهة العراق المطلة على الخليج العربى والتى أصبحت العراق بدونه تطل على الخليج بجبهة حوالى (١٣ ميلا) غير صالحة لرسو السفن ، أى أن بريطانيا خنقته بذلك العمل أيضا .

وبعد أن استوعبت ايران الاقليم تماما ، بقيت بعض المشـــاكل على الحـــدود العراقية الايرانية معلقة بين البلدين حتى سنة ١٩٧٥ وفى تلك الســـنة وقعت كل من العراق وايران اتفاقية فى الجزائر ، وأدت هذه الاتفاقية الى تسوية أهم مشـــكلة بالنسبة للعراق ، وهى مشكلة تمرد الأكراد فى شمال العراق والتى كانت ايران وراءها ، فقـــد كانت تمـــد الأكراد بالســـلاح وتدعم موقفهم الانفصالى عن عرب العراق ، وقدمت العراق لايران بعض التنازلات فى شط العرب ، لكن الاتفاق كان يتضمن اعادة تخطيط كامل للحـــدود تحصـــل العراق من خلاله على مائة كيلو متر مربع من الأرض يستقيم بهـــا خط الحـــدود العراقية ، وتكونت لجـــان مشتركة لتحديد المناطق التى ستحصل عليها العراق(٤٠) .

وعندما قامت الثورة الايرانية توقفت أعمال اللجـــان فجأة وأحس العراقيون انهم نفذوا الجزء الخاص بهم فى اتفاقية الجزائر ، ولكن ايران لم تعطهم ما التزمت به ، ومنذ عودة الخمينى الى ايران والعلاقات تسوء وتتـــدهور بين البلدين ، **وعلى الرغم من أن العراق بادر بمباركة الثورة**

---

(٤٠) انظر : نص اتفاقية الجزائر سنة ١٩٧٥ فى نشرة صـــادرة عن « منشـــورات العـــالم العربى » فى باريس ســـنة ١٩٨١ بعنوان : « الصراع العربى الفارسى » الملحق الثانى عشر ص ٢٢٩ — ٢٤٦

الايرانية رســـميا ، فارسل الرئيس احمد حسن البكر برقية الى الخمينى يعلن فيهـــا عن سروره للقضـــاء على حكم الشاه المتعاون مع الصهونية ، واعلن الرئيس العراقى عن سياسة بلاده التى رحبت بالثورة الايرانيـــة التى أبدت تعاطفها مع الثورة الفلســـطينية ، وبعد أن جرى الاستفتاء على الدســـتور الاسلامى فى ايران ، ارســـل الرئيس صدام حسين (الذى خلف الرئيس البكر) برقية تهنئة اخرى بمناســـبة تصديق الشعب الايرانى على هـــذا الدستور ، ولكن رد الخمينى على برقية صـــدام حسين ، فقدم الشكر للشعب العراقى فى عبارات غامضـــة ، ثم أنهى البرقية بقولـــه : « والســـلام على من اتبع الهدى(٤١) » ومن المعروف تاريخيا أن هـــذه العبارة كان يختم بهـــا الرسول عليه الصلاة والســـلام رسائله الى الكفار والمشركين عندما كان يدعوهم الى الاســـلام ، وكان معنى ذلك أن الخمينى ينظر الى صدام حسين باعتباره خارجا عن الاسلام .

وبذلك بدأ التوتر يزداد فى العراق بسبب هـــذه الروح العدائية ، وصـــاحب هذا بداية عمليات تخريب فى العراق بفعل بعض العملاء الشيعة فى العراق وما اكثرهم ، فاتخذت العراق تدابير حازمة لحماية الدولة من التمزق ، وخاصـــة أنها مرتع لكثير من الشيعة الايرانيين فى كربلاء والنجف ففى هاتين المدينتين كثير من المدارس والمعاهد الايرانية وتوجد بهما كثرة من المدرســـين والطلاب الايرانيين ووراءهم أنصـــار كثيرون من شـــيعة العراق الذى يبلغ عددهم ما يقرب من نصـــف العراق ، وقامت العراق بترحيل بعض زعماء الشيعة الذين يعيشـــون فى المنـــاطق الحساسة ، وحملتهم الســـيارات الى الحدود الايرانية والقت بهم ، وشقوا طريقهم الى طهران ، وتصاعد التوتر على الحـــدود ، وصرح أبو الحسن بنى صدر

---

(٤١) محمد حسنين هيكل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٧

بقوله : « اذا استمرت الاستفزازات العراقية فأنا لاأستطيع أن أمنع جيشى من الزحف على بغداد(٤٢) » .

وتلقفت أمريكا هذه المشاكل وكانت تواقه الى الانتقام من ايران الثورة ، فوجدتها فرصة لتنفيذ خطتها المعروفة بالضرب بيد اسلامية وتكون هى غير ظاهرة فى الصورة ، فلعبت دورا كبيرا فى اذكاء الخلاف بين الطرفين ، وخاصة أنها قدرت أن مثل هذا الصدام العراقى الايرانى سيقضى على أى وفاق عربى ايرانى محتمل بعد تعاون منظمة فتح والفلسطينيين مع الثورة الايرانية ، ويمزق اى امكانية لالتقاء عربى ايرانى فضلا عن تحالف عربى ايرانى يجعل الشرق الأوسط كله منطقة منزوعة النفوذ الأجنبى ، ويطرح امكانية استخدام موحد للنفط فى مواجهة الاحتكارات العالمية ، ومواجهة السياسة الأمريكية المنحازة لاسرائيل(٤٣) .

وتصاعدت الاشتباكات على الحدود بين العراق وايران فى شهرى يوليو واغسطس ١٩٨٠ ، وفى بداية شهر سبتمبر بدأت معارك محدودة جوية وبحرية ، وزادت حشود الطرفين على الحدود ، وفى ١٧ من سبتمبر قام صدام حسين باعلان من جانب واحد بالغاء اتفاقية الجزائر (١٩٧٥) بحجة أن حكام ايران قد أخلوا بالاتفاقية منذ بداية عهدهم(٤٤) .

وفى ٢٢ من سبتمبر ١٩٨٠ اجتاحت القوات العراقية الحدود الايرانية فى هجوم كاسح على ايران ، وتحركت القوات الجوية العراقية وأغارت

---

(٤٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٨

(٤٣) انظر : تحليلا للموقف قبل الحرب كتبه الكاتب الصحفى محمد جلال كشك فى مجلة الحوادث اللبنانية ، عدد ١١٨٠ بتاريخ ١٩٧٩/٦/١٥ بعنوان : « الخليج يحترق فى الشتاء » .

(٤٤) انظر نشرة « منشورات العالم العربى » سالفة الذكر ، ص ١٢٨

على عشر قواعد عسكرية وجوية فى عمق الأراضى الايرانية ، وعطلت مدارجها وشلت العديد من هذه المواقع ، وكان أهمها مطار كرمنشاه العسكرى ، وقاعدة همدان الجوية ، وقاعدة طهران الجوية ، وقاعدة أصفهان ، ومطار الأحواز ، وقاعدة شيراز وقاعدة تبريز .

وقامت الطائرات الايرانية بغارات على البصرة وبغداد ونينوى وواسط فى الأراضى العراقية ، ووجهت السلطات الايرانية تحذيرا الى دول الخليج من اى هجوم برى أو بحرى أو جوى ينطلق من موانيها ضد الأراضى الايرانية . ولهذا التحذير الايرانى مغزاه لأن ايران تدرك أن أن العراق سيحتاج أثناء الحرب الى الارتكاز فى بعض الموانى الكويتية وخاصة حول جزيرة « بوبيان » الكويتية التى تقع فى خليج الكويت ، لأن العراق كما سبق أن أوضحنا ليس لديه موانى فى الخليج صالحة لرسو السفن .

وتطورت الحرب فاتجهت لتخريب أماكن صناعة البترول فى كلا البلدين ، وفى الأيام الأولى تمكنت العراق من التغلغل فى داخل الأراضى الايرانية وعزلت مدينة المحمرة ، ودمرت قسما من مصافى « عبادان » البترولية فى القسم الجنوبى من الجبهة ، وحقق العراق بذلك أهدافا عسكرية داخل الأراضى الايرانية ، وهددت ايران باغلاق مضيق هرمز ، وتفجير منافذه ، فأخذت الحرب أبعادا دولية ، وشعرت الدول الصناعية الكبرى فى العالم أن اقتصادها أصبح مهددا أمام التهديدات الايرانية ، وذلك لأن مصانعها تعتمد على البترول الذى يرد اليها من الخليج عن طريق هرمز .

ونتج عن هذه الحرب ايقاف تصدير النفط الايرانى ، وتأزمت الأوضاع الاقتصادية فى ايران وكانت العراق تود أن يكون هذا باعثا

لايران على طلب المفاوضـــات لتسوية الخلافات ولكن ذلك لم يحدث ، وتطورت الحرب تطورا مفزعا حيث أقدمت كلا البلدين على تدمير كـــل ما يمكن تدميره فى داخل الأراضى العراقية والايرانية دون تمييز للأهداف المدنية من العسكرية ، واريقت دماء اسلامية بسبب العناد الايرانى .

وتمادى الايرانيون فى رفض الصلح الــذى طلبه صدام حسين أكثر من مرة ، ولعبت الدول الكبرى دورا خبيثا فى مجـــال ازكاء واشـــعال نار الحرب لكى تقضى على قوة الدولتين الاسلاميتين واعتبر الايرانيون بعد فترة أن الحرب كانت لازمـــة لهم لتوحيـــد الجبهة الـــداخلية فى ايران بعد الثورة حيث كان الصراع داخل ايران على أشـــده فجاءت الحرب مع العراق فوحدت كل هؤلاء ضـــد العدو الخارجى وتطهر الجيش الايرانى على حد تعبير آيات الله فى ايران ، **ولكن نسى هؤلاء أن الدم الاســـلامى يراق ، واذا التقى سيفان فى الاســـلام فالقاتل والمقتول فى النار ، وأن هذه الحرب تعمق الحقد والكراهية بين الشعوب الاسلامية .**

وتقدمت اسرائيل على الرغم من جرحها الذى مازال ينزف من ايران الثورة ، تقدمت الى مساندة ايران فى الحرب لاضـــعاف العرب والمسلمين عموما ، فأمدت ايران بالمعدات العسكرية التى أضـــحت ايران فى حاجة ماسة اليهـــا من أى مكان لأن نار الحرب أحرقت كل مخزونها من السلاح تلك الحرب التى دخلت الآن (١٩٨٤) عامها الرابع ، وقامت الطائرات الاسرائيلية بالهجوم على المفـــاعل النووى العراقى الذى تقـــدم العراق عن طريقه فى مجال الأبحاث النووية ، وتم ذلك فى سنة ١٩٨١

وبدأ الخمينى يوجه رسائله الى الشعب العراقى يطالبه فيها بالاطاحة بحكومة صـــدام حسين ، ودعا الجيش العراقى الى توجيه أسلحته الى صـــدور قادته واسقاط النظام الحاكم فى بغـــداد ، وبدأت ايران تتلقى أسلحة من كثير من المصادر الروسية والأمريكية والفرنسية وغيرها من المصـــادر ، والهدف واضح من هؤلاء جميعا ليس لصالح العالم الاسلامى وانما لتدمير البلدين ، وتنفست أمريكا الصـــعداء واعتلاها ارتياح لمـــا

أصاب ايران والعراق على السواء على الرغم من النفاق الأمريكى المعهود والاعلانات التليفزيونية بأنها على الحياد .

هذا ومازالت الحرب العراقية الايرانية دائرة حتى الآن (١٩٨٤) ودخلت عامها الرابع وفشلت جهود الوساطة الاسلامية التى انبثقت من مؤتمر القمة الاسلامى بمكة المكرمة سنة ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) فقد كون المؤتمر لجنة اسلامية برئاسة الرئيس الغينى أحمد سيكوتورى لحل النزاع بالطرق السلمية ، وبدأت اللجنة مباشرة مهامها بعد فض المؤتمر مباشرة ، واصدرت اللجنة بعد ما قامت بالمفاوضات مع الطرفين بيانا حول مقترحاتها لتحقيق الحل السلمى الشامل للنزاع فى مارس ١٩٨١ ، ويقضى باقتراح وقف اطلاق النار بين الطرفين فى ١٣ مارس ١٩٨١ وتقوم لجنة عسكرية اسلامية للاشراف على وقف اطلاق النار ، على أساس اعلان كل من العراق وايران احترام السيادة الوطنية لكل منهما ، وعدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالقوة ، وعدم تدخل كل منهما فى شئون الآخر الداخلية ، وتسوية الخلاف بالطرق السلمية(٤٥) .

ومع ذلك لم تلتزم ايران بوقف اطلاق النار بينما التزمت به العراق لفترة ثم بدأت ترد على اطلاق النار باطلاق مثله وكل يوم تزداد الخسائر بين القطرين المسلمين ، ويتحسر العقلاء أسا وأسفا على هذه الحرب المحرمة وعلى هذه القدرات التى تهدر فى ساحات الحرب ، وكان من الأجدر توفيرها لحاجة المسلمين فى صراعهم ضد أعدائهم المتربصين .

والتقدير النهائى لهذه الحرب لم يحن وقته لأنها مازالت دائرة ، ولايستطيع المؤرخ أن يسبق الحوادث باعلان حكمه كما أن الوثائق الخاصة بهذه الحرب ليست متاحة الآن ، ولا يملك المسلم ازاء هذا النزيف المستمر الا مناشدة العقلاء فى كلا البلدين بكبح جماح العناد المدمر لكل منهما ، والله الهادى الى الصواب .

---

(٤٥) انظر : نص بيان لجنة المساعى الحميدة ، المنشور فى جريدة عكاظ السعودية بتاريخ ٣٠ من ربيع الآخر ، ١٤٠١ ج (٦ من مارس ١٩٨١) .



الفصل العاشر

مصر

مصــــر

المــامة عامة بتاريخ مصر حتى ثورة يوليو ١٩٥٢

تتمتع مصر بموقع استراتيجى هــام حيث تتحكم فى سرة العــالم القــديم ، فى موضع وسط بين آسيا وافريقيا واوربا وتصــل البحــار الشرقية بالبحار الغربيــة عن طريق البحر الأحمر وقناة السويس ومن ثم كانت عامل اتصــال بين الشرق والغرب منذ العصــور القديمــة ، وكانت على مر الزمن منطقــة جذب للقوى العظمى فاليهــا اتجه اليونان لبناء امبراطوريتهم بزعامة الاسكندر الأكبر ، واتجه اليهــا الفرس عند قوتهم ، كما زحف عليهــا الرومان لتدعيم مركزهم فى مواجهة الفرس ، وعندما ظهر الاســلام فى الجزيرة العربية فتحها المسلمون فى سنتى ١٩ ، ٢٠ هـ ، وفى العصر الحــديث اتجه اليهــا نابليون بونابرت ليكون منهــا امبراطورية تحكم العــالم .

فهى كما يقول علماء الجغرافيا : « بموقعهــا على خط التقســيم التاريخى بين الشرق والغرب تقع فى الأول ولكنها تواجه الثــانى وتكاد تراه عبر المتوســط ، كما تمد يــدا نحو الشمال واخرى نحو الجنوب ، وهى توشك بعد هــذا كله أن تكون مركزا مشتركا لثلاث دوائر مختلفة بحيث صارت مجمعا لعوالم شتى ، فهى قلب العــالم العربى وواســطة العالم الاسلامى ، وحجر الزاوية فى العالم الافريقى(١) » .

---

(١) د. جمال حمدان ، شخصية مصر ، مكتبة النهضة المصريــة ، القاهرة سنة ١٩٧٠ ، ص ص ٦ — ٧

وهــذا الموقــع المتميز جعل مصر وسطا فى كل شىء ، فهى أمــة وسط بكل معنى الكلمة ، ولعل فى هــذه الموهبة الطبيعية سر حيويتهــا على مر العصور سواء كانت مستقلة أو تابعة لقوى كبرى .

ومنذ أن فتحها الاســلام وهى تواصــل بشدة ونشاط فى مجــال استيعاب الفكر الاســلامى والثقافة الاسلامية العربية ، وتم تعريبهــا جنســيا ولغويا فى عصــور الراشدين والأمويين والعباسيين حتى اذا ســقطت بغداد فى يد المغول ســنة ٦٥٦ هـ وتم القضــاء على الخلافة العباسية كانت مصر مهيأة لأن تقود العالم الاســلامى بعروبتها وثقافتها .

وعندما أضحت مركزا للخلافــة الفاطمية (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) أراد الفاطميون فى فترة حكمهم أن يجعلوا منها دولة شيعية ، ولكن طبيعتهــا الوسط فى الفكر والاعتقاد وتسامحها أبت الا أن تكون على مذهب أهــل الســنة والجماعة حتى فى أيام الفاطميين أنفسهم التى اســتطالت نحو قرنين من الزمان ، فكانت تعيش فيهــا الأفكار الســنية جنبا الى جنب مع الأفكار الشــيعية ، وبعد الفاطميين برز دور الأزهر فى الحياة المصرية بحلقاته التى تدرس فيهــا جميع المذاهب السنية بحرية مطلقة ، بل ان أى مدرســة كانت تبنى فى مصر بهــا أربعة أواوين لكل مذهب ايوان خاص بعلمائه ومدرســية يدرسون فيه على مذهبهم فى حرية كاملة دون تعصــب .

ولقــد كان هــذا التوسط والتسامح من العوامل التى جعلت من مصر قبلة ثقافية للعالم الاســلامى منذ أن أضحى الآزهر جامعة المسلمين جميعا ، وتأهلت مصر فى نهاية العصر الأيوبى لكى تقود العالم الاسلامى عندما اســتوعبت التراث الاســلامى باللغة العربية ، وأضحت مركزا للدراسات الاســلامية والعربية العليا لايضــاهيه مركزا آخــر فى البلاد

العربية حتى منطقة الحرمين الشريفين التى شـــهدت انبثاق الاســـلام وازدهاره لم تدانيها فى ثقافتها وتعمقهـــا فى التراث الاسلامى .

وتولت مصر الحفاظ على المسيرة الحضارية الاسلامية بعد ســقوط بغداد فى يـــد المغول ســـنة ٦٥٦ هـ وتدميرهم للحضـــارة الاســـلامية فى شرقى العالم الاســـلامى ، وانتقلت الى القـــاهرة مظاهر الزعامـــة السياسية ، فنقل امراء المماليك الـــذين ورثوا حكم الأيوبيين الخلافـــة العباسية الى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ ، وادخلت مصر الحرمين الشريفين فى حوزتها وحمتهما سياسيا واقتصـــاديا ، فكان لهـــا الاشراف على موسم الحج كل عام وحماية حجيج بيت الله الحرام فى غدوهم ورواحهم ، فى وقت كانت تتعرض فيه قوافل الحج للنهب من بدو الصحراء ، بالاضافة الى انها تكفلت منـــذ العصر الأيوبى بالصرف على الحرمين الشريفين ودعم أهالى الحرمين الشريفين اقتصاديا ، ورصد الحكام والاثرياء أوقافا ومخصصات للحرمين الشريفين ولاهالى الحرمين الشريفين ترســل كل عام مع أمير الحج المصرى ، وتعهدت بكسوة الكعبة المشرفة ، وكسوة الحجرة الشريفة فى حرم المدينة المنورة ، وهما رمز اعتزاز المســلمين فى مشارق الأرض ومغاربهـــا .

وكما تأهلت مصر حضـــاريا وثقافيا لقيادة العالم الاسلامى بعـــد سقوط بغداد ، تأهلت ايضـــا عسكريا وسياسيا للقيادة والـــدفاع عن العالم الاســـلامى ضد الزحف المغولى ، فتمكنت القوات المصريـــة بقيادة المماليك من هزيمة المغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ بقيادة(٤) سيف الدين

---

(٢) عبد الرحمن الرافعى وســـعيد عاشـــور ، مصر فى العصـــور الوسطى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤٤

قطز وتعقبتهم حتى نهر الفرات ، ونجت مصر وشمال افريقيا الاسلامى من شرهم وحمت مصر الحرمين الشريفين من عبثهم .

وتمكنت مصر فى هذه الفترة من اجلاء آخر الصليبيين من عكا سنة ٦٩١ هـ بقيادة الأشرف خليل بن قلاون ، وبدأت مصر تشهد عصرا ذهبية فى مجال الفكر والثقافة والحضارة فكتب المفكرون المصريون فى هذه الفترة كثيرا من الموسوعات الاسلامية جمعوا فيها كثيرا من التاريخ الاسلامى والثقافة الاسلامية وذلك خوفا على ضياع هذا التراث بعد ما حدث فى الهجمة المغولية المدمرة على بغداد ودمشق ، وازدهرت أيضا الحياة الاقتصادية فى مصر بسبب سيطرة المماليك على التجارة العالمية بين الشرق والغرب والتى كانت تمر بطريق البحر الأحمر عابرة مصر وانتعشت ثغور مصر وموانيها مثل عيذاب والسويس على البحر الأحمر ودمياط ورشيد والاسكندرية على البحر المتوسط .

غير أن الغالبية الساحقة من سكان مصر كانوا يعملون فى زراعة وفلاحة الأرض ويعيشون فى حالة من الفقر والحرمان « فالفلاح ظل فى ذلك العصر مربوطا الى الأرض التى يفنى حياته فى خدمتها دون أن يتمتع بنصيب يذكر من خيراتها . وقد تعرض الفلاحون لكثير من العسف من جانب أمراء المماليك من ناحية ، ومن جانب الأعراب الذين طغوا عليهم من ناحية أخرى(٣) » حتى أن المقريزى (٧٦٦ — ٨٤٦ هـ) يذكر أن معظم القرى تخربت « لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد(٤) » .

وعندما ضعفت دولة المماليك وتطرق الفساد الى نظامها الداخلى بسبب كثير من العوامل التى أوضحناها فى الجزء الأول من هذا الكتاب ،

---

(٣) المرجع السابق ص ٥٤٠.

(٤) المقريزى ، اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٣٦ — ٤٠.

وانتهى بهم الأمر الى أن قام البرتغاليون بالقضاء على سيطرتهم الاقتصادية في عالم العصور الوسطى الأمر الذى أضعف مواردهم واقتصادهم وانعكست هذه الأوضاع الاقتصادية على الحالة العسكرية فاضمحلت وظهر ضعفهم أمام القوى البرتغالية الزاحفه على الشرق ، فتقدمت دولة العثمانيين لكى ترث دور الزعامة على العالم الاسلامى سنة ٩٢٣ هـ فزحفت على أملاكهم فى الوقت الذى كانوا يدافعون فيه عن العالم الاسلامى أمام الضربات المسيحية الغربية سواء فى البحار الشرقية أمام البرتغاليين أو فى البحر المتوسط أمام قراصنة القديس يو حنا من بقايا الصليبين فى رودس .

ونقلت الدولة العثمانية الخلافة الاسلامية(٥) اليها ، وقامت بضم الحرمين الشريفين الى حوزتها ، ومع أنها نقلت مظاهر الزعامة اليها الا أنها لم تستطع أن تحافظ على الجوهر وهو الاستمرار بمسيرة الحضارة الاسلامية ، لأنها لم تستطع أن تستوعب التراث الاسلامى باللغة العربية ، لأنها لم تكن مؤهلة حضاريا ولا لغويا لذلك فقد كانت

---

(٥) كان أول من تلقب بلقب خليفة من العثمانيين هو السلطان سليمان المشرع (٩٢٧ — ٩٧٥ هـ) وجاء هذا اللقب فى نص وثيقة وقفية للكسوة الشريفة وقفها السلطان سليمان ، فجاء ما نصه : « فلما تفكر فى جميع ذلك (أى فى ايقاف عقارات على مصالح الكسوة الشريفة) السلطان الأعظم والخاقان الأكرم الأكمل ، ظل الله فى أرضه وخليفته على خليقته فى رفعه وخلقه ... السلطان سليمان شاه بن السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد » بتاريخ ٩٤٧ هـ .

انظر : مرآة الحرمين ، لابراهيم باشا رفعت ، ج ١ ص ٢٨٥ — ٢٩٠ نقلا عن كتاب « مرآة مكة » لأمير اللواء البحرى العثمانى أيوب صبرى باشا .

فى مرحلة ادنى من الدول العربية فى مجال الحضـــارة وبنت مجدها على الانتصـــارات العسكرية واعتمدت على نظامها العسكرى القوى ، وقاومت التعريب وتمسكت بلغتها التركية وبعنصرها التركى وجعلته الحاكم على من عداه من العناصر ، ففشلت فى حمل راية الثقافة الاســـلامية والحضارة الاســـلاميه ، على الرغم من أنها نجحت فى الدفاع عن العـــالم العـــربى والاســـلامى . ومن ثم تخلفت الحضارة الاســـلامية عن غيرها ، وبدأت أوربا تسبق الشرق الاســـلامى فى هذا المجال .

أما مصر فانها تحولت فى العصر العثمانى (٩٢٣ — ١٢٢٠ هـ) الى ولاية تابعة للدولة العثمانية ووقفت مسيرة التقـــدم الحضارى بهـــا لأن القـــاهرة غدت عاصمة لاقليم تابع للدولة العثمانية وتحولت عنهـــا الأضواء ، والحركة العلمية التى كان يتولى الصرف عليهـــا الســـلاطين والأمراء غدت سوقهـــا كاسدة ، واكتفت بالشروح والتعليقات والملخصات على ما تم انجاز ه فى العصـــور الذهبية السالفة ، وبرز دور الأزهر فى الحفاظ على الثقافة الاســـلامية باللغة العربية فى ظل الحكم العثمانى ، واستطاع خلال هـــذه المحنة الشاملة ان يصـــمد وأن يستبقى شيئا من مكانته وهيبته القديمة واســـتطاع أن يسدى الى اللغة العربية وعلومها أجل الخدمات ابان العصر العثمانى ، وبرز دوره فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ابان الحكم العثمانى(٦) .

أما من الناحية السياسية فان مصر خضعت خضـــوعا تاما للحكم العثمانى ، واهتم العثمانيون باضـــعاف مصر وكسر شوكتها ، واصـــبحت

---

(٦) د. عبد العزيز الشناوى ، دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ابان الحكم العثمانى ، من أبحاث الندوة الدولية لتـــاريخ القاهرة ١٩٦٩ م ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٧١ م ص ٣

فى عهدهم نهبا مباحا لسلطات متعددة ومتداخلة كالوالى العثمانى الذى كان يتم تغييره باستمرار وعلى فترات متقاربة لاتسمح بالاستقرار فى الحكم ولا فى تنظيم الادارة خوفا من استقلاله بمصر ، وجنود الفرق العسكرية العثمانية السبعة المعسكرة بمصر لمراقبتها أو حمايتها كما يقول العثمانيون ، ثم بكوات المماليك وهم بقايا المؤسسة العسكرية السابقة الذين استسلموا وعملوا فى ظل الحكم العثمانى كحكام للاقاليم الداخلية فى مصر .

دور العلماء فى العصر العثمانى :

فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى (١٨ م) أخذت أحوال الدولة العثمانية تنتقل من سىء الى أسوأ نظرا للحروب التى خاضتها الدولة ضد بعض الدول الأوربية ، وبخاصة النمسا (فى القرن ١٧) وروسيا (فى القرن ١٨) ونتيجة لذلك بدأت قبضة الدولة العثمانية تضعف رويدا رويدا على ولاياتها فى الخارج ، مما ترك للقوى المحلية فى مصر حرية أوسع للعمل فتبدلت طبيعة الحكم فيها وبدأت طائفة المماليك تعمل على ايقاف القوات العسكرية العثمانية عند حدها ، وانشأت جيوشا خاصة بها ، مما اقتضى زيادة فى الضرائب ، فكثرت الضرائب على كاهل الشعب المصرى بكثرة المتصارعين وازدواجية الحكم ، وتردى الفلاح المصرى الى درجة من البؤس لم يشهدها من قبل ، وبرز دور علماء الأزهر فى الدفاع عن حقوق الشعب المهضومة كما برز دوره فى الحفاظ على الثقافة الاسلامية .

فلم يكن يحد من سلطان هؤلاء الحكام سوى العلماء الذين كان لهم نفوذ روحى كبير على الحكام والشعب ، ولم تكن هناك رابطة تربط بين هؤلاء الحكام وبين الشعب فهم غرباء عنه جنسا ولغة ومشاعر ، أما العلماء فهم مصريون مثله نشأوا فى قلب الريف يحسون باحساس

الفلاحين المقهورين ، فاتجه الشـــعب اليهم يبثهم شكواه ، ويطلب منهم الوقوف بجانبه ضد أطماع حاكميه ، وكان العلماء يســـعون بهذه الشكوى الى الحكام ويقدمون لهم النصيحة ، وكان الحكام يســـتمعون غالبا لهذا النصح ، ويستجيبون لوساطة العلماء ومن ثم عقد للعلماء نوع من الزعامة الاختيارية التى ارتضاها الحكام والمحكومون على السواء .

وزاد من نفوذ العلماء توزيع ســلطة المماليك فى هـــذه الفترة بين عديد من المنافسين ، وأصبح كل منهم فى حاجة الى دعم جماهيرى فزاد تقربهم الى العلماء وضاعفوا من هداياهم اليهم ، وادرك العلماء بدورهم أن المماليك بحاجة اليهم بصفتهم وســـطاء ومفاوضين ، وبذلك تضاعفت أهميتهم السياسية وزادت ثروتهم حتى شـــغلوا مكانا عليـــا فى المجتمع المصرى(٧) وعظمت قوة ارادة الشعب بهم وتقدمت حركة العلماء بالكفاح فى مجالين :

أولا : حملوا لواء المعارضة فى الديوان العثمانى فقد كانوا أعضـــاء فيه بحكم مركزهم المرموق .

ثانيا : قادوا الحركات الثورية الشـــعبية ونظموا كفاح الشعب ضد ظلم الحكام من العثمانيين والمماليك .

أما فى مجال المعارضة فى الديوان العثمانى :

ففى عام ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) أرسل السلطان الى مصر مرسوما بابطال بعض المرتبات الخيرية ، واجتمع أعضـــاء الديوان لتلقى ذلـــك

---

(٧) د. عفاف لطفى السيد الحياة الاجتماعية والاقتصادية لعلمـــاء القـــاهرة فى القرن ١٨ مجلة الفكر المعاصر — العدد ٥١ ســـنة ١٩٦٩ ترجمة د. أمين العيوطى ص ٧٢ — ٧٣

الأمر ، فلما قرئ عليهم المرســوم السلطانى بادر القاضى العثمـانى فقال : « أمر الســلطان لا يخالف وتجب طاعته » فانبرى له أحد الأعضاء الشـيوخ ، وهو الشيخ سليمان المنصورى وقال « يا شيخ الاسلام ... أن ذلك مخالفة للشرع ولا يســلم للامام فى فعل ما يخالف الشرع ولا لنائبه أيضا فسكت القاضى » وقال الباشا : « هذا يحتاج الى المراجعة » أى الرجوع الى السلطان(٨) .

وقد كلف الديوان الشــيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر وقتئذ بوضــع (عرضحال) مذكرة الى الســلطان محمود الأول (١٧٣٠ — ١٧٥٤) على لســان العلماء ، فكتب الشيخ الشبراوى مذكرة مطولة تتلخص فى شرح وجهة نظر علماء الشريعة فى عدم جواز قطع هذه المرتبات ، لأنها اذا قطعت بطل الاشتغال بالعلم وتوقف حفظ القرآن « وحصل خلل فى تلك الرســوم وآل ذلك الى خراب هــذا الاقليم العظيم وبطلان ما فيه من الخير » وقد خوف العلماء السلطان من مغبة قيام الأهالى بثورة فقالوا : « وربما قامت الرعية وهاجت واضطربت أحوالها وماجت لأن قطع المعايش والأرزاق يقضى الى قبيح الأفعال وسوء الأخلاق » .

ثم ذكروا له ما فعله الحكام السابقون من بــذل وسخاء فى هــذا الصدد وأفتى بذلك علماء الشريعة من السلف الصالح ، وطلب الشــيخ الشبراوى من الســلطان باسم العلماء أن يطلق هذه المرتبات والا يضيق على النــاس فى حياتهم المعيشــية ، وختم المذكرة بذكر بعض الأحاديث

---

(٨) عبد الرحمن الجبرتى . عجائب الآثار فى التراجم والأخبــار — المطبعة العامرة الشرفية — القاهرة ١٣٢٢ هـ ج ١ ص ١٥٣ :

الشريفة التى تحض على بذل الخير ، وطلب للسلطان حسن الختام(٩) .

من هنا نعلم أن أوامر السلطان لم تكن ترهب علماء الأزهر ولم تمنعهم من الاحتجاج والاعتراض ، وهل هناك حكم بعدم دستورية مرسوم سلطانى أوضح وأجرأ واكثر دقة من هذا الحكم الذى أصدره الشيخ المنصورى ، فأسكت القاضى التركى والزم الباشا التركى أيضا بأن يقول : ان الأمر يحتاج الى المراجعة .

هذا المبدأ الخطير الذى يعلنه الشيخ « المنصورى » ببساطة فى مواجهة نائب السلطان والذى يسقط الشرعية عن أى مرسوم سلطانى يخالف الشريعة الاسلامية ، يعلنه احد كبار العلماء فى سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م)(١٠) .

وهذا ما يدحض ماذهب اليه البعض من أن مشايخ الأزهر لم يشتركوا فى قضايا المجتمع ، ولم ينالوا مكانة الا بفضل الديوان الذى اخترعه

---

(٩) عبد الله الشبراوى : صور كتب بعض علماء مصر الى سلاطين الدولة العثمانية وفرمانات صادرة من أمراء الفرنساوية بمصر . جمع محمد بن يوسف جوربجى جليان هيانم فرغ من جمعها فى شوال ١٢١٧ هـ نسخة مخطوطة بمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ١٠٠ تاريخ ، وتوجد منها نسخة أخرى بدار الكتب المصرية بالقاهرة بخط الكاتب حسن رشيد ، وقد نقلها عن نسخة سوهاج بتكليف من دار الكتب سنة ١٩٢٦ تحت عنوان آخر هو : « منشورات قائد الفرنساوية فى مصر أثناء الحملة الفرنساوية تحت رقم : ٦٢١٠ تاريخ ص ص ١٣ — ٢٤ وقد نقلنا عن النسخة الأخيرة .

(١٠) محمد جلال كشك ، ودخلت الخيل الأزهر — بيروت ابنسان ١٩٧٣ ص ٣٨

بونابرت بمصر ابان الحملة الفرنسـية والذى يعتبر فى نظرهم أول مجلس وزراء فى تاريخ مصر(١١) .

وكان الشـيخ على الصعيدى معاصرا لعلى بك الكبير ومحمد بك ابو الدهب ، فكان يأخذ شـكاوى الناس ويذهب بها اليهما فلا يردان له طلبا . وقال الشـيخ الصعيدى مرة لأبى الذهب : « لا تضجر ولا تأسف على شىء يفوتك بغير حق فى الدنيا فان الدنيا فانية ، وكلنا نموت ، ويوم القيامة يسألنا الله عن تاخرنا عن نصحك ، وها نحن قد نصحناك وخرجنا من العهدة » وكان اذا امتنع الأمير عن اجابة طلبه صرخ فيـه قائلا : « اتق النار وعذاب جهنم ، ثم يمسـك يده ويقول له : « انا خائف على هذه اليد من النار(١٢) » .

حركة شعبية يتزعمها الشيخ الشرقاوى وعلماء الأزهر :

حدثت هذه الحركة فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٥ م) فقد وفد الى القـاهرة فلاحون من قرية تتبع مركز بلبيس ، وكانت للشيخ عبد الله الشرقاوى (شيخ الجامع الأزهر الشريف يومئذ) حصـة من الأرض بهذه القـرية ، وقـدم الفلاحون شكواهم الى الشيخ الشرقاوى بان مماليك محمد بك الألفى ظلموهم وطلبوا منهم مالا قـدرة لهم عليه من الضرائب .

اتصل الشيخ الشرقاوى فى أول الأمر بابراهيم بك ومراد بك وطلب منهما وقف هـذه المظالم ، ولكن الأميرين لم يبديا اهتماما وأهملا وساطة الشـيخ ، فثارت ثائرته وحضر الى الأزهر فى اليوم التالى وعقد اجتماعا

---

(١١) د. لويس عوض — تاريخ الفكر المصرى الحديث — القاهرة ١٩٦٩ ج ١ ص ١٠٤

(١٢) الجبرتى — عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ١ ص ٤٢١

لهيئة كبار العلماء وعرض عليهم الأمر فقرروا الاضراب العـــام ، واغلقوا الازهر ايذانا ببـــدء الثورة ، وخرج المجاورون يأمرون النـــاس باغلاق الأسواق والحوانيت ، وتجمع النـــاس فى ساحة الأزهر ، فتقدمهم الشيخ الشرقاوى يتبعه العلماء ، وتوجهوا الى منزل الشـــيخ محمد أبو الأنوار السادات والذى كان مجاورا لمنزل ابراهيم بك ولهذا وقع اختيارهم لـــه ولمـــا للشيخ الســـادات من نفوذ كبير لدى جماهير الشعب ولمنزلته لدى الأمراء .

رأى الامير ابراهيم بك هـــذه الجموع الثائرة على مقربة من داره فأرسل رسولا من طرفه الى المشايخ وهو « أيوب بك الدفتردار » فحضر اليهم وسألهم عن سبب تجمعهم فأجابه الثوار : « نريد العـــدل ورفع الظلم واقامـــة الشرع وابطال الحوادث والمكوســـات التى ابتدعتموهـــا وأحدثتموها » فرد عليهم الدفتردار : بانه « لايمكن الاجابة الى هـــذا كله فاننا اذا فعلنا ذلك ضـــاقت علينـــا المعايش والنفقات ، فرد عليه المجتمعون بان : « هـــذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك ، والأمير يكون اميرا بالاعطـــاء لا بالأخذ »(١٣) فوعدهم الدفتردار بعرض مطالبهم على ابراهيم بك وقد كان هذا فى الواقع حوارا جديدا .

وقد قال الرئيس أنور الســـادات معلقا على هذا الحوار الذى دار بين ممثلى الشعب وممثل شيخ البلد الحاكم « أن الثورة الفرنسية كلهـــا تتضاءل أمام المغزى العميق لهـــذا الحوار . فقد أسفرت الثورة الفرنسية عن مبادىء ثلاثة هى الحرية والاخاء والمساواة ، لم تلبث أن أصبحت فى

---

(١٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٧٤

فرنســا ذاتها واثناء الثورة الفرنســية نفسها شعارا للقتل والتدمير بين الفرنسيين والثوار انفسهم ثم ما لبثت هــذه المبادىء أن صدرتها فرنسا الى الخارج على صورة استعمار خبيث يفتك بالشــعوب البريئة ويسلبها أرزاقها ، ويقتل النســاء ، ويفتك بالأطفال ويغتصب الأرض ، ويجعل من الانســان شيئا أحط من الحيوان كل هــذا باسم الحريــة والأخاء والمســاواة(١٤) » .

ونعود الى تكملة الحديث عن حركة العلماء فقد تطورت المســألة من مجرد المطالبة بوقف اعتداءات مماليك الألفى على أهالى « قرية شرقية بلبيس » الى حركة شعبية تنادى بضرورة وضــع حد للمظالم التى يتعرض لها الشعب ، ومطالبة الحكومة بضغط المصروفات والحد من الاسراف فى استيراد المماليك وتأمين الأفراد على أموالهم وأرواحهم .

لم يرجع الدفتردار الى الثوار بجواب كما وعــد ، فعاد زعمــاء الشعب الى الجامع الأزهر ، وقضوا ليلتهم بالمســجد ، وصمموا علــى المضى فى حركتهم لليوم الثالث على التوالى ، وبدأت بوادر النصر فقــد أرسل اليهم ابراهيم بك يعضدهم ويقول لهم : « أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطرى ومرادى وأرسل الى مراد بك يحذره عاقبة ذلك فتزلزلت أركان مراد بك وخاف من تفاقم الثورة ، فأرسل الى المشــايخ يقول لهم : انه اقلع عن ظلم الشــعب ، وطلب أربعة من المشايخ عينهم باسمائهم فذهبوا اليه بالجيزة ، فلاطفهم والتمس منهم السعى فى أمر الصلح .

وفى اليوم الثالث للثورة نزل الباشا من القلعة الى منزل ابراهيم بك واجتمع الأمراء هنــاك وأرسلوا الى العلماء بالحضور ، فى جلسة طارئة

(١٤) مذكرات الرئيس انور السادات « ياولدى هذا عمك جمال » ص ٢٤

لديوان القاهرة فحضر الشيخ السادات والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف ، والشـــيخ الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشـــيخ محمد الأمير وغيرهم من العلماء ، ومنعوا العـــامة من الذهاب معهم الى الاجتماع ، ودارت مناقشات حامية بين المجتمعين ، وانتهت باصدار وثيقة متضمنة شروط العلماء واعلان توبة الأمراء عن الظلم والتزامهم بالعدل .

كانت هذه الشروط تدور حول اقرار العدل ورفع الظلم وفى مقدمتها :

١ — دعم ميزانية الجامع الأزهر .

٢ — دعم ميزانية الحج والمحرمين الشريفين .

٣ — منع الفرد على البلاد والرعايا الفقراء .

٤ — ازالة جميع الحوادث والمظالم من جميع الأقطار المصرية .

٥ -- رفع الضرائب الجائرة فى المدن والاقاليم(١٥) .

وبذلك نلاحظ أن حركة العلماء حققت عدة أهداف :

أولا : أنهم اجبروا الأمراء على التفاوض معهم .

ثانيا : نزل الأمراء على ارادة العلمـــاء ووافقوا على الغـــاء جميع التشريعات الضرائبية الجائرة .

ثالثا : عزلوا الحكام الظالمين من المناطق التى تضررت بوجودهم بها .

رابعا : امتدت مطالبهم لتشمل تقرير ميزانية الدعم للحرمين الشريفين .

خامسا : استصدروا وثيقة بهذه الحقوق ووقع عليها القاضى والأمراء بحضور والى مصر . تعتبر أول وثيقة للحقوق فى مصر حتى الآن .

---

(١٥) سجل ٢ مادة ٤٧٢ ص ٣٠٠ الديـــوان العالى من ســـجلات الشهر العقارى بالقاهرة .

غير أن الجبرتى ذكر أن كل شىء عاد الى ما كان عليه وزيادة بعد صـــدور هذه الوثيقة ، ويجب الا يفســـد علينا تعليق الجبرتى نحن أبناء القرن العشرين مغزى هـــذه الحادثة ، فليس المهم أن الاتفاقية نقضت ، فتاريخ الأمم يكاد ينحصر فى اخلال الحكومات بالاتفاقيات أو الدســـاتير التى تجبر على اصدارها تحت الضـــغط ولكن المهم هو أن مجرد اقرار الاتفاقية ، وصدورها بأسماء العلماء (حسب مارسم ساداتنا العلمـــاء) والوصول اليها عبر ضغط الثوار وتحركهم وبعد مفاوضات كل ذلك يدل على أن الشيوخ والعامة لم يكونوا مجرد قوة رمزية ، بل كانوا يستطيعون دائما تحويل كل مظهر سخط الى اضراب عام يتطور الى مواجهة شاملة تطالب بأصلاحات أوسع من حدود المشكلة المباشرة التى أثارت الحادث وانهم كانوا يســـتطيعون مواجهة الأمراء وفرض مطالبهم واجبارهم على التراجع والتسليم ولو بنية الغدر .

وبذلك نرى أن علماء الأزهر لم يكونوا أبدا رجال كهنوت منعزلين عن مجرى الحياة العامة وانما شاركوا الشعب فى شـــعوره ودافعوا عنه فى مواجهة ظلم الحكام ،

على أبواب الثورة :

فى نهاية هذه الفترة قوى احساس العلمـــاء بما يجب عليهم نحو مواطنيهم وبما ينبغى عمله للاهالى وضرورة التحرر من ظلم الحكام ، ولهذا كثرت الثورات فى هـــذه الفترة الأخيرة التى سبقت مجىء الحملة الفرنسية ، حتى أن بعض الباحثين يغالون فيشبهون الوضـــع فى مصر فى هذه الفترة بالحالة التى كانت عليهـــا فرنسا قبل الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ فيقول هذا البعض : « ونحن اذا بحثنا حال فرنسا قبيل ثورتها لانستطيع أن نرى بوادر ثوران النفوس أكثر مما بدا فى أواخر القرن الثامن عشر فى مصر » ويضيف بان هـــذه الحركات كانت جديرة أن تنتهى اما بثورة عامة كثورة

فرنســا ، واما باصلاح تدريجى شــامل يتناول كل نظمها وان الــذى لم يوصلها الى هــذا الحد من الثورة أن حكام مصر كانوا دائما ينزلون عند ارادة الشعب بعد أن يروا غضبته ، ويصلحون ما يشكوا منه من فساد ، ويقومون ما يشير اليه من اعوجاج .

وكان هناك عامل آخر جعل هــذه البوادر الثورية لا تصل الى ثورة حاسمة لصالح الشــعب المصرى وهذا العامل كان خارجيا ، وأعنى بــه نكبة الحملة الفرنسية التى نزلت بالبلاد سنة ١٧٩٨(١٦) .

ويذهب البعض الآخر الى أن السبب الذى من أجله لم يتعد العلما والحركات الشعبية ضد المماليك بشــكل أكثر تكرارا مما فعلوا ، هو ذلك الاعتماد المتبادل بين المماليك والعلمــاء المــالى من ناحية والسياسى من ناحيه أخرى(١٧) .

نخلص من هــذا العرض الى القول : بأن قيادة الجماهير فى نهاية القرن الثامن عشر أضحت بيد نخبه من العلماء قاموا بدور كبير فى خدمة المجتمع المصرى ، جعلهم هذا الدور جهازا من أجهزة الحكم القائل مهمته الوقوف فى صف الجماهير كلما هددهم خطر الحكما .

ولقــد اعترف الميثاق الوطنى للعلماء بهــذا الدور الوطنى فى تاريخ الحركة الوطنية حين قال : « لم تكن الحملة الفرنسية على مصر مع مطلع القرن التاسع عشر هى التى صنعت اليقظة المصرية فى ذلك الوقت — كما يقول بعض المؤرخين — فان الحملة الفرنسية حين جاءت الى مصر وجدت

(١٦) محمد فريد أبو حديد — زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم — الهلال عدد ٧ القاهرة ١٩٥١ ص ص ٤٦ — ٤٧

(١٧) د. عفاف لطفى السيد — مرجع سبق ذكره ص ٧٣

الأزهر يموج بتيارات جـديدة تتعـدى جدرانـه الى الحيـاة فى مصر كلهـا »(١٨) .

مصر أبان الحملة الفرنسية ونضوج الوعى القومى :

هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر فى صـيف ١٧٩٨ فحطمت قوة المماليك العسكرية وهربت بقية المماليك وتركوا القاهرة عزلاء دون قوات تدافع عنها وانتهج بونابرت سياسـة اسلامية لخـداع الراى العام وذر الرماد فى عيون المصريين المسـلمين وتخدير العاطفة الدينية للاستيلاء على قلوب المصريين بعـد الاسـتيلاء على بلادهم فأغرق البـلاد بسـيل من منشوراته التى أدعى فيها أن الفرنسيين مسلمون مخلصون وأنهم يحترمون النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، كما يحترمون القرآن العظيم بيد أن العلماء لم تخدعهم حيل بونابرت فانتهج كبار علماء الأزهر سياسة حذرة قوامها المداراة للمحتل المـاكر حتى يهيئوا لأنفسهم فرصـة مناسـبة للانقضاض عليه فقبلت هيئة كبار العلماء عضوية الديوان الفرنسى وتزعم الشيوخ الصغار المعارضة ونظموا الكفاح وانضم شباب المجاورين الى صفوف المقاومة وانتقل الأزهريون من نصر الى نصر .

رفض الشيوخ الكبار بالديوان الفرنسى التبعية الفرنسية عنـدما رفضـوا أن يزينوا صدورهم بالشارة الفرنسية التى ترمز الى هذه التبعية كما رفضـوا الأفكار الفرنسية التى بشر بها الفرنسيون فى جلسات الديوان والتى تتعارض مع تعاليم الدين الاسلامى ، وبذلك تصدوا لأولى حملات الغزو الفكرى الأجنبى فى البلاد .

وانتقل العلماء الى مرحلة الرفض للوجود الفرنسى فقـادوا ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر سنة ١٧٩٨) التى تعد أول ثورة ضد الاستعمار

(١٨) الميثاق الوطنى — الباب الثالث — جذور النضال المصرى .

الأجنبى فى تاريخ مصر الحديث وتغلبت قوة الســـلاح الفرنسى فى هذه الثورة على شجاعة الثوار ودخل الفرنسيون الأزهر بخيولهم بعد اخمـــاد الثورة واهدروا كرامة الأمة ومقدساتها . وقدمت مصر ابان هـــذه الثورة عددا من زعمائها استشهدوا فى ساحة الشرف فكتبوا بدمائهم صفحة مشرفة فى تاريخ الكفاح المصرى ، وآلمت بونابرت المقاومة المصرية بزعامة العلماء وتحطمت آماله فى الشرق فاتخذ طريقه سربا عائدا الى بلاده . فى ٢٣ من أغسطس ١٧٩٩ م .

ومضت الحركة الوطنية لم تثقلها الجراح بل على العكس أنضجتها المعارك وصقلتها المقـــاومة فقامت بثورة القاهرة الثانية فى مارس ١٨٠٠ ، وحاول كليبر خليفة بونابرت ارهاب الزعامة الشـــعبية وتعقبها وارهاقها بكثرة الضرائب والغرامات غير أن هـــذه السياسة التى انتهجها كليبر لم ترهب الحركة الوطنية ، وقابلوا الارهاب بالارهاب .

فأعدت مجموعة ثورية من طلبة الأزهر خطة برواق الشوام لاغتيال كليبر ونجحوا فى تنفيذ هدفهم واستطاعوا بذلك أن يوجهوا الى المستعمر ضربة رائعة فى هدفها وأحكامها والتى تميزت بضخامة الهدف مع ضـــآلة الخسائر ، وكان المنفذ لذلك هو البطل سليمان الحلبى .

وكان من أهم النتائج المستفادة من دروس الحملة هو نضوج الوعى الوطنى فى الدفاع عن البلاد وازدياد قوة الحركة الوطنية ، كما برزت أهمية العـــامل الدينى فى الدفاع عن البلاد وفى تعبئة الشـــعب للمقاومة واعلان الجهاد الدينى وبذلك نرى أنه لم يحدث قط فى تاريخ الأمة الاسلامية منذ عصر الفتوح حتى حرب رمضان ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) أن انخذلت أمتنا فى معركة كانت العقيدة لواءها والايمان ذخيرتها وارادة الجهاد سلاحهـــا ، وهذا هو التفسير الصحيح لتاريخنا .

مصر ابان عصر الاضطراب السياسى (١٨٠١ — ١٨٠٥) :

عقب جلاء الفرنسيين رزحت البـــلاد تحت وطأة عهـــد من الفوضى السياسية امتد من ســـنة ١٨٠١ الى ١٨٠٥ وتعددت فيه مراكز القوى الأجنبية فى البلاد من الانجليز والأتراك والمماليك ، وكانت القوة المملوكية قد صفيت وكانت تصفيتها قد تمت بفعل قوة أجنبية وليس بفعل قوة وطنية ، ولقد ترك هذا الأمر فراغا سياسيا وعسكريا بعد خروج الحملة الأمر الذى فتح الباب أمام صراعات دامية لملء هـــذا الفراغ من قوى عديـــدة تصارعت عن الاستئثار بالسلطة فى البلاد طوال عصر الاضطراب السياسى ، ولم يلبث الانجليز أن رحلوا عن البلاد فى مارس ١٨٠٣ وتركز الصراع بين الأتراك وبقية المماليك .

فالأتراك عادوا الى البلاد والفكرة المسيطرة على أذهانهم هى أنهم نظروا الى مصر على أنهـــا فتح جديد وانعكست هذه الفكرة على معظم تصرفاتهم ، وكانت لديهم أوامر صريحة من الباب العالى بابعـــاد العلماء عن مسرح الحوادث وابعادهم عن دائرة الضوء ، وكان هـــذا جزءا من مخطط عثمانى كبير للقضـــاء على مراكز القوى فى البلاد أملا فى رجـــوع ســـلطة الدولة العثمانية الى هيبتها الأولى فقـــد كانت تريـــد أن يكون نفوذها عاليا ومن ثم عزلوا قاضى القضـــاة المصرى الشيخ أحمد العريشى الذى عينه الفرنســـيون وعينوا قاضيا تركيا مكانه كما عزلوا عمر مكرم من نقـــابة الأشراف وعينوا نقيبا تركيا أيضا مكانه . وطلب القـــاضى العثمانى الجدية من أرباب العقـــارات والأملاك أن يشتروها مرة ثانية من الدولة بحجة أن مصر قد ملكها الفرنسيون وبفتحها مرة ثانية صارت ملكا للســـلطان ولكن زعماء الشعب تصدوا له وناقشوه مناقشـــة علمية ، وطلبوا الى الصدر الأعظم عزله فنزل على رغبتهم وتم عزله .

وفى غضون ذلك بلغ التذمر الشعبى مداه بسبب خيبة الأمل التى منى بهـــا الشعب فقد كان ينتظر العدل والانصاف من العثمانيين المسلمين

بعد جلاء الفرنسيين أعداء الدين ، وأعلن العلماء زعماء الشعب رفضهم للظلم أيا كان مصدره ، سواء كان مصدره الفرنسيون أم كان مصدره العثمانيون حماة الدين كما يدعون .

ولقد كثرت الضرائب الجزافية فى فترة الاضطراب السياسى بكثرة المتصارعين على الحكم وحاول الزعماء ايقاف الفوضى الضرائبية فى البلاد ، وعندما أثقل المماليك كاهل الشعب بالضرائب فى مارس ١٨٠٤ تزعم العلماء حركة شعبية لطردهم من القاهرة . وخرج المماليك هذه المرة من القاهرة ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

بذلك اشتد ساعد الحركة الوطنية ونضجت الزعامة الشعبية فى الوقت الذى جاء فيه خورشيد الى الحكم يدفعه جشع غير محدود لجمع الأموال من الشعب ، فابتدع مختلف الوسائل لابتزازها من الأهالى فتصدى له العلماء وأوقفوا الاجراءات الضرائبية ، فاستجلب جنودا من الأكراك المتهورين لحكم القاهرة بالقوة ، فعبأ العلماء الشعب فى ثورة هادرة وحاصروه بالقلعة فى صفر ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) .

وبرز عمر مكرم كشخصية قوية وكزعيم لحركة العلماء وقادها فى يقظة واعية واليه يرجع الفضل فى نجاح الثورة على خورشيد باشا ، فقد استنفر الشعب لحمل السلاح ونظم حركة المقاومة الشعبية والحصار . وقدم العلماء مطالب الشعب الى خورشيد التى كان فى مقدمتها :

١ — اخلاء القاهرة من الجنود .

٢ — منع الارهاب العسكرى وعدم السماح لأى جندى بدخول القاهرة حاملا سلاحا معه .

٣ — عدم فرض ضريبة على الأهالى بدون موافقة زعماء الشعب .

رفض خورشيد المطالب الشـــعبية فتطورت حركة العلماء وتقدمت الى الأمام خطوة أكثر جراة حيث نادوا بخلع خورشيد من الولاية .

وفى غضون ذلك ظهر (محمد على) كقائد للفرقة الألبانية وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فعمل على استغلال هـــذا المناخ المشحون بعوامل السخط والغضب من الأتراك لصالحه فتمكن من السيطرة الأدبية على شخص عمر مكرم زعيم العلماء والشعب ، وتمكن من اقناع الزعماء بأنه يعطف على قضايا الشعب وقبل المطالب الشعبية التى رفضها خورشيد ، فاعتبره العلماء المنقذ الوحيد لحالة الفوضى التى تردت فيها البلاد فنادى به العلماء واليا على البلاد حيث قبل المطالب الشـــعبية . ومن ناحية أخرى كانت لديه قوة كافية لاقرار الأمن فى البلاد .

ولم يفكر العلماء فى تعيين مصرى واليا لأن السلطان لم يكن ليقر مثل هـــذا التعيين ، ولم تكن حركتهم موجهة الى الســـلطان وانما الى الوالى الظالم ، كما أنهم كانوا يعتبرون الســـلطان خليفة المسلمين ، وكان العلماء متشبعين بفكرة الوطن الاســـلامى الكبير أكثر من تشبعهم بفكرة الوطن القومى ، وكان مفهوم الوطنية ملحقا بمفهوم الدين وكانت العاطفة القومية ممتزجة متشابكة مع العاطفة الدينية بحيث كان يصعب الفصل بينهما(*) .

وكان تحالف محمد على مع الزعامة الشعبية تحالفا مصلحيا مؤقتا الى أن يتدعم حكمه ولم يظهر من جانبه فى العامين الأولين من حكمه مايجعل العلماء يشعرون أنه لايريد مشاورتهم بل على النقيض من ذلك فقد كان فى حاجة اليهم لمساعدته لســـد حاجته الملحة الى المـــال والاعتماد عليهم فى اقناع سلطات الآستانة بضرورة بقائه فى ولاية مصر ، ثم الاعتماد عليهم فى خداع المماليك وعدم السماح لهم بدخول القاهرة مرة أخرى .

(*)د. عبد العزيز الشناوى ، عمر مكرم بطل المقاومة الشـــعبية الكتاب رقم ٦٧ من سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ، ١٩٦٧ ص ٤٢ — ٤٣ .

وعندما تمكن محمد على من الحكم مضى غير هياب ولا وجل فى تصفية الزعامة الشــعبية فى سنة ١٨٠٩ واستغل الخلاف الذى وقع بين العلماء فتناوله وعمقه ونصر فريقا على آخر وأهمل مشورة عمر مكرم ، وبـــدأ فى تقليم أظافر العلماء فألغى امتيازاتهم من الأراضى المعفاة من الضرائب وغير ذلك من الاجراءات التى آلمت قطاعا كبيرا من الشــعب ، وعندما تطلع العلماء الى ايقاف هذه الاجراءات الجديدة وتصدى عمر مكرم له فلم يكن من محمد على الا أن عزل عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفاه الى دمياط .

كما أخذ محمد على يعمـــل فى القضـــاء على نفوذ الأسر المصريـــة القديمة ذات السيطرة العريضة على الجماهير فى مصر والتى كان لهـــا دور واضح فى مقاومة الحملة الفرنسية وابان عصر الاضطراب السياسى ، وخلق أشخاصا آخرين يدينون له بالولاء والطاعـــة فيكون هو بحق ولى نعمتهم كما أحب أن يلقبه بذلك المصريون .

فقضى على نفوذ أسر كثيرة بالقـــاهرة كأسرة (السادات الوفائية) بعـــد وفاة عميدها الشيخ محمد أبو الأنوار السادات ، حيث أنه لم يوافق على تعيين ابن أخيه مكانه فى نقابـــة الأشراف وعين بدله الشـــيخ محمد الدواخلى وختم على خزائن السادات وأراد الاستيلاء على تركته وأمواله لولا توسط بعض العلماء .

وقضى على البطل الشعبى حجاج الخضرى زعيم حى الرميلة بالقلعة الذى أبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن الشعب والوقوف بجانب الزعيم عمر مكرم أثناء ثورة الشـــعب على الوالى التركى خورشيد ، فأمر بشـــنقه بلا جريمة ولا ذنب فى رمضان ١٢٣٢ هـ وقال الجبرتى عنه « ولم يؤخذ فى هذه بجرم فعله يوجب شنقه بل قتل مظلوما لحقد سابق وزجرا لغيره » وذلك بعد أن ظل مضطهدا منذ أن تولى محمد على حكم البلاد .

كما قضى على نفوذ الأسر الكبيرة بالاقاليم أمثال اسرة همام الهوارى بالصعيد فقد شردهم ابنه ابراهيم باشا أثناء حملته المشئومة على الصعيد وصادر أملاكهم كما قضى أيضـــا على نفوذ أسرة الشواربى بالقليوبيـــة والمنوفية .

وقضى عى نفوذ زعماء الأحياء والحارات بالقاهرة وشيوخ الطوائف ومشايخ الطرق وحل محمد على كل هذه التجمعات الوطنية وأحل محلها قوة دولته ، وبذلك حرم نظام الحكم الجديد الأفراد من الحماية التى كانوا يستشعرون بها فى ظل مؤسساتهم وطوائفهم وسلب المصريين شيئا ثمينا جدا هو القدرة على التجمع فى ظل هـــذه المؤسسات والطوائف لمقاومـــة مظالم الحاكمين ، وبذلك اضحى المصريون أمام النظـــام الجديد آحادا يواجهون الدولة وجها لوجه ، بعـــد أن كانوا لايتصلون بالحكم الا عن طريق مؤسساتهم وطوائفهم .

وبعد أن قضى (محمد على) على معارضة زعماء الشعب على النحو السالف أضحت معارضتهم صـــامته ، وتزعم هـــذه المعارضـــة المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى الذى أخذ يوجه النقد اللاذع الى محمد على وحكومته ، وكانت هذه المعارضة لهـــا أثرها وخطورتها ، لأنها تتصـــل فى جوهرها بضرورة توفر العـــدل فى الحاكم لوجوب الطاعة له ، ومن الطبيعى أن هذا الكلام كان لا يروق للوالى ولا لأعوانه وخافوا عاقبة نشر مثل تلك المبادىء على الشعب ، فعزموا على الانتقام من الجبرتى وتربصوا بـــه وبأهل بيته ، وفى ســـنة ١٨٢٢ م روعوه بقتـــل ابنه الوحيد خليل فقد قتله جماعة من أعوان ســـليمان اغا السلحدار تشفيا من والده ، لأنـــه انتقد اعمال السلحدار البشـــعة فى الاستيلاء على أماكن الأوقاف وبيوت الأرامل واليتامى ، وتسببت هذه الحادثة البشعة فى تألم الجبرتى فانكمش على نفسه وغشيه الحزن حتى ابيضت عيناه من بكائه على وحيده وامتنع عن مواصلة تسجيل يومياته منذ ذلك الحين ، وظل منزويا فى داره الى أن

وافاه الأجل فى ١٨٢٥ م ، وأضرم أعوان محمد على النـــار فى منزله بعد وفاته لحرق مذكراته التى كان يحتفظ بهـــا . لكن الجبرتى كان قد تمكن من نشرها .

والذى يقرأ الجبرتى فى الســـنوات التى عاشها من حكم محمد على يدرك كيف كان المجتمع القـــاهرى أشد المجتمعات فى مصر تأثرا بهـــذا التحول الخطير الذى يراه بعض المؤرخين أنه كان أهم عامل فى تعطيل نمو الحياة الدســـتورية الحقيقية فى مصر فى أصولها الشعبية . وأصبح الفرد لاحول له ولا قوة ازاء سلطان الدولة الطاغى فلا يجد سبيلا ازاء الدولة الا أن يتهافت عليها أو يلوذ بأعتابهـــا أو يدور حولها يمكر بها ويسعى لاستغلالها ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وعلى هذا النحو جرت علاقـــة الدولة بالفرد فى مصر دهرا طويلا ولا زالت رواسبها باقية فى مجتمعنا حتى الوقت الحاضر .

وصفوه القولى أن الحركة الوطنية التى نشـــأت فى نهايـــة العصر العثمانى ونمت ابان الحملة الفرنسية ومطلع القرن التاسع عشر لم يكتب لها أن تصل الى غايتها ولو أتيح لهـــا أن تتطور تدريجيا لغيرت مجرى الأحداث فى مصر ، غير أن محمد على تمكن من احتوائها وجنى ثمارهـــا وحكم البلاد حكما فرديا ورثة لأبنائه من بعده فترة دامت نحو مائة وخمسين عامـــا .

مصر حتى عهد الاحتلال الانجليزى :

الواقع أن محمد على بعد أن سيطر على الحكم فى البلاد بدأ نهضـــة جديدة من التقـــدم والعمران وانشأ بذلك الدولة المصرية الحديثة وأرسل البعثات العلمية الى أوربا لنقل العلوم الحـــديثة التى تقدمت بها أوربا فى مجال الطب والهندسة والعلوم العســـكرية ، وعندما عاد هؤلاء أنشـــأ على يدهم كثيرا من المـــدارس العسكرية والمدنية وأنشـــأ كثيرا من النظم

الغربيـــة فى مصر تضاهى مثيلاتها فى أوربا وحقق لمصر استقلالا وطنيـــا سريعا وسارت الدولة بخطى سريعة نحو التقـــدم والحضارة غير أنـــه لم يحاول أن يشرك المصريين فى الاهتمام بتلك التغييرات الجديدة ، ومن ثم لم يتحمس لهـــا الشعب وبذلـــك نشأت نهضـــة منفصلة عن الروح الشـــعبية ، وسيطرت الروح العسكرية على الدولة ودفعته التطلعـــات التوســـعية الى كثير من الحروب الخارجية مثل الحروب الوهابية وحرب الشـــام واليونان والأناضول مما جر على مصر الخراب والدمار حتى قضى عليهـــا التحالف الدولى فى عام ١٨٤٠ وبعـــدها تردت البلاد فى عصر من التخلف ظل الى عصر اسماعيل وبـــدأ التدخل الأجنبى فى شـــئون مصر يستفحل يوما بعد يوم ، وذلك مما أثار الخواطر وأيقظ الحركة الوطنية من جـــديد .

مصر تنقـــل النظام النيابى الأوربى :

تأثر أعضاء البعثات العلميـــة الذين أرسلهم محمد على الى أوربـــا بحضارتها الشامخة ، وعاد هؤلاء الى مصر وقد نضجت أفكارهم فى عهد اسماعيل وقامت على أيديهم نهضة مصر الحديثة .

وكان من جملة ماتأثر به هؤلاء المبعوثون هو نظام الحكم النيـــابى وخاصـــة فى فرنسا ، وكان رفاعه الطهطاوى الأزهى النابة الذى رافق البعثة الأولى الى فرنســـا سنة ١٨٢٦ م كامام لهذه البعثة أول من كتب من المصريين فى المباحث الدستورية ، ذلك أنه درس أثناء اقامته بباريس نظـــام الحكم فى فرنسا ، وترجم الى العربيـــة فى كتابه (تخليص الابريز فى تلخيص باريز) دستور فرنسا فى ذلك الحين(١٩) وما تضمنه من حقوق الآمة أفرادا وجماعات .

---

(١٩) هو دستور سنة ١٨١٤ م الذى استمر حتى ســـنة ١٨٣٠ م والذى وضعه لويس الثامن عشر .

ولم يكتف رفاعة الطهطاوى بالتعريب وانما اخـذ يعلق على الدستور الفرنسى تعليقات تـدل على فهم صحيح لأحكام الدستورر ومبادئه ، فقال معلقا على نصوص هذا الدستور :

« ومن ذلك يتضـح لك أن ملك فرنسـا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنساوية هى قانون مقيد بحيث أن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمـل بما هو مذكور فى القوانين التى يرضى بهـا اهـل الدواوين (البرلـمـان) وأن ديوان البير (مجلس الشيوخ) يمانع عن الملك وديوان رسـل العمالات (مجلس النواب) يحامى عن الرعية ، والقانون الـذى يمشى عليه الفرنساوية الآن ويتخذونه أساسا لسياستهم هو القـانون الذى الفه لهم ملكهم المسمى لويس الثامن عشر ، ولازال متبعا عنـدهم ومرضيا لهم ، وفيه أمور لاينكر ذوو العقول أنها من باب العدل(٢٠) » .

وقال فى موضع آخر معلقا على مساواة الشـعب الفرنسى أمـام القـانون « قوله فى المـادة الأولى أن سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة معناه سائر من يوجـد فى بلاد فرنسـا من رفيع ووضـيع ، لايختلفون فى اجراء الأحكام المذكورة فى القانون ، حتى أن الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر الى هذه المـادة فان لها تسلط عظيم على اقامة العـدل واسـعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظرا الى اجراء الأحكام ، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنسـاوية وهى من الأدلة الواضحة على وصول العـدل عندهم الى درجة عالية وتقدمهم فى الآداب الحضرية ، وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف ، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو اقامة التسـاوى فى الأحكام والقوانين بحيث لايجور الحاكم على انسـان بـل القوانين هى المحكمة والمعتبرة »(٢١)

(٢٠) تخليص الابريز فى تلخيص باريز — رفاعة الطهطاوى ص ٦٦
(٢١) تخليص الابريز — رفاعة الطهطاوى ص ٧٢ ، ٧٣

ورفاعة الطهطاوى يشير هنا الى ما يعرف فى عصرنا بسيادة القانون .

وقال معلقا على المـادة الثانية الخاصـة بالمسـاواة فى الضرائب :

« وأما المـادة الثانية فانهـا محض سياسة ، ويمكن أن يقال أن الفرد (جمع فردة وهى الضرائب) ونحوها لوكانت مرتبة فى بلاد الاسلام كما هى فى تلك البلاد لطابت النفس خصوصا اذا كانت الزكوات والفىء والغنيمة لاتفى بحاجة بيت المـال ، أو كانت ممنوعة بالكلية ، وربما كان لهـا أصل فى الشريعة على بعض أقوال مذاهب الامام الأعظم (أبو حنيفة) ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء ، « الخراج عمود الملك » . وفى مدة اقامتى بباريس لم أسمع أحـدا يشكو من المكوس والفرد والجبايات أبدا ولا يتأثرون بحيث أنهـا تؤخذ بكيفية لاتضر المعطى »(٢٢) .

ويمضى الطهطاوى فى تعليقه على الدستور الفرنسى قائلا عن المـادة الثامنة الخاصـة بحرية الرأى والنشر : « وأما المـادة الثامنة فانهـا تقوى كل انسـان على أن يظهر رأيه وعمله ، وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره ، فيعلم الانسان سائر ما فى نفس صاحبه »(٢٣) .

وقال تعليقا على المـادة التاسعة الخاصة بحرمة الأملاك وصيانتها وعـدم اعتداء أحد على ملك آخر . « وأما المـادة التاسعة فانها عين العـدل والانصاف وهى واجبه لضبط جور الأقوياء على الضعفاء وتعقيبها بما فى المـادة العاشرة (التى تقول للدولة دون غيرها أن تكره انسـانا على شراء عقاره لسبب عام النفع بشرط أن تدفع ثمن المثل قبل الاستيلاء) من باب اللياقة الظاهرة »(٢٤) .

---

(٢٢) المصدر السابق نفس المكان .

(٢٣) المصدر السابق ص ٧٤

(٢٤) تخليص الابريز — رفاعة الطهطاوى — ص ٧٥

وقال عن المـــادة الخامسة عشرة التى تنص على أن السلطة يتولاها الملك ومجلسا النواب والشـــيوخ : « وفى المـــادة الخامسة عشرة نكتة لطيفة وهى أن تدبير أمر المعاملات لثلاثة مراتب المرتبة **الأولى :** الملك مع وزرائه ، **والثانية :** مرتبة البيرية (مجلس الشيوخ) الحاميـــة للملك ، **والثالثة :** مرتبة رســـل العمالات الذين هم وكلاء الرعية والمحامون عنهم حتى لاتظلم من أحـــد ، وحيثما كانت رســـل العمالات قائمة مقام الرعيـــة ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنهـــا حاكمة نفسها وعلى كل حال فهى مانعة للظلم عن نفســـها بنفسها أو هى آمنة منه بالكلية »(٢٥) ورفاعة الطهطاوى يوضح هنا للشعب المصرى مزايا الحكم النيـــابى الديمقراطى وأنه عبارة عن حكم الشعب لنفسه بنفسه .

هـــذه هى الأفكار التى نقلهـــا رفاعة الطهطاوى الى مصر ســـنة ١٨٣٠ عقب عودته من فرنسا وضمنهـــا كتابه النفيس (تخليص الابريز فى تلخيص باريز) الـــذى طبع طبعته الاولى فى مطبعة بولاق سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م)وكان طبعه للمرة الثانية سببا فى نفى رفاعة الطهطاوى الى السودان ســـنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٨ م) فى أوائل عهد عباس الأول ، لأن الكتاب يحوى آراء ومبادىء دستورية عادلة لايرغب فيها حاكم مســـتبد غشوم كعباس باشا .

وكان لهذه الثقافة أكبر الأثر فى توعيـــة الشـــعب المصرى بالأفكار الدستورية الحديثة ونظم الحكم العادلة التى ظلت تختمر فكرتها فى أذهان أمثـــال رفاعة الطهطاوى من أعضـــاء البعثات المصرية وغيرهم من الشعب ممن نقلت اليهم من باقى المصريين المثقفين الى أن آتت ثمارهـــا فى عصر اسماعيل عنـــدما أنشأ مجلس شـــورى النواب سنة ١٨٦٦ م .

---

(٢٥) المصدر السابق — نفس المكان .

وفى هـــذا الصدد يقول الدكتور سيد صبرى : « على أنه بالرغم من كل ذلك (مشيرا الى عيوب الحكم المطلق) ابتدأت تظهر — من أيام حكم محمد على باشا — نهضـــة علمية سريعة وظهر عـــدد كبير من الأدباء والشـــعراء والعلماء والمتأثرين فى كتابتهـــم وأفكارهم بالمدنيـــة الغربية الحديثة . . . ولو أن الحركة الفكرية كانت محدودة الأثر فى وقتها الا أن ثمرتها الأولى ما لبثت أن ظهرت ســـنة ١٨٦٦ ، حيث أنشـــأ الخديوى اسماعيل باشا مجلسا للنواب(٢٦) .

وكان من بين الذين أشرفوا وهيمنوا على وضع نظام مجلس شورى النواب أعضـــاء البعثة الخامســـة وكان منهم الخديوى اسماعيل وشريف باشا الوزير المشـــهور وعلى باشا مبارك ، وهى البعثة التى ذهبت الى فرنسا ســـنة ١٨٤٤ م وعادت فى سنة ١٨٥٠م(٢٧) أى أنها شهدت ثورة فرنسا سنة ١٨٤٨ م وقيام الجمهورية الثانية برياسة (لويس نابليون)(٢٨)، ولهذا مغزاه بطبيعة الحـــال فقد تأثرت مصر عند انشـــاء مجلس شورى النواب ســـنة ١٨٦٦ بنظام مجلس النواب الفرنسى فى عهد الجمهوريـــة الثانية ســـنة ١٨٤٨ وذلك **من ناحية** أن الســـلطة التشريعية فى فرنســـا يومئذ مكونة من مجلس نيابى واحـــد ،**ومن نحاية** مدة المجلس أيضا فقد كانت لمدة ثلاث ســـنوات ، وقد أخذ مجلس شورى النواب عند انشائه بهتين القاعدتين(٢٩) .

---

(٢٦) مبادىء القانون الدستورى — د. السيد صبرى — ص ٢٦٩

(٢٧) عصر اسماعيل — عبد الرحمن الرافعى — ص ٢٠٨

(٢٨) تسمى بنابليون الثالث فى عهد الامبراطورية الثانية .

(٢٩) يلاحظ أنه عندما قام نابليون الثالث بانقلاب ديســـمبر ١٨٥١ جعل البرلمـــان مكونا من مجلسين هما مجلس الشـــيوخ ومجلس النواب (المجلس التشريعى) — (مذكرة فى تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر — لأستاذنا الدكتور عبد العزيز الشناوى) ص ١٣٨

وعندما تولى اسـماعيل ولاية مصر سـنة ١٨٦٣ الحق زملاءه فى الدراسة بمعيته وعينهم فى المناصب العاليـة والنظارات المختلفة فشريف باشا كان وزيرا للداخلية حينما أسس اسماعيل مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ م وصحبه فى حفلة افتتاح المجلس واذا علمنا أن وزير الداخلية فى ذلك الحين كان بمثابة أكبر وزير فى الدولة ، كان لنا أن نستنتج أن على يده تأسس ذلك المجلس(٣٠) .

والواقع أن شريف باشا كان له أكبر الأثر فى تأسيس النظام الدستورى فى مصر ففى عهد وزارته للداخلية سـنة ١٨٦٦ م أنشىء مجلس شورى النواب ، وفى عهد رئاسته للوزارة سنة ١٨٧٩ م كملت سلطة المجلس بتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب ، وفى وزارته الثالثة سنة ١٨٨١ م أعاد تنظيم مجلس شورى النواب فى عهد الخديوى توفيق على غرار المجالس النيابيـة الحديثـة بما سمى بمجلس النواب المصرى ، وبهذا يعد شريف باشا بحق مؤسس النظام الدستورى فى مصر .

عوامل انشاء مجلس شورى النواب :

كانت عوامل الاتصال الثقافى بالغرب التى أشرنا اليها آنفا من جملة العوامل الرئيسية والأسـباب الحقيقة فى ونشاء مجلس شورى النواب ، فقـد جرت مصر فى عهد الخديوى اسماعيل على نقل النظم الغربية الى مصر ونضجت الأفكار وتطلعت فى عصره الى تقليد أوربا فى كل جـديد ، فكان انشاؤه فى الواقع استجابة لتطلعات المثقفين فى مصر واستجابة لروح العصر أيضـا ، على أنه حين أنشـأ مجلس شورى النواب لم يعتزم التخلى عن سلطته المطلقة .

بل أراد أن يجعل منه هيئة استشارية تزيد من رونق الحكم وبهائه ، اتساقا مع تطلعاته الاستقلالية التى كان يسعى من أجلها لدى البـاب العـالى .

---

(٣٠) عصر اسماعيل — عبد الرحمن الرافعى — ص ١١٢

غير أن تأسيس هـذا النظام لم تسبقة مطالبة صريحه من الأمـة المصرية ، الأمر الذى جعله يأخذ شـكل المنحة ، ومن هنا نشأت سلطته ضئيلة ، ونفوذه يكاد يكون شكليا(٣١) .

ويرجع (الدكتور عبد العزيز رفاعى) سبب انشاء مجلس شورى النواب الى اشتداد الأزمة المـالية سنة ١٨٦٦ م وحاجة الخديوى اسماعيل الى هيئة ادارية من ملاك الأراضى الزراعية يصـل عن طريقها الى فرض ما يريد من ضرائب . فيقول :

« كان لابـد من علاج الموقف علاجا أساسيا بايجاد الوسيلة لذلك لرد صـدع الميزانية وتدبير الموارد ... ولمـا أحس (الخديوى) بازدياد وطأة الأزمة المـالية ، أخذ يرنو للملكية الزراعية كسـند يقف بجانبه . وقد رأى اذ ذاك أنه قـد حانت الفرصة للعمل على معالجة هذه الأزمة بمجلس يمثل الملاك »(٣٢) أى أن الخديوى اسماعيل رأى أن ينمى موارده المـالية على حسـاب الملكية الزراعية بانشـاء مجلس شبه نيابى من العمد والمشايخ هو أقرب الى الجهـاز الادارى منه الى النظام النيـابى يستطيع بواسطته أن يفرض ماشاء من الضرائب لحل الأزمة المـالية .

ويشرح الدكتور عبد العزيز رفاعى قصده هذا فى مكان آخر بأوضح من ذلك فيقول : « ولمـا كانت الادارة المصرية الداخلية قائمة على أن الحكومة لاتتصـل بالفرد مباشرة ، ولكنها تبسط نفوذها عليه عن طريق العمدة فالشـيخ ولمـا كان هؤلاء يمثلون فى ذاتهم الادارة الحية للجماعة الريفية التى تهيمن على جوانب الريف ، فقد رأى الخديوى دعما لجهازة

---

(٣١) عصر اسماعيل — عبد الرحمن الرافعى — ج ٢ ص ٨١

(٣٢) فجر الحياة النيابية فى مصر الحديثة — د. عبد العزيز رفاعى — ص ١٥

الادارى وتقويته ، وتطعيمه بنخبة قوية من هـــذه العناصر ليتمكن بهم من حمل رغباته الى ســـائر أفراد الشعب والتعرف على جوانبه والاتصال بهم اتصالا مباشرا ليتمكن من الاضطلاع بأهدافه الجديدة بفضـــل مكانتهم وخبراتهم دعما لجهازه الادارى »(٣٣) .

ثم ينتهى من ذلك الدكتور رفاعى بأن هـــذا كان هـــدف الخديوى الرئيسى الذى يتلخص فى ايجاد الوسيلة الادارية التى يستطيع بها الوصول الى فرض ما يريد من ضرائب استكمالا للنظام الادارى الموجود ودعما له على أن تأخذ شكل النظام النيابى من ناحية المظهر فقط .

على أننا وان كنا نوافق على أن ما ذهب اليه الدكتور رفاعى يمكن أن يعد من جملة الأهـــداف التى قصدها الخديوى عندما انشـــأ مجلس شورى النواب الا أننا لانوافق على جعله الهدف الرئيسى .

وذلك لأن الخديوى لم يكن بحاجة الى هـــذا الجهاز ليستشيره فى فرض ضرائب جديدة وهو(٣٤) الحاكم المطلق فى كل شىء ولا رقيب عليه ، ولم يكن فى وســـع الأهالى أن يعترضوا على أى ضريبة ، وقـــد كان له من المديرين وأتباعهم من رؤساء المدن والقرى مايكفيه مؤنة ذلك الجهاز الجـــديد .

ومن ناحية أخرى فان الأزمة المـــالية لم تكن اشتدت فى هذه السنة (١٨٦٦) وكان الخديوى مطلق الحرية فى أن يفترض ما يشـــاء ولم يمنع من القروض الخارجية الا فى ســـنة ١٨٦٨ عندما عقد قرضا فى هذه السنة بمبلغ ١١٫٨٩٠٫٠٠٠ جنيه من شروطه أن يكف عن الاستدانة مدة خمس

---

(٣٣) المرجع السابق ص ٢٠

(٣٤) كانت يد اسماعيل فى ذلك الوقت مطلقة فى الداخل والخـــارج سنة ١٨٦٦ م

ســنوات ، وعندما أصــدر الباب العالى فرمان نوفمبر سنة ١٨٦٩ م الذى نص على أنه لايجوز له أن يقترض قروضا جديدة دون أن يبين وجه الحاجة اليها ويحصل على اذن من السلطان بعقدها(٣٥) .

وعندما اشتدت الأزمة فى عامى : ١٨٧٤ ، ١٨٧٥ م وتدخلت الدول الأوربية نراه يوقف الحياة النيابية فى هذين العــامين بدون سبب ظاهر سوى الارتباك المــالى ، فكيف يمكن أن يقــال اذن بأن مجلس شــورى النواب كان الهدف الرئيسى من انشائه هو معاونة الخديوى علــى فرض الضرائب لحل الأزمة المــالية ، بل لمــاذا لم يستعن به الخديوى فى هذين العامين وهو فى اشــد فترات الضيق على أن هذا الارتباك كان أدعى الى عقد المجلس للتشاور مع النواب فى الوسائل الكفيلة بانقاذ البلاد من هذا الارتباك .

وبذلك نرى أن الأزمة المــالية لم تكن الهدف الرئيسى لانشاء مجلس شــورى النواب كما ذهب الدكتور عبد العزيز رفاعى ، بــل يمكن أن نعتبرها من جملة الأسباب المباشرة التى صاحبت نشــأة مجلس شورى النواب .

وانما كان هدف الخديوى الرئيسى كما قلنا سابقا يتلخص فى استكمال مظهر الأبهمة فى الحكم تشبها بالدول الأوربية ومحاكاتها فى كل مظاهرها الحديثة ، وهــذا الأمر كان يتفق مع تطلعات الخديوى الاستقلالية التى كان يسعى اليها لدى الباب العالى . فقد استصدر فرمانا من الباب العالى فى ٢٧ مايو ســنة ١٨٦٦ م يقضى بأن يؤول عرش مصر الى أكبر أولاده ســنا ، وفى ســنة ١٨٦٧ حصل على فرمان جديد يخوله وخلفاءه من بعده لقب (خديوى) بعد أن كان (واليا) فارتقى اسماعيل بهذا اللقب

---

(٣٥) عصر اسماعيل — عبد الرحمن الرافعى — ج ١ ص ٧٩

الســـامى الى مرتبة تقرب من مراتب الملوك والســـلاطين كما أقر هذا الفرمان الأخير حق الحكومة واستقلالها فى ادارة شئونها الداخلية والمـــالية وغير ذلك من الحقوق الاستقلالية كما أن انشاء مجلس شورى النواب كان يتفق من ناحية أخرى مع تطلعات الطبقة المثقفة ، غير أن طريقة الانتخاب جاءت مخيبة لآمال هؤلاء المثقفين فقد عمل نظام الانتخاب على ابعادهم .

ويلاحظ على الرغم من ضعف سلطة مجلس شورى النواب ، أن مصر كانت أول بلد فى العالم الاســـلامى ينقل هذا النظـــام ، والواقع أن النظام النيابى الأوربى ما هو الا نظام الشورى الاسلامية أحسنت صياغته وتقنينه فى أوربا وقد سبقت مصر بذلك الدولة العثمانية التى كانت تابعـــة لها من ناحية القانون الدولى ، فالدولة العثمانية لم تخط الى النظام النيابى الا فى ســـنة ١٨٧٦ م ومع ذلك عطله السلطان عبد الحميد الثانى .

نمو الوعى السياسى فى بداية السبعينيات من القرن ١٩ :

بدأ الوعى السياسى فى مصر ينمو بسرعـــة فى أوائل السبعينيات ، وكانت هناك عوامل ســـاعدت على هذا النمو السريع ، كان فى مقدمتهـــا بطبيعة الحال تلك الكوارث والنكبات التى حلت بمصر بســـبب سياســـة الحكومة المـــالية ، وتدخل الأجانب فى شئون البلاد ، كل ذلك جعل الناس يتبرمون بهـــذه الحالة السيئة ، ويبحثون عن الوسائل المؤدية للخلاص منها ومن هنا نشأت نهضة عامة فى أفكار الخاصة ، قوامها التطلع الى اصلاح الحال ، وانقاذ البلاد من الكوارث التى نزلت بهـــا ، منذ أن تحولت مصر الى معبر عالمى بعد افتتاح قنـــاة السويس ١٨٦٩ م وزادت مطامع الدول الكبرى فيها وخاصة انجلترا وفرنسا .

واضحت مصر مركزا لصراع دولى بين كل الأطراف التى تريد أن تسيطر على العـــالم بشكل أقوى من قبل افتتاح القناة « ولاشك أن القناة

التى اختزلت كل موقع مصر الجغرافى والاستراتيجى أو جوهره فى شريط مائى .... كان لامفر من أن تجعل مصر بوابة دموية استراتيجيا كما قد أصبحت بوابة ذهبية تجاريا ، فبالقناة لم يعد موقع مصر أخطر موقع استراتيجى فى العالم العربى وحده ، وانما فى العالم القديم برمته على أرجح الظنون(٣٦) » .

ولقد كان لمجىء السيد جمال الدين الافغانى الى مصر سنة ١٨٧١ أكبر الأثر فى تنمية الوعى السياسى ونهضة الافكار ، لميله الشديد الى الحرية ورغبته فى الاخذ بيد المصريين ، فقد وصل الحكيم الأفغانى وقد حل الظلم بالناس ولارقيب على أعمال الحكومة ، وعاصر فى مصر المدة التى كانت حالة البلاد المالية فيها تتطور من سىء الى اسوء ، وكان من طابعه الانغماس فى السياسة ، فكانت هذه الأحداث المصرية حافزا له على الدخول فى غمارها فأخذ يلقى على تلاميذه من مجاورى الأزهر وغيرهم أمثال : الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ومحمود سامى البارودى وعبد السلام المويلحى عضو مجلس النواب واخيه ابراهيم المويلحى الكاتب الصحفى وابراهيم اللقانى وعلى مظهر وسليم نقاش واديب اسحاق وغيرهم دروسا فى الحرية والوطنية .

فعلم الأدباء ورجال الصحافة منهم أن الادب يجب أن يكون فى خدمة الشعب يطالب بحقوقه ويدفع الظلم عنه ويهاجم من أعتدى عليه كائنا من كان ويبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم ويبصرهم بمن كان سببا فقرهم ويحرضهم على أن يخرجوا من الظلمات الى النور ، والا يخشوا بأس الحاكم فليست قوته الا بهم وأن يكافحوا فى طلب حقوقهم المغصوبه

---

(٣٦) جمال حمدان ، شخصية مصر ، ص ١٨١.

وسعادتهم المسلوبة . وبذلك خلق فى هؤلاء الأدباء روحا جديدة تنظر الى الشعب أكثر مما تنظر الى الحاكم .

وأخذ الحكيم الأفغانى يحضهم على أن ينشدوا الحرية ، ويخلعوا العبودية ، ويبينوا حقوق الناس وواجبات الحاكم ، ومن أقواله فى تلاميذه :

« لا تحيا مصر ولايحيا الشرق بدوله وإماراته الا اذا أتاح الله لكل منهم رجلا قويا عادلا ، يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان ؛ ولا عـــدل الا مع القوة المقيدة ، وحكم مصر بأهلها انما أعنى به الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح » .

وكان الأفغـــانى متطرفا فى حريـــة الأفكار الى درجة متناهية فكان يحض المصريين بلهجة شديدة على المطالبة بحقوقهم والتنصل من ربقـــة الظلم ، فقد وقف يوما سنة ١٨٧٩ م فى ساحة محمد على المعروفة بالمنشية الكبرى فى الاسكندرية وخاطب الفلاح المصرى على مسمع من محافظ المدينة وقواد الجيش والعلماء والأعيان قائلا : انت أيهـــا الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منهـــا ماتسد بـــه الرمق وتقوم بأود العيـــال فلماذا لاتشق قلب ظالمك ؟ لماذا لاتشق قلوب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ »(*) وكان السامعون ينظر بعضهم الى بعض فى دهشة ، لأنهم لم يســـمعوا فى حياتهم مثل هذا الكلام .

ومن هذا المعين الحر الصـــافى شربت النهضة الوطنية والسياسية ؛ ووجدت مبادىء حكيم الشرق وتعاليمـــه ســـبيلا الى النفوس فكانت من العوامل الهامة فى ظهور هذه النهضـــة التى شغلت السنوات الأخيرة من عهد الخديوى اسماعيل ، وظهرت روح المعارضة واليقظة فى (مجلس شورى النواب) على يد نواب نفخ فيهم الأفغانى من روحه وعلى رأسهم

(*) فيليب طرازى ، تاريخ الصحافة العربية ، ج ٢ ص ٢٩٥

(عبد السلام المويلحى) زعيم المعارضة بالمجلس فى عهد الهيئة النيابية الأخيرة (١٨٧٦ — ١٨٧٩) فقد كان من تلاميذ جمال الدين الأفغانى الأفذاذ ، وكانت هذه الروح من آثار ارشاد الحكيم الأفغانى .

وقد كون جمال الدين حولة جماعة من الشبان والشيوخ وحبب اليهم الكتابة ورسم لهم خطتها ، وشجعهم على انشاء الجرائد ليكتب فيها هو ومدرسته « فقد شجع تلميذه (أديب أسحق) على أن ينشىء جريدة (مصر) وكان جمال الدين يكتب فيها بعض المقالات مرة باسمه ومرة تحت اسم مستعار هو (مظهر بن وضاح) .

وأنشأ أديب اسحق ايضا جريدة (التجارة) بالاسكندرية وسياسة الصحيفتين وطنية حماسية تجلت فيها تعاليم الأفغانى وكان بعض تلاميذ جمال الدين يكتبون فى هاتين الصحيفتين أمثال : محمد عبده ، وسعد زغلول وغيرهما ، وفتح اديب اسحق صدر جريدتيه لزملائه من تلاميذ الحكيم الأفغانى ، فكتب سعد زغلول وكان وقتئذ شابا فى جريدة (مصر) مقالا بعنوان « علة الحرية ومعناها » شرح فيه معنى الحرية لمن حرموا هذه الحرية أزمانا طويلة فيقول « الحرية هى رفع نير العبودية وفك رقبة الذل عن أعناق من أبصارهم شاخصة نحو سماء العدل منتظرين بزوغ شموس الفلاح ... ثم يقول ولا تشرق أنوار الوجود على هاته الحقيقة الا بأن تكون الأمة تحت قانون عدل نافذ يتساوى فيه الحقير والعظيم والكبير والصغير والغنى والفقير بين يدى أشخاص عقلاء محبين للعدل والانصاف كارهين للجور والاعتساف ، وهنا نرى نزعة السيد جمال الدين الأفغانى ظاهرة فى كتابة سعد زغلول .

وبذلك ظهرت آثار جمال الدين الأفغانى وأثار مريديه فى جرائد

(مصر والتجارة والوطن والأهرام ومرآة الشرق) وغيرها مما كان له أكبر الأثر فى نمو الوعى السياسى وتطور الأفكار فى مجلس شورى النواب وفى مصر بصفة عامة .

الأزمة المـــالية والتدخل الأجنبى :

تتابعت احداث الأزمة المـــالية فى مصر منذ ان تولى اسماعيل حكم البلاد ورغب فى احداث كثير من التغييرات واعتمد فى ذلك على الأوربيين واخـــذ يعقد السلف والقروض من الأجانب التى اربكت ميزانية مصر ، وفى ســـنة ١٨٧٥ باعت الحكومة أسهم مصر فى قنـــاة السويس الى الحكومة الانجليزية بثمن بخس هو اربعـــة ملايين جنيه ، وتوقفت الحكومة عن دفع اقســـاط الديون فى أبريل ســـنة ١٨٧٦ فتحرك الأجانب بضراوة خوفا على أموالهم وانشـــأوا ما يسمى بصندوق الدين وكان هـــذا هو أول تدخل فعلى فى شـــئون مصر لفرض الوصـــاية عليها ثم انشأ اسماعيل مجلسا أعلى للمالية نصفه من الأجانب ، واخيرا فرضـــت الرقابة الثنائية علـــى مالية البلاد للتدخل الفعلى فى شـــئونها والاشراف على مواردها ، فتولى الرقابة المـــالية المصرية مراقبان احـــدهما انجليزى لمراقبة الايرادات العامة والآخر فرنسى لمراقبة المصروفات ، وانشئت لجنة مختلطة لادارة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية .

كل ذلك جعل النـــاس يتبرمون بهـــذه الحالة السيئة وتردد صدى ذلك فى مجلس شورى النواب وفى الجيش وفى عام ١٨٧٩ اخذت الأمور فى البلاد تنتقل من سىء الى أسوأ مما زاد الحركة الوطنية حماسا .

ثورة الضباط فى ١٨ فبراير ١٩٧٩ واسقاط الوزارة الأوربية :

تولى نوبار باشـــا رئاسة الوزارة فى اغسطس سنة ١٨٧٨ وسعى لتوطيد دعائم الانجليز فى مصر وكان ذا نزعة اوربية بحتة اضرت بمصلحة

البلاد وبمساعدتهم تولى الوزارة ومن ثم أطلق المصريون على وزارتـــه الوزارة الأوربية وصـــدق عليها هذا الاسم لميول نوبار الأوربية ولوجود وزيرين أوربيين بهـــا . وزاد استياء الشعب من هـــذه السياسة واتسعت حركة المعارضة ضد وزارة نوبار ، فقـــد غضب عليها الأهالى لارهاقهم بجباية الضرائب وجاءوا الى القـــاهرة يبثون شكواهم ، وغضب عليهـــم مجلس شورى النواب ، وقد تبرم الموظفون الوطنيون عامة بهـــا لأنها أنقصت من مرتبات بعضهم وعزلت البعض الآخر ، فى وقت كانت تكيل المـــال للموظفين الأجانب وتؤدى لهم الرواتب الضخمة ، ومجمل القول أن الرأى العام المصرى كله كان يبغى اسقاط هذه الوزارة .

وعندما قررت الوزارة فى أول فبراير ١٨٧٩ تسريح ٢٥٠٠ ضابط من الجيش من اجل توفير المـــال بحجة أن الحكومة عاجزة عن الانفاق عليهم ، وكانت لهم رواتب متأخرة فكان هـــذا العمل سببا فى اشعال ثورة الضباط وقاموا بمظاهرة كبيرة على ابواب وزارة المـــالية فى فبراير ١٧٨٩ م وتبعهم حشـــد كبير من الأهالى كما اشترك معهم بعض اعضـــاء مجلس شورى النواب وتسببت هذه المظاهرة فى اسقاط وزارة نوبار .

وعلى الرغم مما يقـــال من أن هذه المظاهرة كانت بايعاز من الخديوى اسماعيل لأن وزارة نوبار ســـلبته وجردته من نفوذه الا أن ضباط الجيش أدركوا مدى قوتهم وربما تفرخت الثورة العرابيـــة كلهـــا من بيضة تلك الثورة .

وعندما ناصر الخديوى اسماعيل الحركة الوطنية الناشئة ووســـع من نفوذ مجلس شورى النواب ، قررت انجلترا وفرنســـا انه لم يعـــد الورقة الرابحة لهما فى البلاد وتآمرت الدولتان عليه لدى الباب العـــالى وتم خلعه من العرش وتنصيب ابنه توفيق خديويا لمصر فى ٢٦ يونيه ١٨٧٩

وكان توفيق مستسلما لمطامع انجلترا وفرنســـا ولاسيما وانه أتى الى الحكم بارادتهما وكان خلع والده بهـــذه الارادة أيضا ، فكان يدرك تمام الادراك هـــذه القوى التى أصبحت لهما فى مصر ، فساير الأجانب فى القضاء على النهضة الفتيه التى نشـــأت فى ظل مجلس شورى النواب ، كما كان يرغب فى جمع السـلطة فى يده والعودة الى نظام الحكم المطلق ، ومن ثم كان أول عمل لجأ اليه توفيق أنه فض مجلس شـــورى النواب فى يوليو ١٨٧٩ ، وتعطلت الحياة النيابية فى أوائل حكمه نحو عامين وبـــدات فى غضـــون ذلك نهضة وطنية تزعم الجيش فيها طليعة النضال الوطنى وهو ما يعرف بالثورة العرابية .

الثورة العرابية :

تمكن توفيق من فض مجلس شورى النواب فى بداية حكمه . الا أنه وجد نفسه أمام تيار وطنى قوى ووعى سياسى جارف اخذ يزداد بسرعة ، وكان ذلك نتيجة للحركة الوطنية النشـــطة التى نشأت فى نهايـــة حكم الخديوى اسماعيل ، وحاول توفيق ايضـــا ان يشل الحركة الوطنية فقام بنفى السيد جمال الدين الأفغانى من مصر الى الهند وحاول تشويه سمعته بنشر بلاغ رسمى ينسب اليه الســـعى فى الأرض بالفساد ، « وأنه رئيس جمعية سريـــة من الشـــبان ذوى الطيش مجتمعة على فســـاد الـــدين والدنيـــا(٣٧) » .

ولم يكن نفى الأفغانى من مصر ليقضى على الحركة الوطنية بهـــا ، فقـــد بدات الحركة تقوى وظهر صـــداها فى الجيش المصرى ، وظهرت الثورة العرابية على يد احمد عرابى وصحبه فى أوائل ســـنة ١٨٨١ ،

(٣٧) نص هذا البلاغ منشور فى جريدة الوقائع المصرية — عدد ٣١ أغسطس ١٨٧٩ وفى الأهرام عدد ٣١ أغسطس ١٨٧٩.

وكانت فى مبدئها ترمى الى أنصـــاف الضباط المصريين . وأعطائهم حقوقهم المشروعه فى المناصب العسكرية . ووضـــع حد للاضطهاد الذى كانوا يعانونه من الرؤساء الترك والشراكسة فى الجيش ، ثم تطورت الحركة العرابية الى حركة عامة اشتركت فيهـــا جميع الطبقات المصرية للتخلص من حكم توفيق الاستبدادى وتقرير مبـــادىء العدل والحريـــة والمطالبة بالدستور فقـــد أدى اهمال الجيش فى أواخر عهد اسماعيل وعدم المساواة فى المعاملة بين افراده الأجانب وأفراده المصريين ، فكان الأجانب يعاملون معاملة كريمة ، ويرقون الى أعلى المناصب وتعطى لهم الامتيازات المتعددة بينهما حرم المصريون من ذلك كله ونظر اليهم على أنهم طبقة أقل من الترك والشراكسة ، أدى هـــذا الوضع بطبيعة الحال الى تذمر الضباط المصريين وكان ذلك بمثابة الشرارة التى انطلقت منهـــا الثورة العرابية وكانت هذه هى أسباب الثورة العرابية الخاصة أو المباشرة ، وهى التى ترجع الى تذمر الضباط المصريين من سوء معاملتهم وخاصة على يد عثمان بشـــا رفقى وزير الحربية فى عهد وزارة رياض باشا (سبتمبر ١٨٧٩ — سبتمبر ١٨٨١) وكان شركسيا متعصبا لجنسه .

وبالاضافة الى هذه الأسباب المباشرة توجد أسباب أصليه تتلخص فى تذمر المصريين من ســـوء الحالة التى وصلت اليها البلاد فى أوائل حكم توفيق ، ورغبتهم فى التخلص من نظام الحكم المطلق ، وقد أدرك المثقفون من الأمة أن هـــذا انما يكون بقيام الدستور وانشـــاء مجلس نيابى يحقق الرقابة على الحاكم المســـتبد ويحول دون ارتكاب المظالم ! ومن هنا اتحدت الطبقة المثقفة من المصريين مع الضباط الوطنيين وانشأوا جمعية وطنية عرفت بالحزب الوطنى فى نوفمبر ١٨٧٩ وكان فى مقدمة اعضائها أحمـــد عرابى وصاحباه عبد العـــال حلمى وعلى فهمى ، ومحمود سامى البارودى وغيرهم . وجعلوا مركزه مدينة حلوان .

وقـــد بدأت الثورة فى دورها الأول عنـــدما اعتقلت الحكومة (فى فبراير ١٨٨١ فى عهد وزارة رياض باشا) احمد عرابى وصاحبه على فهمى وعبد العـــال حلمى وأحالتهم الى مجلس عسكرى لمحاكمتهم بتهمة التمرد والعصـــيان « فثار زملاؤهم الضباط وقادوا الجند الى قصر النيل حيث كان الزملاء معتقلين ، واقتحموا القصر عنوة وأطلقوا سراحهم وطلب الثوار اقالة عثمان رفقى ونزل توفيق عنـــد طلبهم فأقال رفقى وزير الحربية وعين مكانه محمود البارودى الذى كان موضع ثقة العرابيين ، واشتد ســـاعد العرابيين وتطورت حركتهم وزادت شهرة عرابى حتى اصبح زعيما قوميا اتجهت اليه الأفكار لتحقيق أمانى الشعب .

واعتزم العرابيون على احداث انقلاب فى نظام الحكم والمطالبة بالحكم الشورى الصحيح ، فحشدوا قوات الجيش المرابطة بالقاهرة فى ميدان عابدين فى ٩ من سبتمبر ١٨٨١ وقدموا مطالب الأمة للخديوى وكانت تتلخص فى اسقاط وزارة رياض باشـــا وتأليف مجلس النواب وزيادة عدد الجيش فأذعن الخديوى لمطالب الجيش فاســـتقال رياض وتولى الوزارة شريف باشا وهى الوزارة المعروفـــة بوزارة الأمـــة ، فأعاد مجلس النواب فى ديسمبر ١٨٨١ وعرض على المجلس دستور سنة ١٨٧٩ ليقره ولذلك يكون قد أعطى للمجلس سلطته الدستورية والتشريعية .

غير أن الحقد الأوروبى تحرك من جديد فلم تكن انجلترا وفرنســـا تنظران بعين الرضا الى قيام النظام الدســـتورى فى مصر ، فأرسلتا مذكرة مشتركة فى ٧ من يناير ١٨٨٢ الى الحكومة المصرية تعترضان فيها علـــى تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية بحجة أن تقريرها يضر بحقوق الدائنين او ينال منهـــا وهى حجة واهية ظاهرة البطلان لأن الدســـتور تضـــمن أن المجلس ســـيراعى العهود والاتفاقيات المـــالية المعقودة مـــع

الأجانب ، ورأى شريف باشا ازاء ذلك تأجيل البت فى المـادة المتعلقة باقرار الميزانية ، ريثما ينجلى الموقف بعـد مفاوضة الدولتين فى مطلبهما ، غير أن العرابيين تشبثوا برأيهم فى وجوب اقرار الميزانيـة واسـتقال شريف باشا .

عهد توفيق فى فبراير ١٨٨٢ الى محمود سامى البارودى تأليف الوزارة وتولى عرابى وزارة الحربية وهى الوزارة المعروفة بوزارة الثورة وبهـا بدأت المرحلة الثانية للثورة العرابية ، وفى هـذه الفترة بدأت السياسـة الانجليزية توقع بين العرابيين والخديوى وتعمق الخلاف بينهما لكى تفتح ثغرة لتدخلها فى البلاد وتقف أمام تيار الثورة فى البلاد وتحد من الوعى السـياسى والوطنى الـذى تطور تطورا سريعا وخطيرا ، ووافق موقف الدولتين ميول توفيق الذى لم يكن راضيا عن مطالب العرابيين التى كانت تهدد سـلطته وتتحدى قوته وتنتقص من حقوقه ، فانعدمت الثقة بينه وبين العرابيين وظنوا بـه الظنون وتربصوا بـه ، وعزم رجال الثورة علـى عزل الخديوى ، فأعلنت الدولتان (انجلترا وفرنسا) أنهما لاتعترفان بغير سلطة الخديوى وقررت الدولتان ارسال أساطيلهما الى المياه المصرية ، وقدمت الدولتان مذكرة مشتركة تطالب فيهـا باستقالة وزارة البـارودى وخروج عرابى من القطر المصرى ، فرفضت الوزارة هذه المطالب لأنهـا تتعلق بمسـائل داخلية واجتمع العرابيون وأقسموا على أن يكونوا يدا واحـدة فى الدفاع عن البلاد ، وتولى الشـيخ محمد عبده وضع صـيغة اليمين وتحليف كبار الضباط .

وتطورت الأمور عنـدما قبل توفيق مطالب الدولتين ، واستقالت وزارة البارودى احتجاجا على مطالب الدولتين وقبول الخديوى لها وأقدم الانجليز على ضرب الاسكندرية بحجة تحصين العرابيين لها ، كأنه ليس

من حق مصر تحصين ثغورها . ثم دخلت القوات الانجليزية قناة السويس باسم الخديوى وانحاز الخديوى اليهم بالاسكندرية « وتقابلت القوات الانجليزية مع قوات الثورة العرابية فى معركة التل الكبير ودافع رجال الثورة دفاعا مشهودا ولكن قوات الانجليز كانت متفوقة » فكان الاحتلال الانجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ والذى دام حتى جاءت ثورة يوليو المجيدة سنة ١٩٥٢

ولقد كانت الثورة العرابية مصرية صميمة ، آمن رجالها بالله وبالوطن وضرورة حصول مصر على حقوقها ، وكانت ثورة على الظلم والاستبداد كما كانت ثورة ضد الاستعمار وأعوانه ، وكانت تريد الحد من التدخل الأجنبى ، وتحاول بناء مصر ولكنها لم تجد تأييدا من حاكم البلاد ، وعلى الرغم من فشل الثورة العرابية فى تحقيق الاستقلال للبلاد ، وعلى الرغم أيضا من أنها اقترنت باحتلال انجلترا لمصر ، الا أنها كانت مثلا رائعا فى الوطنية والبطولة وخطوة كبيرة فى تقدم الوطنية المصرية ، وكانت هذه الثورة الهاما لقررات أخرى فى المستقبل من أجل الحرية والاستقلال .

والذى يجب أن نلاحظه هنا هو أنه لم تحدث مقاومة شعبية لجيش الاحتلال الانجليزى كما حدث ابان المقاومة الشرسة التى جابهت الحملة الفرنسية ، وكان السبب فى ذلك أن قيادة الأمة كانت قد نحيت على يد محمد على وانتقلت من أيدى الصفوة المتعلمة ، واصبحت هذه المرة فى الجيش ، فلما سقط الجيش فى معركة التل الكبير سقطت مصر ، ونعم الانجليز فيها بهدوء دام اكثر من ربع قرن لأنها كانت بلا قيادة لأن قيادتها الطبيعية كانت قد نحيت وصفيت ، ولأن عملية التغريب كانت قد تمت بنجاح ، وأصبحت البلاد ناضجة لكى يتناولها السيد الغربى(٣٨) .

---

(٣٨) محمد جلال كشك . ودخلت الخيل الأزهر — الدار العلمية — لبنان — بيروت ١٣٩١ هـ ١٩٧٢ م ص ٩

وليس ادل على ذلك من قول الأستاذ الامام محمد عبده عن الفرق بين تلقى الشعب المصرى لصدمة الاحتلال الفرنسى وتلقيه لصدمة الاحتلال البريطانى بعد حوالى ثمانين سنة :

« فى المرة الأولى قوبل الاحتلال بمقاومة شعبية شاملة لم تنقطع بل استمرت فى تزايد مستمر وشهدت القاهرة ثورتين عنيفتين فى خلال ثلاث سنوات ، بينما سادت الروح الانهزامية واليأس المدمر فى أعقاب الاحتلال البريطانى ، وكيف عجز الفرنسيون عن ايجاد جهاز دولة متعاون ، وواجهوا مقاومة شرسة من شيوخ الأزهر ، بينما لم يجد كرومر صعوبة فى ادارة مصر بنفس جهاز الدولة الذى أقامته أسرة محمد على مع زيادة عدد المستشارين الأجانب الذين كانوا قد دخلوا الجهاز بالفعل قبل الاحتلال بسنوات(٣٩) » .

احتل الانجليز مصر وأعلنت بريطانيا أن الهدف من الاحتلال هو اعادة سلطة الخديوى توفيق التى هددها العرابيون ، وقمع الثورة العرابية ، ثم الجلاء عن البلاد ، وبعد أن اخمدت الثورة العرابية واستقر الخديوى على عرشه تلكأت بريطانيا فى الجلاء عن مصر وأخذت تبسط سيطرتها العسكرية والادارية والمالية عليها ، فألغت الجيش الوطنى لأنه مناصر للعرابيين وأنشأت جيشا ضعيفا لم يكن يتمتع بروح وطنية ، فكان برأسه (سردار) انجليزى وبه كثير من الضباط الانجليز ، ثموضعت يدها على البوليس المصرى قبل أن يمضى على الاحتلال أربعة أشهر ، وألغت قوانين

---

(٣٩) الشيخ محمد عبده — مجلة المنار — عدد ٢ يونيو عام ١٩٠٢ (١٣٢٠ هـ) من مقالة له عن الخسائر التى اصابت مصر فى عصر محمد على ، نشره الامام بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس دولة محمد على .

وانظر ايضا هذه المقالة فى تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، للسيد محمد رشيد رضا الطبعة الأولى مطبعة المنار — القاهرة ١٣٢٤ هـ ج ٢ ص ص ٤١٤ — ٤٢٥

الاصلاحات العسكرية كما الغت البحرية المصرية وسيطرت على المـالية المصرية بالغاء الرقابة الثنائية ، وتعيين مستشـار مالى بريطانى فى أوائل سـنة ١٨٨٣ ووضعت قواعد لحمايتها المقنعة التى فرضتهـا على مصر ، وكان قوام هذه الحماية بقاء جيش الاحتلال والزام الحكومة المصرية باتباع نصائح الحكومة الانجليزية .

وبعد أن تمكنت بريطانيا من البلاد ظن النـاس أن مصر قد انتهى بها الأمر الى مستعمرة انجليزية وأن جلاء الانجليز عنهـا من المستحيل ، ولكن الحركة الوطنية بدأت فى الظهور . فقـد ارتفعت فى مجلس شورى القوانين أصوات ترفض أن يـدفع المصريون جزءا من ميزانيتهم لنفقـات جيش الاحتلال ورأينا شريف باشا يرفض اخلاء السودان ، واستقال من الوزارة فى يناير ١٨٨٤ قائلا : « ان حكومة مصر لا تقبل مطلقا تلغراف اللورد جرانفل القائل بوجوب كل نصيحة انجليزية بدون تردد مادام جيش الاحتلال موجودا فى مصر » ورفض كثير من رجالات مصر أن يتولوا منصب رئاسة الوزراء على قاعدة اخلاء السودان وتقبل النصائح الانجليزيـة ، وأخيرا تولاها رجل أرمنى الأصـل هو نوبار باشا فى يناير ١٨٨٤ على أساس تنفيذ السياسة الانجليزية القائلة بالتخلى عن السـودان ، وعلى هذا النحو مضت وزارة نوبار فى مصر تصدع بما تؤمر بـه من الانجليز وتقدم المصالح البريطانية على المصالح المصرية .

فى هـذا الجو المعتم الخانق لم يركن الشعب المصرى الى الاستكانة والخضوع تماما للاحتلال كما يعتقد بعض المؤرخين والكتاب ، فقد انطلق عـدد من الصحف المصرية يندد بالاحتلال ويهاجم وزارة نوبار ، ولقيت هـذه الصحف صنوفا شتى من الاضطهاد على يـد نوبار : فقد عطـل جريدة الأهرام شهرا والغى جرائد : مرآة الشرق والزمان والوطن وغيرها ، وأنذار البعض الآخر .

وكان الشيخ محمد عبده قد حكم عليه الانجليز بالنفى الى خـارج

البلاد ثلاث سنوات فالتقى بالسيد جمال الدين الأفغانى فى باريس ونظما عملية الكفاح ضد الاحتلال الانجليزى لمصر وهناك أسسا جريدة (العروة الوثقى) لاثارة العالم الاسلامى ضد الانجليز بسبب احتلالهم لمصر ، فبعثت هذه الجريدة روح الأمل فى نفوس المصريين ، ودفعتهم الى الجهاد ، كما دعت هذه الجريدة الامم الشرقية بوجه عام الى مناهضة الاستعمار والأخذ بأسباب الحياة والقوة .

وقد كان لهذه الجريدة التأثير الكبير فى مصر والعالم الاسلامى فى اثارة الافكار ضد السياسة البريطانية فمنعت دخولها الى مصر والسودان والهند ووضعت حكومة (نوبار باشا) غرامة مالية كبيرة على كل من توجد عنده نسخة منها(٤٠) وعمل محمد عبده والأفغانى على نشر الروح الاسلامية والترابط الاسلامى وحض العالم الاسلامى على الالتفاف حول تركيا وادرك الحكيمان ان سبب تأخر المسلمين يرجع الى تفرقهم ، وكانت الحركة الوطنية فى مصر قبل الاحتلال الانجليزى مصرية صرفة « وبعد الاحتلال اصبحت مصرية تستظل بحركة الجامعة الاسلامية ، ومما ساعد على ذلك كتابات جمال الدين ومحمد عبده فى العروة الوثقى ، ثم معارضة الدولة العثمانية للوجود الانجليزى بمصر الاسلامية .

---

(٤٠) أحتجبت جريدة العروة الوثقى بعد صدور العدد الثامن عشر فى ١٦ من أكتوبر سنة ١٨٨٤ وكان هذا العدد آخر ماصدر منها . وكان أول عدد ظهر فى ١٣ من مارس ١٨٨٤ فكأنها استمرت فى الظهور سبعة شهور .

انظر : أعداد مجلة العروة الوثقى مجموعة فى مجلد واحد تحت عنوان « العروة الوثقى » نشر دار الكتاب العربى بيروت ، ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م) الطبعة الثانية .

حركة مصطفى كامل :

كان مصطفى كامل ثمرة كفاح جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأحمد عرابى وغيرهم ، وان شئت فقل ثمرة النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فقد ولد فى ١٤ من أغسطس سنة ١٨٧٥ وشهدت طفولته مجىء جمال الدين الأفغانى الى مصر وتطور الوعى السياسى بها على يديه ، كما شهدت فترة صباه الثورة العرابية وفشلها فى تحقيق كرامة الأمة ، وعاش فترة شبابه المبكر وشهد آثار اليأس المدمر الذى أصاب نفوس المصريين عقب الاحتلال الانجليزى ١٨٨٢ فأخذ يبعث الأمل فى نفوس المصريين بكلماته الخالدة : « لا حياة مع اليأس ولايأس مع الحياة » ، وبدأ مصطفى كامل حركته باحياء الشعور الوطنى وتجليه روح المصريين التى ران عليها الخضوع المهلك ، فحارب ما احدثه المستعمر من يأس فى النفوس ، وكان ظن الجميع أن مصطفى كامل يحاول مستحيلا ، ولكنه كان يقول : « قد قيل لى أكثر من مرة انى أحاول محالا ، وحقيقة تصبوا نفسى الى هذا المحال » ويقول : « انى أريد ان أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة »(٤١) .

وكان مصطفى كامل يعتمد على الكفاح فى مجالين : المجال الخارجى والمجال الداخلى ، فاما برنامجه الخارجى فيعتمد فيه على ابراز قضية مصر فى المحافل الدولية وفى الصحافة الأوربية وخاصة الصحافة الفرنسية وكان يقوم على انتهاز الأحداث الدولية لصالح مصر ، وفى هذا الصدد اعتمد على فرنسا التى كانت تحقد على الوجود الانجليزى فى مصر فلم تكن توافق عليه وحاولت اثارة العراقيل فى وجه بريطانيا واصرت على

---

(٤١) من رسالة مصطفى كامل الى الصحفية الفرنسية مدام جوليت آدم فى ١٢ سبتمبر ١٨٩٥ . أنظر عبد الرحمن الرافعى ، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية الطبعة الرابعة مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٥٩ — ٦١

مطالبتها بتحديد موعــد للجلاء عن مصر واصرت على امتيازاتهــا فى مصر وناصرت حركة مصطفى كامل الذى حاول استغلال هــذا الموقف وأخذ فى نشر مقالاته فى صحفها والقاء محاضراته فى محافلها

كما اعتمد أيضا فى مجــال الكفــاح الخارجى على مناصرت حركــة الجامعة الاسلامية لصالح مصر ، فكان يرى أن المحافظة على العلاقة مــع العثمانيين فيه رد لأطماع الأوربيين وعامــل مساعد من الناحية القانونية فمصر من الناحية القانونية كانت ماتزال حتى بداية الحرب العالمية الأولى ســنة ١٩١٤ تابعة للدولة العثمانية وولاية من ولاياتها ، فكان هــذا يمثل عقبة قانونية فى وجة الانجليز ، وقــد حاول الانجليز شراء هــذا الحق القــانونى لتسقط هــذه التبعية ، كما حاول مصطفى كامل أن يستفيد من هــذه العلاقة القانونية ، لأن مصر بمفردها لايمكن أن تستطيع اخراج الانجليز دون معونة الدول الاســلامية وخاصة تركيا ، فكان يود أن يظل محافظا على التبعية العثمانية الى أن يتمكن المصريون من اخراج الاحتلال الانجليزى ، ثم بعــد ذلك يكون السعى للاستقلال عن الدولة العثمانية ، وطلب من الســلطان أن يشترط على دول أوربا لعقــد الصــلح جلاء الانجليز عن مصر ، مقابل جلاء الجيش العثمانى عن بلاد اليونان ، وقــد كان هذا الاقتراح آية فى الوطنية(٤٢) كما يــدل على أنه كان يلعب بالورقة العثمانية ولا يلعب العثمانيون به ، ونظرا لنزعته الاسلامية فقد وجد تعاطفا من الدول الاسلامية .

أما برنامج مصطفى كامل الداخلى فكان يقوم أولا على نشر العلوم والمعارف ونشر الوعى الوطنى فى مصر لايقاظ المصريين ، وكان يطالب بادخال الــدين فى التعليم ، ومن أجل ذلك رماه أعداؤه بأنه مناصر للجمود ويروم أن يدعوا الى دعوة دينية جــديدة بيد أنه يرى أن محاربة الجمود باســم الدين لن يكون الا بالدين الحقيقى نفســه فيجب كشف الحقيقة الدينية بأصالتها للناس لكى ينتفى عنها الجمود والزيف العثمانى .

وبعد اعلان الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنســا سنة ١٩٠٤ (الذى

---

(٤٢) عبد الرحمن الرافعى — المرجع السابق — ص ١٠٠

بموجبه تعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها « بأن لاتعرقل عمل انجلترا فى مصر لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطانى ، ولا بأى صورة أخرى » وهذا الالتزام من جانب الحكومة الفرنسية مقابل التزام الحكومة البريطانية أن لا تعرقل عمل فرنسا فى مراكش ، ومعنى هذا الاتفاق اقرار فرنسا للاحتلال البريطانى فى مصر ، بعد هذا الاتفاق أدرك مصطفى كامل أن معارضة فرنسا للوجود الانجليزى بمصر نوع من المساومة لتعويض فرنسا عما فقدته فى مصر ، وأدرك زيف المعارضة الفرنسية ، ومن ثم نجد مصطفى كامل بعد هذا الاتفاق يضاعف جهوده فى المجال الداخلى ، فأخذ يركز جهوده فى الاعتماد على النضال الداخلى ، فأسس نادى المدارس سنة ١٩٠٦ وجمع حوله فيه صفوة المثقفين فى مصر الذين تشربوا مبادئه وتشبعوا بتعاليمه من أجل خدمة الوطن ، وبذلك سرت روح الوطنية الى الطبقة المثقفة من الأمة ، كما آمن مصطفى كامل بأن العمل السياسى يحتاج الى تنظيم فأنشأ الحزب الوطنى فى سنة ١٩٠٧ الذى ساعد فى جمع الأحرار تحت لواء هذا الحزب وزاد من ضغطه على الاستعمار الانجليزى .

ويرجع الفضل الى مصطفى كامل فى أنه هو الذى وحد عناصر الأمة من المسلمين والأقباط واليهود ، فكان يرى أن المسلمين والأقباط فى مصر أمة واحدة لايمكن التفريق بينهما مدى الأبد ، فهم يتحدون فى العادات والتقاليد والتاريخ ، ومن ثم توحدت الأمة فى ثورة ١٩١٩ فكان المسلمون والأقباط يدا واحدة وتعانق الهلال والصليب وهذا بفضل جهوده(٤٣) ، وكان يعارض أن ينقسم المجتمع فى مصر الى مسلمين وأهل ذمة كما كان على ذلك العثمانيون .

وبعد أن توفى مصطفى كامل فى ١٠ من فبراير ١٩٠٨ بقيت روحه تبعث على الثورة ، وخلفه فى تزعم الحركة الوطنية محمد فريد فاتسع

---

(٤٣) يجب أن لا ننسى جهود جمال الدين الأفغانى فى هذا المجال أيضا ، فقد جمع حوله بجانب المسلمين المسيحيين واليهود فى مصر ، فكان من تلاميذه ومريديه أديب اسحاق المسيحى ويعقوب صنوع اليهود وغيرهما .

نطاق الحركة الوطنية وأصبح الوطنيون أشد رغبة فى التصادم مع السلطات الانجليزية بالمظاهرات والاضراب ، ثم تطورت الحركة أخيرا باستعمال السلاح فى المقاومة مما اخاف الخديوى والانجليز منها ، فاشتد أضطهاد هذه السلطات لفريد وأعوانه من الوطنيين ، ونبتت فكرة النقابات العمالية والنقابات الزراعية والمطالبة بحقوق الفلاحين واعادة النظر فى نظام الضرائب والتشديد فى مطالبة الحكومة بالدستور .

قيام الحرب العالمية الأولى واعلان الحماية الانجليزية على مصر :

قامت الحرب العالمية الأولى باعلان الحرب بين انجلترا والمانيا فى أغسطس سنة ١٩١٤ ، وقد اضطربت الأحوال فى مصر بسبب نشوب الحرب العظمى فان الحكومة وقفت من الحرب موقف المستعمرات البريطانية وذلك بسبب تأثير وجود الاحتلال البريطانى ، مما كان له وقع أليم فى نفوس الوطنيين ، وأعلنت الحكومة الأحكام العرفية فى البلاد ووضعت الرقابة على الصحف فمنعت بذلك كل وسيلة من وسائل اعلان الراى فى الصحافة والاجتماعات والمنشورات ، فلجأت الحركة الوطنية الى العمل السرى .

وفى ديسمبر ١٩١٤ أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر . وبذلك زالت السيادة العثمانية على مصر ، ولما كان الخديوى عباس الثانى مناصرا للحركة الوطنية وللدولة العثمانية فان الحكومة البريطانية أعلنت خلعه فى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ وأصدرت أمرا بتعيين السلطان حسين كامل على عرش مصر وكان أكبر الأمراء الموجودين من أسرة محمد على ، وبدأت مصر تتحرك بسرعة الى العنف وتطورت الحركة الوطنية الى الثورة ، فوقعت محاولتان لقتل السلطان حسين كامل الذى عينه الانجليز وتنبأ زعماء مصر بالثورة فكتب محمد فريد فى مذكراته فى سنة ١٩١٥ يقول : « ان الأفكار الارهابية تسربت من الشبان الى من هم أكبر منهم سنا وتدل على أن التذمر والفكرة الثورية عمت أوستعم قريبا جميع الطبقات » وقد سئل محمد فريد مرة قبل قيام الحرب : « ماذا نفعل لو انتصرت بريطانيا ؟ فأجاب فريد : نجتهد حينذاك فى تجهيز الثورة فى مصر(٤٤) » :

---

(٤٤) فتحى رضوان — مصطفى كامل العدد ٣٩٠ من سلسلة اقرا — دار المعارف القاهرة ١٩٧٤ — ص ٢٧٨

وصفوة القول أن الروح التى بعثها مصطفى كامل فى الأمة المصرية بعد الاحتلال الانجليزى لمصر هى التى مهدت السبيل الى ثورة الشعب المصرى فى سنة ١٩١٩

ثورة ١٩١٩ :

ان ثورة ١٩١٩ تعد مرحلة هامة فى تاريخ النضال المصرى وحلقة جديدة فى سلسلة الانتفاضات القومية التى دعمت الفكر الثورى فى البلاد ، ودفعته الى الامام خطوات على طريق التحرر والثورة . فحين انتهت الحرب العالمية الأولى هب الشعب المصرى يطالب بالاستقلال التام ، وبجلاء جيش الاحتلال الانجليزى طبقا للمبادىء التى أعلنها الرئيس الأمريكى « ولسن » والتى كانت تتلخص فى حق كل شعب فى تقرير مصيره بنفسه .

وكانت هذه الثورة فى جوهرها ترجع الى تذمر المصريين من الاحتلال الأجنبى ، واخلافه الوعود الكثيرة فى الجلاء عن البلاد ، وزيادة التدخل الانجليزى فى شئون مصر ، والغاء دستورها ومحاولة الانجليز فصل السودان عن مصر ، ثم اعلان الحماية على البلاد ، فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ، واعلان الأحكام العرفية التى كبتت شعور الشعب حتى وصل الى مرحلة الانفجار فى سنة ١٩١٩ حين أصرت بريطانيا على استمرار الحماية ، ويئس الشعب من الوصول الى حقوقه بالطرق السلمية ، كما كانت الثورة أيضا بسبب سيطرة رءوس الأموال الأجنبية على مرافق البلاد ، حتى ساءت حالة البلاد .

وكان تأليف الوفد المصرى الى مؤتمر الصلح فى باريس فى نوفمبر سنة ١٩١٨ برئاسة سعد زغلول معجلا لظهور الثورة حيث تحدى الوفد ارادة بريطانيا لقد تألف الوفد المصرى الى مؤتمر الصلح كهيئة شعبية تتكلم باسم الشعب المصرى وتطورت هذه الهيئة فتحولت الى الى حزب سياسى ، ورأس هذه الهيئة سعد زغلول وهو من زعماء الحركة الوطنية فى مصر ، وكان عظيم الايمان بمصر ومستقبلها ، قوى الشخصية كبير الجراة فى التعبير عن مطالبها والمناداة بحقوقها . وسرعان

كما اتصـــل سعد وزملاؤه بمعتمد انجلترا فى مصر (سير ريجنالد ريجنت) وفى هـــذه المقابلة طالب ســـعد بالغاء الأحكام العرفية ، وان تكون صداقة مصر لانجلترا صـــداقة الندللند ، كما طالب بالاســـتقلال التام لمصر ، وأكد عزم بلاده على احترام التزاماتها وخاصة المـــالية ، ورأت بريطانيا خطر الحركة الجديدة فرفضت سفر ســـعد وزملائه ، وأمام اصرار سعد وزملائه على موقفهم لجأت الســـلطات البريطانية الى التهديد ثم القبض عليهم فى ٨ مارس ١٩١٩ ، ونفيهم الى مالطة ، فكان ذلك بمثابة الشرارة التى اشعلت نار الثورة .

وبدأت الثورة كعادة كثيرة من الثورات فى بدايتها بمظاهرات سلمية تطوف أنحاء القاهرة مطالبة بالاستقلال ، هاتفة بسقوط الحماية الانجليزية ، وتصـــدت القوات الانجليزية للمتظاهرين عندما اشتدت حماستهم واستمر اضطرابهم فى الأيام التاليـــة ، واطلقت القوات الانجليزية النـــار على المتظاهرين ولم ترهبهم سياسة القمع الانجليزية واستمروا فى مظاهراتهم ، وانضمت جميع طوائف الشـــعب اليها وامتدت الحركة الى الأقاليم واتخذ العنف مظاهر شتى تعبيرا عن غضبة الشعب ، فقطعت السكك الحديدية وأسلاك التليفونات ، وتعطلت المواصلات فى جميع نواحى القطر .

والعجيب فى هـــذه الثورة انها شبت دون تدبير ســـابق ودون أن تكون هناك أى هيئة أو جماعة دعت اليها ونظمتها ، وعلى غير انتظار ، وظهر فيها فضل الشعب ويعتقد بعض المؤرخين أن الثورة ليست وليدة الوفد ، ولا وليدة سعد زغلول بل كلاهما (الوفد وســـعد زغلول) وليـــد ثورة ١٩١٩(٤٥) .

وعلى كل حال فقـــد تزعم الوفد طليعة النضال فى هـــذه الفترة ، وتبلورت زعامة مصر فى شخص ســـعد زغلول الذى استطاع أن يقود الحركة الوطنية بقدر ما سمحت له الظروف الداخلية فى مصر والظروف العالمية ، وكانت الظروف العالمية ملائمـــة للمطالبة بالاســـتقلال وتقرير

(٤٥) عبد الرحمن الرافعى — ثورة ١٩١٩ ج ١ ص ٧

المصير ، وخاصـــة بعد أن نادى الرئيس « ولسون »(٤٦) بحق كل شعب فى تقرير مصيره ، وطرب الشعب المصرى لســماع تلك المبادىء وطالب بتطبيقها على مصر ، كما ثارت روســيا ضــد الحكم القيصرى وأعلنت مقاومتها للاستعمار .

بيد ان بريطانيا خرجت منتصرة من الحرب واصبحت أعظم دولة فى العـــالم واعترف اصدقاؤها وأعداؤها بمركزها فى مصر ، فقامت ثورة الشعب المصرى واستخدمت فى ذلك جميع صنوف القهر ولجأت الى سياسة الاعتقال والاضطهاد وعينت (لورد اللنبى) وهو من رجال الجيش البريطانى مندوبا فوق العادة لمصر والســودان ووكلت اليه مهمة قمع الثورة ، فأمعن فى اذلال الشعب المصرى ولكن سياسة الاذلال والقمع والاضطهاد لم تؤد الى نتيجة نظرا لاصرار الشعب على المقاومة والمطالبة بحقوقه .

وأمام اصرار الشعب اضطرت بريطانيا الى التصريح لسعد زغلول بالعودة الى مصر وبدأت تفكر فى النظر فى مطالب المصريين ، ولكنها لجأت الى سياسة المسكنات فأعلنت من جانبها فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ انتهاء الحماية البريطانية على مصر وأن مصر اصبحت دولة مستقلة ذات سيادة ووعدت بالغاء الأحكام العرفية غير أنها تحفظت فى هذا الاعلان تحفظات أربعــة هى :

١ — الدفاع عن مصر ضد أى اعتداء أجنبى .
٢ — ضرورة تأمين المواصلات البريطانية .
٣ — حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .
٤ — مسألة السودان .

وهـــذه الأمور الأربعة ظلت معلقة حتى تعقــد اتفاقية بين الطرفين لحلهـــا .

---

(٤٦) ولســون هو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ابان الحرب العالمية الأولى وقــد أعلن مبادىء حق تقرير المصير لكل الشعوب فى خطبه العديدة فى عامى ١٧ ، ١٩١٨

واوشكت ثورة ١٩ أن تنجح لولا أن الانجليز الهوا الشعب المصرى بدســتور سنة ١٩٢٣ ، ومع أن الدستور كان خطوة الى الأمام فى ذلــك الوقت . فقــد اكد بعض حقوق الشعب التى لم يكن احد يعترف بهــا رسميا قبل ذلك الا أنه كان ذرا للرماد فى العيون وتخديرا للروح الوطنية .

وينص دســتور ١٩٢٣ على أن الاسلام دين الدولة الرسمى واللغة العربية لغتها الرســمية كما ينص على ان مصر دولة ذات سيادة وحكومتها ملكية وراثية فى اسرة محمد على وشــكل الحكم بها نيابى ، كما نص على ان جميع الســلطات مصدرها الأمة وان السلطة التشريعية يتولاها الملك بالاشتراك مع مجلسى الشيوخ والنواب كما لايصــدر قانون الا اذا قرره البرلمــان وصدق عليه الملك وللملك ولمجلسى الشيوخ والنواب حق اقتراح القوانين عدا ما كان منهــا خاصا بالضرائب او زيادتها فاقتراحه للملك ولمجلس النواب ، وأما الســلطة التنفيذية فيتولاها الملك وأما الســلطة القضائية فتتولاها المحاكم ، وقــد أعطى هذا الدستور الملك سلطات كبيرة منهــا حق حل مجلس النواب وتأجيل انعقاده وحق اصــدر مراسيم فى غيبة البرلمــان وتعيين الوزراء واقالتهم .

ومع أن الوفد الذى كان يمثل الشــعب لم يشترك فى وضع الدستور ، فقــد تمسك الشعب المصرى بــه مدة طويلة وحكم ذلك الدستور مصر فترة ليست بالقصيرة تمتد الى أكثر من عشرين عاما ، وفى خريف ١٩٢٣ عاد ســعد زغلول الى مصر فكان زعيــم مصر الأول بلا منافس ونجح مرشحوا الوفد فى الانتخابات نجاحا تاما على جميع الأحزاب ورأس سعد زغلول الوزارة التى أطلق عليها (وزارة الشعب) ولم تكن تتمتع بثقــة الانجليز ولا بثقة الملك فالانجليز يخشون الشــعب المصرى ، كما أن الملك الذى وقف من الثورة موقف التربص كان يدافع عن بقائه فقط لم يعجبه أن يكون الشعب مصــدر السلطات وكان يرى أن الحكومة يجب أن تستلهم حكمها من ارادته هو .

والواقع أن حياة مصر السياسية سرعان ما سيطرت عليها الحزبية المتعصــبة والتطاحن الحزبى ونظرت الأحزاب فى كثير من الأحيــان الى

مصالحها الخاصة قبل كل شيء فعملت على البقاء فى كراسى السلطة والتربع عليها أكبر مدة مستطاعة ولم توجه العناية الكافية الى مصالح الشعب ووضع مصلحة الوطن فى المرتبة العليا وتحول كفاح الشعب المصرى الى خطب تلقى فى البرلمان ولم تكن مشكلة الشعب تحل بالخطب الرنانة التى تلقى فى البرلمان والتى أراد بها الانجليز أن تكون امتصاصا لغضب هذا الشعب فى عام ١٩١٩

وعلى كل حال فان الأسباب التى أدت الى فشل ثورة ١٩١٩ هى نفس الأسباب التى حركت حوافز الثورة سنة ١٩٥٢ ، وكانت هناك ثلاثة أسباب واضحة أدت الى فشل هذه الثورة :

أولا : أن القيادات الثورية أغفلت اغفالا يكاد يكون تاما مطالب التغيير الاجتماعى ، على أن تبرير ذلك واضح فى طبيعة المرحلة التاريخية التى جعلت من طبقة ملاك الأراضى أساسا للأحزاب السياسية التى تصدت لقيادة الثورة ، ومع أن اندفاع الشعب الى الثورة كان واضحا فى مفهومه الاجتماعى ، الا أن قيادة الثورة لم تتنبة لذلك .

ثانيا : أن قيادة ثورة ١٩١٩ لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء فلم تتنبه الى خطورة تصريح بلفور ١٩١٧ الذى انشأ اسرائيل لتكون فاصلا يمزق امتداد الأراضى العربية وقاعدة لتهديدها . ومن ثم حرم النضال العربى من الطاقة المصرية فى أخطر ساعات الأزمة ، وتمكن الاستعمار من التعامل مع أمة عربية ممزقة .

ثالثا : أن القيادة الثورية لم تستطع أن تتلائم بين أساليب نضالها وبين الأساليب التى واجه الاستعمار بها ثورات الشعوب فى ذلك الوقت ، ان الاستعمار أكتشف أن القوة الاستعمارية تزيد ثورات الشعوب اشتعالا ومن ثم انتقل من السيف الى الخديعة ، وقدم تنازلات شكلية لم تلبث القيادات الثورية أن خلطت بينها وبين الجوهر الحقيقى .

وهكذا انتهت الثورة باعلان استقلال لا مضمون له ، وبحرية جريحة تحت حراب الاحتلال(٤٧) .

---

(٤٧) الميثاق الوطنى — الباب الثالث — جذور النضال المصرى .

وانحدر كفاح الشعب من مرحلة الثورة الى مرحلة دوامة المفاوضات والمساومات الحزبية وأصبح الجلاء مطية كل حزب الى الحكم وألعوبة الساسة حتى كانت معاهدة ١٩٣٦ التى أكدت الاحتلال وجعلته مشروعا باسم الاستقلال .

معاهدة ١٩٣٦ :

منذان أعلن الانجليز تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وهم فى سعى متواصل لدى الحكومات المصرية المتعاقبة من اجل قبول الحكومة المصرية بروح هذا التصريح فى معاهدة ثنائية تجعل وجودها مشروعا فى وادى النيل على أساس من رضا الشعب وموافقته ، وبدأت على هذا الأساس سلسلة من المفاوضات المصرية الانجليزية منذ أول وزارة تشكلت برياسة سعد زغلول سنة ١٩٢٤ فى ظل الاستقلال والدستور ، وأنتهت المفاوضات فى عام ١٩٣٦ بتوقيع معاهدة للتحالف والاستقلال بين مصر وبريطانيا فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ فى لندن ووقع عليها من الجانب المصرى جبهة وطنية تضم كل الأحزاب السياسية فى مصر فى ذلك الوقت على رأسها النحاس .

وقد اشتملت هذه المعاهدة على شروط مجحفة لمصر وربطت البلاد بعجلة الامبراطورية البريطانية لمدة عشرين عاما ، ولم يكن من حق أحد من الطرفين أن يطلب تعديلها قبل مضى عشر سنوات وكان أهم ماقررته عدم الاعتراف بحرية مصر فى علاقاتها الدولية فى السلم والحرب وعليها دائما أن تتبع مشورة حليفتها بريطانيا ، وعلى مصر فى حالة الحرب أن تقدم جميع التسهيلات والمساعدات للقوات البريطانية التى يكون من حقها استخدام موانى مصر ومطاراتها وطرق المواصلات فيها ، وضرورة بقاء القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس ، مع بقاء القوات البريطانية فى السودان بلا قيد ولا شرط مع استمرار ادارته طبقا لاتفاقيتى ١٩ ، ٢٠ يوليو ١٨٩٩ الخاصتين بالحكم الثنائى .

ولقد كانت هذه المعاهدة فى نظر الوفد عبارة عن اتفاق يحقق أمال مصر ويصون مصالح بريطانيا على أساس حر شريف ، بينما يرى البعض الآخر أن المعاهدة لم تحقق مطالب المصريين بصفة نهائية ، ولكنها خطوة نحو تحقيق هذه المطالب .

ولكننا نرى أن هذه المعاهدة جعلت الاحتلال الانجليزى لمصر مشروعا بموجب اتفاق ملزم للمصريين ، كما جعلت من السودان مستعمرة بريطانية تحرسها جنود مصرية تحت أمرة الحاكم العام البريطانى وعلى الرغم من ذلك فقد صدق عليها البرلمان المصرى بمجلسيه (مجلس النواب بجلسته المنعقدة فى ١٤ من نوفمبر ١٩٣٦) و (مجلس الشيوخ بجلسته المنعقدة فى ١٧ من نوفمبر ١٩٣٦) .

وهكذا كانت « معاهدة ١٩٣٦ » . بمثابة صك الاستسلام للخديعة الكبرى التى وقعت فيها ثورة ١٩١٩ ، فقد كانت فى مقدمتها تنص على استقلال مصر ، بينما صلبها فى كل عبارة من عباراته يسلب هذا الاستقلال كل قيمة له وكل معنى(٤٨) .

ونشبت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ فطلبت الحكومة البريطانية اعلان الأحكام العرفية ، ووضع الرقابة على المطبوعات طبقا لمعاهدة ١٩٣٦ . وعندما زحفت قوات الألمان بسرعة الى العلمين بقيادة (روميل) سنة ١٩٤٢ ، وخرجت المظاهرات فى شوارع القاهرة منادية « الى الأمام ياروميل » وكانت الوزارة والقصر من الضعف بحيث لا تقدر على منع المظاهرات ، وكان الشعور العام فى مصر ضد بقاء قوات الاحتلال ، وكان المصريون يتمنون هزيمة بريطانيا أمام أعينهم عند ذلك زاد انزعاج الحكومة البريطانية ، ففكرت فى فرض ارادتها .

حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ :

رأت بريطانيا أن تضمن الاستقرار فى مصر ابان الحرب ، ولذا قررت أن يتولى حزب الوفد الحكم ، ورأى الملك فى ذلك الوقت أن أخف الأضرار هو تأليف حكومة ائتلافية قومية من الأحزاب كلها ، ولو قبل النحاس تأليف وزارة ائتلافية لما تدخل الانجليز وحين رفض النحاس تأليف وزارة ائتلافية تدخل السفير البريطانى فى مصر وارسل انذاره المشهور فى ٤ فبراير ١٩٤٢ يقول فيه « اذا لم اسمع قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف وزارة فان جلالة الملك فاروق يجب أن

(٤٨) الميثاق الوطنى — الباب الثالث — حذور النضال المصرى .

يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج »(٤٩) وجاءت الدبابات البريطانية الى قصر عابدين لتأييد الانذار البريطانى وقبل الملك الانذار تحت التهديد بالخلع وقامت وزارة وفدية طوال مدة الحرب .

وقد اثبت حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ أن استقلال مصر خرافة مادام هناك احتلال وجيش بريطانى . ويقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى هذا الحادث : « ان مصطفى النحاس باشا هو المسئول الثانى عن حادث ٤ فبراير وليس عمله من الاستقامة الوطنية فى شىء » وكان المسئول الأول عن هذا الحادث هو الملك فاروق بطبيعة الحال .

لكن علينا أن نقدر موقف بريطانيا فى ضوء الظروف والملابسات الدولية التى صاحبت الحرب فان هذه الظروف جعلت بريطانيا تخاف من عواقب الأمور المرتقبة فى مصر بسبب تذمر المصريين وكراهيتهم للاحتلال الانجليزى ، فلجأت الى حل وسط لضمان الاستقرار فى مصر ابان الحرب ولم يكن أحد فى مصر يستطيع أن يخالف الانجليز سواء الملك أو الوفد أو غيرهما .

وعلى كل حال فان هذا الحادث كان بداية هزة اجتماعية فى مصر ، وبعده فكر ضباط الجيش فى تشكيل جهاز الضباط الأحرار السرى الذى خطط لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

كارثة فلسطين ١٩٤٨ :

أنتهت الحرب العالمية الثانية فى ١٩٤٥ وقد تدعم مركز الصهيونية فى فلسطين بمعاونة بريطانيا دولة الانتداب التى مكنتهم فيها ، ثم جاء قرار الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين ، بين العرب واليهود ، وقيام دولة اسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وتدخل الجيوش العربية لانقاذ فلسطين ومنها جيش مصر ، ولم تكن مصر مستعدة لهذه

---

(٤٩) د. مصطفى صفوت ، مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة ص ١٥٦

الحرب لفســـاد نظام الحكم ، وانتهى التدخل فى فلســـطين بالهزيمة وعقد هدنة دائمة فى رودس ، فى يناير — يوليو ١٤٩٤ . وبالرغم من التوســـع الاقليمى الذى حققته اسرائيل أثناء حرب ١٩٤٨ فانهـــا تجاهلت أحـــكام اتفاقية الهدنة ، واستنت لنفسهـــا سياسة ارهابية ازاء الدول العربية لتجبرها على قبول الأمر الواقع وقامت بتغيير الأوضاع الطبيعية التى نصت عليها اتفاقية الهدنة وتمادت فى توسعها الاقليمى فاحتلت منطقة أم الرشرش فى ١٠ مارس ١٩٤٩ وانشأت مكانها ميناء ايلات ، كما احتلت غيرها من المناطق وكانت الدول الكبرى تؤيدها وتساندها فى كثير من الأحوال(٥٠) .

الوضع العربى بعد انشاء اسرائيل سنة ١٩٤٨ :

أنتهى فى عام ١٩٤٨ تنفيذ المخطط الاستعمارى فى فلســـطين وقامت دولة اسرائيل فكان ذلك ايذانا ببدء مرحلة جـــديدة فى تاريخ العرب الحديث ، وقـــد أدى قيـــام هذه الدولة الى أن تفتحت أعين العرب على مؤامرات الاستعمار فى المنطقة وخيانة الرجعية العربية وتركت فى أعماق الشـــعب العربى موجة من الحزن والقلق والنقمة وبدأ ذلك كله واضـــحا معبرا عن نفســـه فى الانتفاضات الشعبية فى العراق والأردن والانقلابات العسكرية فى سوريا ومحاولات الانقلاب فى الاردن .. وازداد النضـــال الشعبى وارتفع مســـتواه الفكرى والتنظيمى .. فالتفت الجماهير حول شعارات الوحدة العربية ومقاومة الاستعمار .

ولم يغفل الاستعمار عن خطورة تلك الظواهر على وجوده وتهديدها لكيانه بالمنطقة كلها فراح يـــدعم ويقوى النظم الرجعية المتداعية ويحمى الحكام العملاء كدعامات اســـتعمارية وارتكازية له .. وفى نفس الوقت فقد كانت معظم جهوده موجهة موجهة الى محاولة تخفيف حـــدة التوتر بين العرب واسرائيل وعقد صلح يعترف فيه بالأمر الواقع .

ونشطت حركة التحرير العربية ولكنهـــا حتى عام ١٩٥٢ لم تبد فى تشكيل خطر حقيقى على الاســـتعمار ، ويرجع السبب الرئيسى فى ذلك

(٥٠) خصصنا بعض الفصـــول فى هذا الكتاب لدراســـة قضـــية فلســـطين .

الى انقســـام هذه الحركة ووقوعها أسيرة لمجموعة من المتناقضات أبرزها انقسامها الى تيارات عدة وصل التناقض بينها الى حد العداء .

أولا — الدعوة الدينيــة :

وكانت جماعة الاخوان المســلمين هى المعبرة عن هذا الاتجاه تدعوا الى قيــام الدولة الاسلامية وانشــاء الجامعة الاسلامية ، والرجوع الى الشريعة الاســلامية لمجابهة كل المشاكل وأصبح لها فروع فى كثير من الدول العربية وكانت تتركز فى مصر وكان أهم ما يعيبها انقسامهــا الى تيارات عدة وصل التناقض بينها الى حد العــداء . فى الوقت الذى كانت فى حاجة الى الترابط للوقوف أمام الاستعمار والملكية الطاغية الذين يقفان لها بالمرصاد .

ثانيا — الــدعوة القوميــة :

وقد تنازعتها تيارات سياسية مختلفة ولكنها كانت تختلط فى أحيان كثيرة فتكون مزيجا متناقضا .. وكان من أبرز تنظيمات هذه الحركة تنظيمان رئيسيان هما : حركة البعث العربى الاشتراكى ، حركة القوميين العرب .

ثالثا — الــدعوة التقدميــة :

وقد عبرت عنهــا الأحزاب الاشتراكية فى البلدان العربيــة وهى بلا شــك دعوة تقدمية معادية للاستعمار ، ولكنها لم تكن تلائم المجتمع العربى لانها غلبت الجانب الاجتماعى على الجانب الوطنى والقومى(٥١) كما اندس فى صفوفهــا دعاة المــاركسية الذين لاتتلاءم أفكارهم مع الواقع الاسلامى للبلاد العربية .

الوضع السياسى والاقتصادى والاجتماعى بمصر قبيل ثورة يوليو :

وفى مصر برز ثالوث خطر تمثل فى رأس المــال الأجنبى ، والاحتكار المحلى ، والاقطاع ، كان يسيطر على الحياة الاقتصــادية فيها وكان ذلك سببا رئيسيا لتخلف المجتمع المصرى .

---

(٥١) السادات ومسئولية البناء والتحرير — دار الشعب — ١٩٧٣ ص ٢٠

وكان لايمكن تطوير الاقتصـــاد المصرى دون التخلص من السيطرة الأجنبية على اقتصـــادنا القومى التى كانت تحول دون التوسع فى تصريف القطن المصرى خارج المعسكر الرأسمالى ، وأدى هذا الى تكديس المخزون لدينا من القطن ، وبالتالى أدى الى العجز فى ميزاننا التجارى . وغير ذلك من الأمثلة كثير . وكان أيضا الاحتكار القـــائم سببا ثانيا فى عـــدم تطوير الصناعة المصرية ، فلقد استطاع بنك مصر على سبيل المثال وارس ماله لا يجاوز مليون جنيه أن ينشىء أكثر من عشرين شركة صـــناعية وتجارية يزيد رأسمالها على عشرة ملايين من الجنيهـــات . ويقول انور السادات فى ذلـــك .

« البنوك ابتداء من البنك المركزى حتى أصغر بنك ، تحت سيطرة رأس مال أجنبى ، وحتى بنك مصر نجح الاســـتعمار مستعينا بالحكومة فى ذلك الوقت فى ان يقصى عنه القيادات الوطنية ويفرض عليه قيادة متعاونه مع الاستعمار ويربط نشاطه بالاستعمار(٥٢) .

وكانت السيطرة الاقتصـــادية للأقطاع الذى انفق معظم أمواله على بناء عمارات ضخمة لايشغلها ســـوى أصحاب الدخول المرتفعة ، أو بناء قصـــور لكبار الملاك ، أو شراء أراضى متوسطى وصغار الملاك ولم تستفد الصناعة من دخل الاقطاعيين .

ويصـــت الســـادات تلك الفترة بقوله فى احـــد خطاباته : « كانت سيطرة الاستعمار والاقطاع ورأس المـــال المســـتغل على حياة الشعب واقتصـــاد البلاد ، وكانت بيد هـــذا التحالف الســـلطة السياسية من الدولة وكانت له الهيمنة الاقتصادية ، وباستخدامها فرض على قوى الشعب العامل أبشع صنوف الاستغلال »(٥٣) .

وكنتيجة طبيعية لهـــذه السيطرة أصبح الواقع المصرى يتميز بمظاهر انخفاض الدخل الفردى بالمقارنة بدخل الفرد فى البلاد الأخرى واستمرار تزايد هـــذا الفرق بينهما .

---

(٥٢) السادات ومسئولية البناء والتحرير — دار الشعب — ١٩٧٣ ص ٢٠

(٥٣) المرجع السابق .

كما أن الاقتصـــاد المصرى كان يعانى آثار التسيب النقدى وتخلف الفن الانتاجى ومستوى المهارة الفنية كنتيجة للاعتماد على وســائل الانتاج التقليدية ومضى التبادل التجارى بين مصر والدول الأخرى بلا تكافؤ أدى الى عجز مستمر فى ميزان المدفوعات .

ولاشك أن لهذه الظروف وغيرها من مظاهر الظلم الاجتماعى والفساد المتفشى فى معظم مجالات الحيـاة والعلاقات الانســانية أثر على الواقع الاجتماعى فانقسم المجتمع المصرى فى مجموعة الى قوتين رئيسيتين :

أولا : قوى اجتماعيـــة اســـتغلالية تتمثـــل فى طبقتى الاقطاعيين والرأسماليين تحتكران القسط الأكثر من الدخل القومى والثروة الوطنية .

ثانيا : قوى شعبية مســتغلة تتمثل فى العمـــال والفلاحين والحرفيين ويذهب نتاج عملها وكدحها الى التحالف الطبقى المشار اليه .

ويشخص الســادات هذا الواقع تجســيدا أمينا حين يصــف تلك الفترة بقوله : « تلك كانت صورة مصر ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . الاستعمار يمتص ثمار عرق الشـــعب العامل لينمى استثماراته العالمية .. وعلى ضـــفاف النيل يقبع مئات من الأجانب والمتمصرين والاقطـــاعيين وكبـــار الرأسماليين يكدسون الثروات ويعيشون فى بذخ واسراف وتبذير (٥٤) .

ويصف ذلك قائلا فى خطاب آخر :

« ان الغالبية العظمى من الفلاحين لـــم تكن تمارس الملكية أصـــلا أو تمارسها فى حـــدود لاتذكر — أقل من فدان — وعليها بالتالى أن تستأجر من كبار الملاك . أما العمال الزراعيين الـــذين لم يكن بوسعهم أن يستأجروا الأرض فقـــد كانوا فى قاع البؤس يقل أجر الواحد منهم عن أجر المـــاشية فى الحقل »(٥٥) .

ونظرة على الواقع السياسى فى مصر فى تلـــك الفترة يظهر أن أبرز ملامح هـــذا الواقع يتمثل فى وجود سيطرة عسكرية تعبر عنهـــا قوات الاحتلال البريطانية البالغ عددها ٨٠ ألف جندى على قناة السويس . وكان

(٥٤) المرجع السابق ص ٢٢
(٥٥) المرجع السابق ص ٢٢

هـــذا الوجود وسيلة لحماية المصـــالح الاستعمارية فى الداخل عن طريق تحالف الاقطاع وراس المـــال المستغل والمســيطر فى ذات الوقت على الحكم .

وكانت معظم الأحزاب السياسية وهى وسيلة الديمقراطية فى ذلـــك الحين تحت قيادة ذلك التحالف الســـابق الذى وجه حركتها نحو تحقيق مصـالحه الخاصـــة ، وكان من الواضـــح استحالة قيام قيادة وطنية من خلال الأحزاب التقليدية القائمة حينذاك .

— فحزب الأحرار الدستوريين يمثل كبار الملاك ، أى الاقطاع المتصل بالاستعمار والسراى .

— وحزب السعديين واقع تحت سيطرة نفوذ كبار رجال المـــال الذين يمثلون كتلة واحدة مع الاستعمار .

— وحزب الوفد يمثل الرأسمالية الوطنية فى مرحلة متخلفة عن نموها كما أن قيادته أخـــذ يتسرب اليهـــا بعض كبار الملاك واخذت تقع تحت نفوذ بعض كبار رجال المـــال فأصبحت أعجز من أن تقود المعركة الوطنية ضد الاستعمار .

— كذلك فقد كانت اللجنة العليا (للحزب الوطنى) مركبة من مجموعة من المنعزلين كثيرا عن الشـــعب والـــذين كان تأثيرهم وتأثرهم بالمجتمع محدودا .

هذه عجالة سريعـــة عن ملامح الوضـــع السياسى والاقتصـــادى والاجتماعى لمصر قبيل الثورة ، غير اننـــا لاننسى أن الحركة الشـــعبية الجماهيرية لم تكن غائبة عن مسرح التأثير السياسى وانما عبرت عن نفسها فى شكل انتفاضات شـــعبية من الطلاب والعمال فى سنة ١٩٤٦ واشـــتعل الحماس فى مصر بالغاء معاهدة ١٩٣٦ فى ســـنة ١٩٤١ وبدأ كفاح الشعب المسلح عن طريق العمليات الفدائية فى منطقة القناة ضد جيش الاحتلال الانجليزى .

* * *

الفصـــل الحـــادى عشر

ثـــورة يوليو ســــــنة ١٩٥٢

ثـورة يوليو سـنة ١٩٥٢

منذ الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) بدأ صفوة من الضباط بالجيش يشعرون بما تعانيه مصر وما يعانيه شعبهـا ، فكانوا يألمون بما كانت تعانية البلاد من عدوان وفساد فى نظـام الحكم ، ولقد كان حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ من البواعث الحقيقية لتكون الضباط الأحرار ، وقد قـال جمال عبد الناصر عن هذا الحادث فى كتابه فلسفة الثورة يصف مشاعره زملائه الضباط المصريين :

« كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح المعنوية ، فبعد أن كانت ترى الظباط لايتكلمون الا عن الفسـاد واللهو . أصبحوا يتكلـون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس فى سبيل الكرامة وأصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا — مع ضعفهم الظاهر — ويردوا للبلاد كرامتهـا ، ويغسلوها بالدماء ، ولكن غدا لناظره قريب ، والواقع أن هذه الطعنـة ردت الروح الى بعض الأجسـاد ، وعرفتهم أن هناك كرامـة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها ، وكان هـذا درسا قاسيا »(٥٦) ومعنى ذلك أن هذا الحادث قد ساعد على قيام تنظيم الضباط الأحرار .

وقال أنور السادات فى مذكراته عن ثورة ٢٣ يوليو :

« ان فاروق قد تعلم درسا من حادث ٤ فبراير سـنة ١٩٤٢ هو الا يعارض سياسة بريطانيا . بل خرج من هـذه الحادثة بحكمة خالدة هى أن يوفر لنفسـه الأمان والسلام بتنفيذ كل ماتريده بريطانيا ، حتى يستطيع أن يتفرغ لاشـباع شهواته .. وتطورت الأمور الى أبعد من ذلك فأنعمت عليه بريطانيا برتبة جنرال فى الجيش البريطانى »(٥٧) ومعنى ذلك أن هذا الحادث كان نهاية ملك .

وكان من نتائج هـذا أن بدأ التجاوب بين الشعب والجيش وبـدأ الضـباط والجنود يمتنعون عن الاشـتراك فى قمع المظاهرات والحركات

---

(٥٧) ياولدى هذا عمك جمال ص ١٠٥ — ١٠٦

(٥٦) فلسفة الثورة ص ١٤ — ١٥

الوطنية ، ولمـــا دخل الجيش حرب فلسطين ١٩٤٨ كانت هذه الحرب هى الشرارة التى الهبت فى الضباط جذوة الثورة فألفوا من بينهم جماعة باسم (الضباط الأحرار) جعلوا هدفهم انقاذ البلاد بواســـطة الجيش والشعب من الانهيار الذى أوصلهـــا اليه الاستعمار والملكية الفاسدة .

على اننا يجب أن نلاحظ أن فكرة هـــذا التشكيل كانت موجودة خلال الحرب العالمية الثانية كما ســـبق أن أشرنا غير أنها لم تدخل دور التكوين الا فى حرب فلســـطن فقد قال جمال عبد الناصر فى هذا الصدد :

« فى فلســـطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع فى الخنادق والمراكز ، فى فلسطين جاءنى صلاح سالم وزكريا محى الدين ، واخترقا الحصـــار الى الفالوجا ، وجلســـنا فى الحصار لانعرف له نتيجة ولانهاية وكان حديثنا الشـــاغل وطننا الذى يتعين علينا أن نحاول انقاذه ، فى فلســـطين جلس بجوارى مرة كمال الدين حسين وقال لى وهو ساهم الفكر شـــارد النظرات هل تعلم ماذا قـــال لى أحمد عبد العزيز قبـــل أن يمـــوت ؟ قلت ماذا قال : ؟ قـــال كمال الدين حسين وفى صوته نبرة عميقة وفى عينه نظرة أعمق : لقد قال لى : اســـمع يا كمال أن ميـــدان الجهاد الأكبر هو فى مصر »(٥٨) .

وبدأ تنظيم الضباط الأحرار فى عام ١٩٤٩ واجتمعت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار فى أواخر سنة ١٩٤٩ وكانت تضـــم فى البداية : البكباشى جمال عبد الناصر والبكباشى أنور الســـادات والصاغ كمال الدين حسين والصاغ صلاح ســـالم وقائد الجناح جمال ســـالم وقائد الأسراب حسن ابراهيم وقائد الجناح عبد اللطيف البغدادى والصـــاغ خالد محيى الدين والصاغ عبد الحكيم عامر .

وفى يناير ســـنة ١٩٥٠ اجريت الانتخابات لرياسة هذه الهيئـــة ، فانتخب جمال عبد الناصر رئيســـا لها بالاجماع ثم فى ســـنة ١٩٥١ وسنة ١٩٥٢ ، وفى تلك الســـنة اتفقوا على اختيار اللواء (محمد نجيب) لكى

---

(٥٨) فلسفة الثورة — ص ١٢

يكون قائدا للحركة فى يوم تنفيذهـا وبقى هـذا الاختيار سرا بينهم ولم يفضوا به الى اللواء محمد نجيب الا قبيل معركة انتخابات نادى ضباط الجيش وهـذه الهيئة هى قوام ثورة ٢٣ يوليو وصارت فيما بعد (مجلس قيادة الثورة) .

ملخص معركة نادى الضباط انه كان قـد تحدد يوم ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٥١ موعدا لاجتماع الجمعية العمومية للنادى لانتخاب رئيس النادى وأعضـاء مجلس ادارته وعلمت ادارة الجيش ، وعلم فاروق بأن الضباط متجهون الى ابعاد العناصر الموالية له من رياسـة النادى وعضـوية مجلس الادارة ، وكان فاروق يريد اسناد رياسة النادى الى صنيعته اللواء حسين سرى عامر ، وفى الوقت الـذى اخذ فيه الأعضاء يفدون على دار النـادى تلقت ادارته أمرا من ادارة الجيش بتأجيل الانتخابات لأجل غير مسـمى .

بيد أن الضباط توافدوا دون أن يعلموا بهذا الأمر وبلغ عـددهم نحو ٣٥٠ ضابطا يمثلون جميع أسـلحة الجيش ، وعلى الرغم من صدور الأمر بالغاء الاجتماع فان الضـباط قد اجتمعوا وأخـذوا يتشاورون فى الموقف ، والقيت الخطب الحماسـية وانتهى الرأى بينهم الى عقد اجتماع آخر للجمعية العمومية حددوا موعده ، وتحدوا بذلك أوامر السراى ، وفى أثناء الاجتماع أعلنوا أسماء الضباط الذين اتفقوا على ترشيحهم لمجلس ادارة النادى ، وجميعهم من الضباط الأحرار ، وتبين من هـذا الترشيح أن الضباط الأحرار مؤيدون من زملائهم جميعا .

وحاول الضباط الأحرار فى هـذا الاجتماع أن يستقطبوا الشـعب المصرى لحركتهم لكى يحدث التجاوب بين الجيش والشـعب فأصـدرت الجمعية العمومية قرارا جماعيا بان الجيش جزء من مصر يشعر بشعورها واحساسها نحو المحتل وانه دائما فى خدمة قضية البلاد(٥٩) .

---

(٥٩) عبد الرحمن الرافعى / مقـدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ — الطبعة الثانية مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٦٤ ص ص ١٠٤ — ١٠٦

وبعد الغاء (معاهدة ١٩٣٦) فى نهاية عام ١٩٥١ قامت فى منطقة القناة حركة مقاومة عنيفة ضــد جيش الاحتلال الانجليزى وقام تشكيل الضباط الاحرار بامداد حركة المقــاومة بالأسلحة والذخائر والضباط(٦٠) ولاشــك أن هذا الكفاح كان من العوامل الفعاله التى جعلت الانجليز يفضــلون الجلاء عن هذه المنطقة ، لانهم رأوا أن مصر بدون اســتعداد قد زعزعت مركزهم فى القنال ، فكم يكون مركزهــم فيها ضعيفا اذا هى أكملت استعدادها الحربى فلا شــك أن هذا الكفاح له أثره فيما انتهى اليه الانجليز من تفضيل الجلاء فى عام ١٩٥٤

قيــام الثــورة :

ولقد كان من المتفق عليه فى اجتماعات الهيئة التأسيسية للضــباط الأحرار أن يكون عام ١٩٥٥ هو العام الذى تقوم فيه الثورة ، وذلك لأجل أن يستكمل الضباط قوته كاملة قبل أن تنطلق الثورة .

ولكن الأمور تطورت بسرعة فى مصر بسبب سلسلة من الأحــداث وقع أولها فى نهايــة ١٩٥١ حينما الغت مصر معاهدة التحالف مع بريطانيا ، واجتمعت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار فى الأسبوع الأول من شــهر يناير ســنة ١٩٥٢ لكى تبحث الموقف الذى كان يتدهور بسرعة ويســوء يوما بعــد يوم وفى هذا الاجتماع وبعد دراسة شاملة للموقف أصــدر الضباط أول قرار لتحــديد موعد لقيــام الثورة وكان شهر نوفمبر ١٩٥٢ على أن يبدأ فى الحال بتعبئة كل قوى الضباط الأحرار داخل القوات المسلحة لمواجهة أى أحداث قد تطرأ على الموقف .

وكانت أسباب اختيار شهر نوفمبر لقيام الثورة هى كما ذكرها أنور السادات فى مذكراته :

أولا : الاستفادة من تنقلات القوات التى تتم فى شهر يوليو من كل ســنة لكى تحشد فى القــاهرة وحدات كاملة من وحدات الجيش الموالية للحركة والتى كانت مبعثرة بين صحراء سيناء والاسكندرية ، وكان ضباط أركان الحرب الذين ينظمون هذه التحركات من الضباط الأحرار .

---

(٦٠) مذكرات محمد أنور السادات — مرجع سبق ذكره — ص ٦٤

ثانيا : ان يكون الملك والوزراء قد عادوا من مصيفهم الى القاهرة لكى تكون الضربة واحدة وكاملة وسريعة من غير حاجة الى معارك أو دماء .

واسفرت الانتخابات عن نجاح مرشحى الضباط الأحرار ، وعلى رأسهم اللواء (محمد نجيب) مدير سلاح المشاة رئيسا للنادى وسقط من الانتخاب الضباط المعروفون بأنهم صنائع الملك وعلى راسهم اللواء (حسين سرى عامر) .

غير أن أيام شهر يناير ١٩٥٢ راحت تمضى والحالة تسوء يوما بعد يوم ، ففى يوم ٢٥ يناير ضربت قوات بريطانيا المسلحة دار المحافظة فى الاسماعيلية حيث توجد بها قوات البوليس المصرى المجردة من كل سلاح اللهم من بنادق الحراسة القديمة وهدمتها فوق ضباط وجنود البوليس البواسل الذين أبوا أن يسلموا كما طلب منهم قائد الجيش الانجليزى(٦١) واسفرت المعركة عن مقتل خمسين من رجال البوليس واصابة نحو ثمانين(٦٢) .

وقرعت انباء هذه المذبحة أسماع أهل العاصمة وتوالت النذر منذ استفاضت الأنباء بأن يوم السبت ٢٦ يناير سيكون يوما عبوسا قمطريرا ، ففى الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم تمرد جنود بلوكات نظام الأقاليم فى ثكناتهم بالعباسية سخطا منهم على ما أصاب زملاءهم بالاسماعيلية وخرجوا حاملين اسلحتهم فى مظاهرة صاخبة وساروا بجموعهم من العباسية الى الأزهر واستمروا حتى جامعة القاهرة (فواد) وهناك اختلطوا بالطلبة وتبادلوا شعور السخط والهياج وسار الجميع فى موكب المظاهرة متجهين الى العاصمة يطوفون الشوارع صائحين صاخبين وبدأت حوادث العنف واشعال الحرائق بالقاهرة ، وتطور العنف الى مظاهرة مفجعة وكانت هذه أول مرة أضرم فيها النار فريق من أبناء

---

(٦١) مذكرات انور السادات — مرجع سبق ذكره ص ٦٤ — ٦٧

(٦٢) عبد الرحمن الرافعى — مقدمات ثورة ٢٣ يوليو — ص ١١٣

القاهرة تحت سـمع الحكومة وبصرها ، وكان هذا الحريق المدمر ختام الكفـاح المجيد فى القنـاة ، واشعلت الحرائق فى شتى نواحى العاصمة وكادت تقضى على عمرانها وعظمتها وجمالها .

ولقـد كانت حوادث ٢٦ يناير من العنف بحيث فكر الملك فاروق وقت ذاك فى الهروب من مصر ، وأعـد قائمة بمن يريدهم أن يصـحبوه فى هروبه ، وأعد حقائبه لذلك ، ووصلت تلك الأنباء الضـباط الأحرار . فاجتمعوا على الفور ، وللمرة الثانية فكروا فى تقديم موعد قيـام الثورة لكى يكون فى شـهر مارس ١٩٥٢ بدلا من شـهر نوفمبر ١٩٥٢ ، الا أن الأمور لم تلبث أن بدات تعود الى شبه استقرار ، مما دعا الملك لأن يعدل عن فكرته ، لكى يبدأ الفصل الأخير من حياته كملك .

اعلان الأحكام العرفية واقالة وزارة الوفـد :

اجتمع مجلس الوزراء فى مسـاء ٢٦ من يناير سنة ١٩٥٢ يوم حريق القاهرة برياسة مصطفى النحاس بمنزله اجتماعا استثنائيا عاجـلا ، وفى هـذا الاجتماع تقرر اعلان الأحكام العرفية فى جميع انحاء البلاد ، ووقف الدراسـة فى الجامعات وجميع المعاهد والمدارس الى اجل غير مسمى ، وتقرر فى هـذا الاجتماع ايضا تعيين مصطفى النحاس حاكما عسكريا عاما ، وعلى اثر ذلك أصـدر الحاكم العسكرى عـدة قرارات بمنع التجول فى القاهرة وضواحيها وبندر الجيزة منعا باتا فيما بين السـاعة السادسة مسـاء والساعة السادسة صباح اليوم التالى ابتداء من مسـاء الأحد ٧٢ من يناير سـنة ١٩٥٢ ، كما أصدر أمرا عسكريا آخر يمنع التجمهر ، ومعاقبة كل من يشترك فيه بالحبس مـدة لاتزيد عـن سنتين ، واذا كان حاملا سلاحا يعاقب بالسجن مدة خمس سنوات .

وهكذا كان آخر عمل لوزارة الوفـد اعلان الأحكام العرفيـة فى البلاد ، ذلك لأنهـا أقيلت فى اليوم التالى ، وتسلم النحاس فى مسـاء ٢٧ من يناير كتاب اقالة وزارته موقعا عليه من الملك السـابق فاروق ، وقـد عبر فيه عن أسفه لمـا اصاب العاصمة من خسائر بسبب تقصير وزارة النحاس فى حفظ الأمن والنظام (٦٣) .

---

(٦٣) عبد الرحمن الرافعى — مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ص ١٢٧

وزارات الموظفين :

ومنذ ٢٧ من يناير سنة ١٩٥٢ الى يوليو سنة ١٩٥٢ تعاقبت على البلاد وزارات من المستقلين أطلق عليها بعض المؤرخين « وزارات الموظفين(٦٤) » نظرا لأن رؤساءها لاعلاقة لهم بالأحزاب ، وكانوا أصلا من كبار الموظفين وأعضائها فى الجملة من الموظفين لا من رجال السياسة ، وقد فرضت هذه الوزارات على البلاد فرضا ، لأن البلاد كانت تريد وزراء لهم برامج سياسية معروفة ، أو ماض فى الجهاد تعرف منه صلة صاحبه بميول الشعب وما ينشده من أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية ، وكان الشعب يريد وزراء تتجاوب آراؤهم ومناهجهم مع حاجات الشعب ومطالبه ، لاموظفين كل ماضيهم أنهم كانوا ينفذون أوامر رؤسائهم . وكان قيام الموظفين يعنى عودة الحكم المطلق وفيه تحطيم للحياة السياسية فى البلاد لأن الحياة السياسية لاتنهض فى ظل وزارات الموظفين ، بل تنهض فى ظل وزارات نابعة من اتجاهات جماهيرية بحته تعبر عن آمال الشعب وتكافح عن قضيته ، وليس مهمتها تنفيذ أوامر الحاكم وتدعيم حكمه المطلق وبذلك دخلت البلاد فى فوضى وزارية ، ففى بحر ستة أشهر تعاقبت على البلاد أربع وزارات :

١ — وزارة على ماهر من ٢٧ يناير — أول مارس ١٩٥٢

٢ — وزارة أحمد نجيب الهلالى من أول مارس — ٢٨ يونيو ١٩٥٢

٣ — وزارة حسين سرى من ٢ — ٢٠ يوليو ١٩٥٢

٤ — وزارة احمد نجيب الهلالى الثانية من ٢٢ يوليو — ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

---

(٦٤) المرجع السابق ص ٤٢٨

قرار قيـــام الثــورة :

وكان تعاقب هذه الوزارات بهذه السرعة مما يدل على مبلغ الفوضى وعـــدم الاستقرار فى الحكم فى فترة عصـــيبة من تاريخ مصر ، وكان الملك الســـابق فاروق ينوى فى وزارة الهلالى الثانيـــة أن يفرض سيـــطرته وارادته على الجيش بعـــد اعلان عدائه له ، ومن أجل هـــذه الغاية فقد فرض صهره (اسماعيل شيرين) ليكون وزيرا للحربية ، وفى هذا امتهان لكرامة ضباط الجيش ، وقـــد كان اسماعيل شيرين هو نفس الرجل الذى ســـقط فى انتخابات نادى الضباط رغم تزكية الملك له وكان معنى هـــذا أن صراعا لابد أن ينشأ بين تنظيم الضباط الأحرار وبين الوزير الجديد .

وفكر تنظيم الضباط الأحرار بسرعة قبل فوات الأوان ، وكان رأيهم هو أنه : « اذا كان لابد من صراع فليكن هـــذا الصراع من أجل مصر » وحدد الضباط الفترة من ٢٢ يوليو الى ٥ أغسطس ســـنة ١٩٥٢ لبدء الثورة وأبلغ بهـــا أعضـــاء التنظيم فى جميع أســـلحة الجيش ، وكان نص القرار :

« تحددت الفترة من ٢٢ يوليو الى ٥ أغسطس ســـنة ١٩٥٢ لبـــدء المشروع(٦٥) » وكان المشروع هو الثورة .

ســـاعة الصـــفر :

وفى صباح الثلاثاء ٢٢ من يوليو ١٩٥٢ اجتمعت الهيئة التأسيسيـــة للضباط الأحرار بمصر الجديـــدة ، وقرر الضباط فى هذا الاجتمـــاع ان تكون ساعة الصفر الليلة (ليلة ٢٣ يوليو) ووضعت الخطـــة بحيث يشترك فى تنفيذها وحدات من جميع أسلحة الجيش ، وفى الساعة الواحـــدة والنصف من صبيحة الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قـــام قواد الثورة باحتلال المراكز الهامة لأسلحة الجيش ووضـــعوا عليها حراسة مشددة ، وبذلك تـــم الاســـتيلاء على الجهاز الحربى الذى تتركز فيـــه قوة الجيش وتم اعتقال

(٦٥) مذكرات محمد انور السادات . مرجع سبق ذكره ص ٧٠.

كبار الضباط القــدامى من قواد الآســلحة ومن فى حكمهم قبل ســاعة الصفر بوقت مناسب ، لأن قيادة الثورة خشيت أن يكون وجودهم احرارا سببا فى فشــل الحركة ، أو أن يكون لهم تأثير فى مجرى الحوادث .

وحدثت مقاومة للثورة هى الوحيدة من نوعها التى حــدثت فى تلك الليلة ، عندما ذهبت قوة للقبض على الفريق حسين فريد رئيس هيئــة اركان حرب الجيش وكان موجودا فى مبنى رئاسة الجيش بكوبرى القبة ، بيد أن القوة المكلفة بالمهمة تمكنت من التغلب على المقــاومة البسيطة التى حدثت من الحراس ، وقتل فى هذه الحركة اثنان من الجنود احــدهما من الحرس والآخر من جنود الثورة . وتم القبض على رئيس هيئــة أركان الجيش كما اعتقلوا من معه من كبار اللواءات وارسلوهم الى الكلية الحربية واعتقلوهم بهــا .

وتم احتلال كثير من المرافق الهــامة بالعاصمة ، كالمطارات ومحطة القــاهرة ، ومصلحة التلغراف والتليفونات ، والكبارى الهامة عند مداخل القاهرة ، وعسكرت فصائل أخرى فى الميادين العامة بالعاصمة ، وسيطر الضباط الأحرار على العاصمة تماما .

البيــان الآول :

وفى الســاعة الرابعة صباح يوم ٢٣ يوليو احتلت قوة من الجيش دار الاذاعة المصريــة وبعد ذلك دخل البكباشى أنور السادات أحد قادة الثورة غرفة المذيع التى تتلى فيها نشرة الآخبار الصباحية وأذاع بنفسه على الشــعب البيان الأول للثورة بلسان القائد العام للقوات المسلحة فى الساعة السابعة والنصف من صبيحة ٢٣ يوليو وهذا نصه :

« اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعــدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هــذه العوامل تأثير كبير علــى الجيش ، وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلســطين ، وأما فترة ما بعد هــذه الحرب فقد تضافرت فيهــا عوامل الفساد ، وتآمر الخونة على الجيش ، وتولى أمره اما جاهل أو فاسد حتى تصبح بلادنا

بلا جيش يحميها ، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا . وتولى أمـــرنا فى داخل الجيش رجال نثق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم ، ولابد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب .

« أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش الســـابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر وسيطلق سراحهم فى الوقت المناسب ، وانى أؤكد للشـــعب المصرى أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصـــالح الوطن فى ظل الدستور مجردا من أية غاية ، وانتهز هـــذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحـــد من الخونة بأن يلجأ لأعمـــال التخريب أو العنف ، لأن هذا ليس فى صالح مصر ، وأن أى عمل من هـــذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيـــل وسيلقى فاعله جزاء الخائن فى الحال ، وسيقوم الجيش بواجبه هـــذا متعاونا مع البوليس ، وانى أطمئن اخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهـــم ، ويعتبر الجيش نفسه مسئولا عنهم ، والله ولى التوفيق » .

وتوالت بعد هذا البيان عدة بيانات بدأت تعرف بالثورة وأهدافها ، وعندما استمع الشعب الى هذه البيانات قابلها بالبشر والارتياح وفرح المواطنون . فقـــد كان الفساد قد بلغ ذروته وكان الشعب يتطلع الى الثورة كوسيلة لتحريره من الظلم والفساد .

خلع فاروق ومغـــادرته البلاد :

وكان الملك فاروق مقيما فى الاســـكندرية بقصر المنتزة يعبث ويلهو وفوجىء بالثورة ولم يكن يعلم غرضهـــا فلم تكن البيانات الأولى للثورة تحدد ما اعتزمت عليه ولكن بعد ذلك زحفت قوات الثورة على الاسكندرية بقيادة زكريا محيى الدين وانضمت اليها قوات الجيش والبحرية بالاسكندرية، وقـــد انتقل الملك الى قصر رأس التين ، وفى يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ سلم رجال الثورة انذارا الى على ماهر (الذى قام بتشكيل وزارة جديدة بناء على رغبة الضباط الأحرار) لتبليغه الى الملك فاروق بالتنازل عن العرش وأذعن الملك وتنازل عن العرش لولى عهده الأمير أحمد فؤاد وكان هذا

الانذار بأمضـــاء الفريق محمد نجيب المتحدث باســـم الضباط الأحرار ، فى تلك الفترة ، كما طلب الثوار من الملك أن يغـــادر البلاد قبل الســـاعة السادسة مساء ٢٦ يوليو ، وأذعن الملك لارادة الثوار ، وغادر البـــلاد الى منفاه فى ايطاليا .

وبذلك طويت صفحة أسرة محمد على التى حكمت البلاد نحو مائة وخمسين عاما، وكان فاروق هـــو العاهل الوحـــيد من أسرة محمد على الذى خلع بارادة الشعب ، ولـــم يحدث تدخل أجنبى ضد حركة الجيش .

وقد توافدت الهيئات الشـــعبية ، وزعماء الأحزاب الى قيادة الثورة بالاســـكندرية يؤيدون رجال الثورة ، ويعبرون لهم عن تمنياتهم للثورة بالتوفيق والنجاح .

والواقع ان قوة الجيش التى حققت الانتصـــار فى ثورة يوليو لم تكن منفصلة عن الشعب وعن أمانيه فى تحقيـــق الحـــرية ، وانما كانت أداته فى تحقيق ما يصبوا اليه ، وهذه المعانى قد أكدها الميثاق الوطنى فيما يلى :

« ان أعظم مـــا فى ثورة ٢٣ يوليو ســـنة ١٩٥٢ أن القوات التى خرجت من الجيش لتنفـــذها لم تكن هى صانعة الثورة وانما كانت أداة شعبية لهـــا .

لقد كانت المهمة الكبرى للطلائع الثورية التى تحركت فى الجيش تلك الليلة الخـــالدة هى أنهـــا أستولت على الأمور فيه ، واختارت له المكان الذى لا مكان غيره وهو جانب النضال الشعبى .

« انهـــا قامت بعملية تصحيح للأوضاع بالغ الأهمية والخطر فى تلك الظروف متحدية بذلك ارادة كل القوى الحاكمة التى أرادت عزل الجيش عن النضال الشعبى .

« ان الثورة تفجرت تلك الليلة العظيمة من انضـــمام الجيش الى مكانه الطبيعى تحت قيادة الشعب وفى خدمة أمانية . ان الجيش فى تلك الليلة أعلن ولاءه للنضـــال الشعبى ومن ثـــم فتح الطريق أمـــام ارادة التغيير(٦٦) .

---

(٦٦) الميثاق الوطنى .

ولقد أذهلت هــذه الضربة السريعة التى تمت فى سريـــة مطلقة المخابرات البريطانية وقــد كان رجالها يملاءون شـــوارع مصر واجوائها فى تلك الأوقات وكان جهازها متغلغلا فى كل الآوساط وكانت له ســـمعة أسطورية بمعنى أن مجرد ذكر اســـم قلم المخابرات البريطانية كان يعنى القوة التى لا قبـــل لأحد بها والمقدرة الخارقة على معرفة ما يجول حتى فى نفوس النـــاس قبل أن ينطقوا به وكان الانجليز مغرورين جدا بهـــذه المخابرات ، ومن ثم كانت الضربة مذهلة حينما قامت الثورة وليس لدى مخابراتهم علم ســـابق كما تعودوا فى كل الأحـــداث أن يتنبؤا بهـــا قبل وقوعهـــا .

ولقد تجاهل رجال الثورة بريطانيا كما تجاهلوا الســـفارة البريطانية تجاهلا تاما فطعنت هيبتهم فى الصميم من أول لحظة ولقـــد كانت السفارة البريطانية منذ ساعات مصـــدر السلطات فى مصر وقبلة القصر الـــذى يحكم البلاد وكان هـــذا التصرف طبيعيا بعـــد كل تلك السنين الطـــوال من الاحتلال والاذلال ، أما بالنســـبة لأمريكا فعلى الرغم من أن الضباط الآحرار كانوا يعلمون أن هنـــاك صداقة وطيدة بين ســـفير أمريكا والملك الســـابق الا انهم اتصلوا بالسفير الآمريكى ، وأبلغوه أن حركة الجيش حركة داخلية هدفهـــا الاصلاح وعقد رجال الجيش صداقة مع الســـفير الآمريكى كانت لها فائدة فى المراحل الأولى للثورة(٦٧) .

ولم تتحرك بريطانيا نظرا لآن قبضتها قـــد تراخت عن مصر وعن الشرق عامة فلم تقو على التدخل كما تدخلت من قبل سنة ١٨٨٢ للحيلولة دون نجاح الثورة العرابية .

وهناك عامل آخر منع بريطانيا من التدخل : وهو اليقظة الوطنية ، فقـــد كانت مصر خطت خطوات واسعة فى الحركة القومية فى النصـــف الأول من القرن العشرين وأصبح صوت الشعب مسموعا فى كل المجالات ، الأمر الذى لا يمكن مقـــارنته بوضع مصر ابان الثورة العرابية وما كان

(٦٧) مذكرات أنور السادات ، مرجع سبق ذكره ص ٧٨

فيهـا من تدخل أجنبى سـافر منتشر فى جميع مرافقها ، هـذا على الرغم من وجود جيش الاحتلال بالقناة ، الا أن الوضع الدولى والذى من جملته ضعف بريطانيا ، ويقظة الأمة المصرية وقوتها التى ظهرت بوضـوح فى كفاحها فى القناة قبيل الثورة مباشرة » هـذان العاملان الجوهريان حالا دون التدخل الأجنبى للقضـاء على ثورة يوليو ، وثمة عامل آخر هو عامل المفاجأة ، فقد كان لرجال الثورة الفضـل فى تدبيرها وانفاذها فى سرعة حاسمة جعلت بريطانيا أمام الأمر الواقع ، ولم يكن فى استطاعتها أن تضع امامها العراقيل مثلما فعلت فى ١٨٨١ — ١٨٨٢ فقـد كانت تكشف خطوات الثورة العرابية خطوة بخطوة مما سهل لهـا رسم أبعاد الموقف ، ومن ثم آثرت بريطانيا موقف السكوت والتربص لمـا يأتى بـه الغد ، وأذاعت وزارة الخارجية البريطانية يوم ٢٦ يوليو بيانا رسميا قالت فيه .

« ان بريطانيا ترقب بحذر شـديد الموقف القائم فى مصر فى الوقت الحاضر ولكنها لاتنوى أن تتدخل فى هـذه الحركة التى تعتبرها من شئون مصر الداخلية ولن تتردد بريطانيا فى اتخاذ الاجراءات اللازمة فى حالـة تعرض الأرواح والمصالح البريطانية للخطر » .

وازاء هـذا الموقف المتربص من بريطانيا لزمت السفارات الأجنبيـة عامة موقف الصمت والحياد .

مبـادىء الثـورة :

كان على رجالا الثورة أن يستوعبوا آمال الشعب فى نضاله الطويل الذى خاضه ضـد الأطماع الخارجية والاستبداد والفسـاد الداخلى ، ومن ثم بلوروا مطالب الشعب فى مبادىء ستة ، هى تصوير صادق لأهداف النضال الشعبى ، أعلنتها الثورة لكى تكون اطارا للعمـل فى المسـتقبل لبناء المجتمع الجديد وكانت على النحو التالى :

١ — « القضاء على الاستعمار واعوانه من الخونة المصريين » وكان هـــذا المبدأ لمواجهة جيوش الاحتـــلال البريطانى الرابضـــة فى منطقـــة قناة الســـويس .

٢ — « القضاء على الاقطاع » وذلك فى مواجهة تحكم الاقطاع الذى يستبد بالأرض ومن عليها .

٣ — « القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المـــال على الحكم » وذلك لمواجهة تسخير موارد الثروة لخدمة مصالح مجموعة من الراسماليين .

٤ — « اقامة عدالة اجتماعية » للقضاء على الاستغلال والاستبداد .

٥ — « اقامة جيش وطنى قوى » للوقوف فى مواجهة المؤامرات لاضعاف الجيش واستخـــدام ما تبقى من قوته لتهديد الجبهة الداخلية المتحفزة للثورة .

٦ — « اقامة حياة ديمقراطية سليمة » وذلـــك فى مواجهة فترة الاضطراب الحزبى والتزييف السياسى التى سبقت الثورة ، وحاولت أن تطمس معالم الحقيقة الوطنية .

لقد كانت هـــذه المبادىء هى تجارب هذا الشعب فى نضاله الطويل الذى خاضـــه منذ النصـــف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى حتى صبيحة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وبمعنى آخر كانت حصيلة نضال زعماء الشعب من علماء الأزهر فى عصر ماقبل الحملة الفرنســـية وابان الحملة الفرنسية وفى عصر الأضطراب السياسى الذى أعقب خروج الحملة الفرنسية وتوج بحركة عمر مكرم فى ١٨٠٥ ، كما كانت حصيلة نضـــال الثورة العرابية ، وكفاح مصطفى كامل وثورة ١٩١٩ وكفاح الشـــعب فى فترة ما بين الحربين العالميتين ، وهـــذا ما اشار اليه الميثاق الوطنى بانصاف حين أعلن « ان هـــذه المبادىء الستة التى أسلمهـــا النضـــال الشعبى المتواصـــل الى الطلائع الثورية التى جندها لخدمته من داخل الجيش والطلائع الثوريـــة التى تجاوبت معها تلقائيا وطبعيا من خارجه لم تكن نظرية عمل ثورى كاملة ، ولكنها كانت فى تلك الظروف دليلا لعمل يمثل عمق هـــذه الارادة

الثورية ويلبى احتياجاتها ، ويبرز تصميمها على بلوغ الشوط الى مداه(٦٨) .

وتلك المبادىء السته هى التى حـددت معالم الطريق أمام ثـورة يوليو وفتحت الآمال أمام الشـعب لكى يتخلص من آلامـه التى عاقت مسيرته طوال تاريخه الطويل ، وينتقل من عهد الاقطاع والاستغلال الى عهد تسـوده الحرية والعدالة الاجتماعية . وهـذه المبادىء فى حد ذاتها لاتعتبر نظرية ثورية متكاملة سبقت قيـام الثورة ، وانما كانت اطـارا للعمل ، أو دليلا للعمل الثورى نحتته ارادة الثورة من مطالب النضـال الشعبى طوال العهود ، ولقد كان مجرد اعلانها فى حـد ذاته ، فى جو المصاعب والظلام ، دليلا على صـلابة ارادة التغيير الثورى ، وعنـادها الذى لايلين ، ويؤكد الميثاق الوطنى ذلك بقوله : « ان قوة الارادة الثورية لدى الشـعب المصرى تظهر فى ابعادها الحقيقية الهائلة اذا ما ذكرنا أن هـذا الشعب البطل بدأ زحفه الثورى من غير تنظيم سـياسى يواجه مشـاكل المعركة ، كذلك فان هـذا الزحف الثورى بدأ من غير نظرة كاملة للتغيير الثورى .. » .

« ان اراد الثورة فى تلك الظروف الحافلة لم تكن تملك من دليـل للعمل غير المبادىء السـتة المشهورة التى نحتتها ارادة الثورة من مطالب النضال الشعبى واحتياجاته .

وقال جمال عبد الناصر بعـد ذلك (فى بيان له فى افتتاح مجلس الأمة فى دور الانعقاد الأول فى ٢٦ مارس ١٩٦٤) عن هـذه المبادىء : « لم يكن هنـاك غير هذه المبادىء الستة مجرد اشارات الى طريق صعب وبعيد ومع ذلك فلقد بـدات يومها اغراقا فى التفاؤل خصوصا فى جو الواقع الذى ولدت منـه كرد عليه وقبول لتحديه . ان هـذه المبادىء السـتة بشكلها العام وببساطتها وبرغم كل التحديات التى كانت تواجهها استطاعت أن تكون سـلاحا للانسان المصرى ، يكفل له النصر فى صراعه مع وحوش الأعماق ، وفوق ذلك فلقد استطاعت أن تحقق له النصر قبـل أن يضيق صـدره ، ويفرغ ما اختزنه فى رئتيه من أنفاس الثورة ، ويصعد

---

(٦٨) الميثاق الوطنى — الباب الأول .

الى السطح ليملأ رئتيه بالهواء النقى عائدا الى الحياة منتصرا وسيدا » .

وخلاصة القول أن هذه المبادىء تعتبر من أهم المعالم على طريق الثورة نحو التحول الكبير الى الثورة السياسية والثورة الاجتماعية التى أرادت الثورة تحقيقها .

نظرة عامة على التطبيق :

بعد مرور الزمن اتضحت لنا الرؤية للحكم على أبعاد تلك التجربة الثورية ، ويمكننا الآن أن نلقى نظرة عامة على مدى نجاح الثورة فى تحقيق تلك المبادىء الستة التى قلنا عنها انها كانت حصيلة نضال الشعب المصرى على مدى نضاله الطويل .

بالنظر الى هذه المبادىء الستة بصفة عامة ، نجد أنها تنقسم الى قسمين : فالثلاثة الأولى منها تتعلق بازالة ما كان من نظم ، وهدم ما كان من أوضاع فاسدة وهى القضاء على الاستعمار واعوانه من الخونة المصريين ، والقضاء على الاقطاع ، والقضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم ، ونستطيع أن نجزم بأن الثورة قد نجحت فى هذا الى حد بعيد ، باستثناء ما شاب ذلك من اخطاء فى التطبيق كفرض الحراسة الجائرة على كثير من المصريين والتمادى فى ظلمهم عن طريق لجنة تصفية الاقطاع التى كان يرأسها عسكريون بقيادة المشير عبد الكيم عامر ، والتى أشار الى مظالمها اخيرا محمد أنور السادات(٦٩) .

والثلاثة الأخر تتعلق بالبناء : وهى اقامة عدالة اجتماعية واقامة جيش وطنى قوى ، واقامة حياة ديمقراطية سليمة أما بالنسبة لاقامة العدالة الاجتماعية التى يرنو اليها الشعب المصرى منذ نضال علماء الأزهر قبل الحملة الفرنسية وأثنائها وفى مطلع القرن التاسع عشر وما تلا ذلك من ثورات وانتفاضات شعبية ، وكانت فى مقدمة مطالب الشعب على مر العصور ، وقد حاولت ثورة يوليو فى هذا المجال

---

(٦٩) انظر : خطاب محمد أنور السادات أمام اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى بتاريخ ١٩٧٥/١١/٢٠ ، الأهرام ، الأخبار ، الجمهورية فى ١٩٧٥/١١/٢١

أن تقوم باعـــادة توزيـــع الثروة وخاصـــة فيما يتعلق بالاصلاح الزراعى وتوزيع الملكية الزراعيـــة على صغار الملاك والفلاحين ، ولكن مازالت هناك خطوات طويلة فى هـــذا المجال ، لكى تحقق العدالة الاجتمـــاعية الحقيقية التى هى على رأس مطالب الشعب المصرى منذ قديم الزمان .

وبالنسبـــة لاقامة جيش وطنى قوى فان الثورة قـــد حاولت فى هذا المجـــال كثيرا بيد أنها اخفقت فى عهد جمال عبد الناصر ، وذلـــك بسبب تـــدخل الجيش فى الحياة المدنية ، وترك العسكريين الخدمة فى صـــفوف الجيش وهجره حبا لمكاسب المناصب المدنيـــة ، التى اتيحت لهم فى عصر جمال عبد الناصر وسيطرة المشير عبد الحكيم عامر ، الأمر الذى جعـــل الحياة العسكرية غير مستقرة ، هـــذا بالاضافة الى اعتماد الجيش علـــى الأسلحة الروسية وحدها وعلى الخبراء الروس الذين ثبت أخيرا عـــدم اخلاصهم لمصر ، وتدخل الروس بنـــاء على هذا الاعتماد عليهم فى الشئون العسكرية المصرية ، وضللوا القادة المصريين .

وقد كشف النقاب أخيرا عن أن الاتحاد السوفيتى أبلغ عبد الناصر فى مايو ١٩٦٧ أن اسرائيل قد حشدت عشر فرق عسكرية بقصـــد الاعتداء علـــى سوريا ، وقد ثبت بعد ذلك كذب ذلك البلاغ(٧٠) وكان القصد منه استدراج القوات المصرية الى الصحراء المكشوفة لتوجيه ضربة مفاجئة اليها ، وفى النهاية تركع مصر أمام التدخل السوفيتى فى شئونهـــا العسكرية والمدنية ، وذلك لحاجتها الى الســـلاح للدفاع عن كيانها ، ولم يكن لهذا السلاح مصدر آخر سوى الاتحاد السوفيتى ، كما زاد تدخل السوفيت بناء علـــى ذلك فى الحياة المدنية ، وتكونت فى مصر شر ذمة من عملاء الشيوعيـــة أخذوا ينشرون الفكر المـــاركسى فى البلاد .

وعلى ذلك يمكننا القول بأن الجيش المصرى القوى الـــذى أرادت الثورة أن تكونه قـــد أخفقت فيه وجانبها الصواب ، ومن ثـــم هزم ذلـــك الجيش فى حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ ، وحلت نكسة اليمة بالشعب المصرى حطمت أعصابه ، ولم ينقذه منها الا ما حدث أخيرا من نصر فى حرب رمضان المجيده .

---

(٧٠) من خطاب السادات فى ١٩٧٥/٩/٢٩

وفى عهد محمد أنور الســادات حدثت تغييرات جذرية فى هــذا المجال فبعد قيامه بثورة ١٥ مايو ١٩٧١ بدأ فى تصحيح الأوضــاع وتطهير الجيش والحياة العــامة من مراكز القوى ، وبدأ يعمل على عــدم تدخل الجيش فى الحياة المدنية وأن العسكريين للجيش فقط ، كما حرر الجيش من الخبراء الروس الذين كانوا قيــدا على الارادة المصرية ، وأمر بطردهم من مصر فى عام ١٩٧٢ ، وبذلك بدأ أولى الخطوات على الطريق العسكرى الســليم واقامة جيش وطنى قوى استحق أن ينتزع النصر من العــدو الاسرائيلى فى حرب رمضان ١٢٩٣ هـ (أكتوبر ١٩٧٣ م) .

ورأينا بعد ذلــك رجال الجيش وعلى رأســهم الفريق أول محمد عبد الغنى الجمسى وزير الحربية يضربون بيد من حديد لكل من تســول له نفســه من رجال الجيش التدخل فى الحياة المدنية ، فقد نشرت الصحف المصريــة بتــاريخ ٧ من نوفمبر ١٩٧٥ نبــأ محاكمة عســكريين طلبــا الانضمام لأحد المنابر فى الاتحــاد الاشتراكى(٧١) ، وقال وزير الحربيــة فى بيان أعلنته وزارة الحربية فى هــذا الصدد : « ان القوات المسلحة أخذت من المــاضى عبرة ودرسا عندما ابتعدت عن عملها العســكرى وتدخلت فى غير شئونها ، وكان ذلك ضمن أسباب نكسة عام ١٩٦٧ وأعلن الفريق أول محمد الجمسى فى بيانه . « أن القوات المسلحة تحترف عملهــا العسكرى ولاتقحم نفسهــا فى أى عمل آخر ، ولن تســمح لأى رجــل عسكرى مهما تكن رتبته أو وظيفته العمل فى السياسة أو فى أى عمل آخر طالمــا أنه فى الخدمة العسكرية »(٧٢) .

وأما بالنسبة لاقامة حياة ديمقراطية ســليمة ، (فان هذه الحيــاة الديمقراطية الســليمة) لم تقم الى الآن « ١٩٨٤ » وقــد أكد هذا محمد أنور الســادات فى خطابه الى الشعب المصرى فى ٢٠ من نوفمبر ١٩٧٥ فقال ما نصه بالحرف الواحد :

---

(٧١) كان قد أعلن فى غضون عام ١٩٧٥ عن انشاء منابر للرأى داخل الاتحــاد الاشتراكى لتنظيم المعارضة أو تنشيطها ، ثم أعن السادات عن تسميتها تنظيمات ، وحصر هــذه التنظيمات فى ثلاثة فقط : وسط ويمين ويســار .

(٧٢) انظر : الأهرام والأخبار بتاريخ ٧ من نوفمبر ١٩٧٥

« ينبغى أن نكون أمناء مع أنفسنا ، لم تتحقق الديمقراطية الى هذه اللحظة » وعرض الرئيس ، بأمانة لبعض الأمثلة ومنها برلمان ١٩٥٧ فقد اعترضت الحكومة أيامها على بعض المرشحين ، واغلقت بعض الدوائر على البعض الآخر ، وكان واضحا أن هذه ديمقراطية ناقصة ، والمجلس المصرى السورى ١٩٦٠ كان مجلسا بالتعيين ، كما ذكر سيادته أن القائمين على الانتخابات فى الاتحاد الاشتراكى كانوا يحاولون التدخل مع بعض أفراد من السلطة التنفيذية لصالح مرشح دون آخر ، وحصل هذا فى سنة ١٩٦٤ واستمر حتى سنة ١٩٦٨ بعد هزيمة ١٩٦٧(٧٣) .

وأشار السادات فى خطابه السالف الذكر أن جمال عبد الناصر قد ركز السلطة فى يده من سنة ١٩٥٢ حتى وفاته فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ لأنه كان يرى أن ذلك كفيل أن ينجز وأن يوقف أخطاء كثيرة ، أو أنه سيعطى دفعة لانجاز أكبر ، أو يحل المشاكل ، ولكن تكونت مراكز القوى فى ظل هذا الحكم الفردى لأن تركيز السلطة فى يد واحدة أمر مستحيل(٧٤) .

كما أكد السادات هذا المعنى من قبل فى خطابه الى أعضاء مجلس الشعب المنتخب فى ظل التنظيمات السياسية الثلاثة (يمين وسط يسار) ١٩٧٦ وهى أول انتخابات نظيفة منذ قيام الثورة ، فقال : « ان الانتخابات التى وقعت فى عام ١٩٥٧ كانت محوطة — بحكم الظروف — بقيود كثيرة منها : حق الاعتراض على بعض المرشحين ، ومنها اغلاق بعض الدوائر لمرشحين آخرين » لم يكن هناك اذن برلمانا ديمقراطيا كاملا ، ولكنه كان مقيدا ، بما أسماه السادات مرارا باسم « الشرعية الثورية » وذلك تمييزا لها عن « الشرعية الدستورية » التى تعود فيها الحياة الى قوانينها ، وتستند فيها الديمقراطية الى نصوص ومؤسسات(٧٥) .

---

(٧٣) انظر : فى ذلك خطاب محمد أنور السادات أمام اللجنة المركزية فى ٧٥/١١/٢٠ وذلك حول كيفية اقامة ديمقراطية سليمة فى مصر .

(٧٤) انظر المصدر السابق .

(٧٥) انظر خطاب السادات فى افتتاح مجلس الشعب فى ١١ من نوفمبر ١٩٧٦ . الأهرام وغيرها من الجرائد عدد ١٢ من نوفمبر ١٩٧٦

عودة الأحزاب :

منذ عام ١٩٧٦ ومصر تخوض تجربة الديمقراطية من جديد فقد سمحت الحكومة فى عهد الســـادات بتحويل الاتجاهات السياسية فى مجلس الشعب الى أحزاب ، فبرز الى الســـاحة الحزبية عدة أحزاب هى : الحزب الوطنى وهو حزب الحكومة ، وحزب الأحرار وحزب العمـــل وحزب الوفد الجديد وحزب الأمة وحزب التجمع التقـــدمى ، وتم الغاء الاتحاد الاشتراكى تماما . ولقد تعثرت هـــذه التجربة الديمقراطية فى نهاية عهد الســـادات واضطر الى ايقافها بحجة استكمال تحرير سيناء .

ومنذ تولى حسنى مبارك مسئولية الحكم فى اكتوبر ١٩٨١ ومصر تخطو خطوات واثقة نحو الديمقراطية وســـيادة القانون ، كما أنها مقدمة هذا العام (١٩٨٤) على انتخابات يتمنى الجميع أن تكون نظيفة ، والأمـــل معقود على نواب الأمة فى ارساء حياة ديمقراطية سليمة تنتشل البلاد من التخلف والفوضى .

الثورة السياســـية والاجتمـــاعية :

عملت الثورة منذ يومهـــا الأول على تحقيق الحرية السياسية والحرية الاجتماعية للشعب المصرى ، وسارت الثورة السياسية جنبا الى جنب مع الثورة الاجتماعية .

غير أن معالم الثورة السياسية كانت غالبة فى المدة من ١٩٥٢ — ١٩٦١ وبعد عام ١٩٦١ كانت القرارات الثورية الاشتراكية التى أحدثت تغييرا اجتماعيا مذهلا فى داخل البلاد .

ففى ٥ ديسمبر سنة ١٩٥٧ أى بعد مرور خمسة أعوام على الثورة بين جمال عبد الناصر للشعب سياسة الثورة ومنهجها فيقول :

« سارت معركة الحرية من أول يوم من أيام الثورة ... متجهة الى هدف واحـــد » لكل مواطن من ابنـــاء هذا الوطن ، هو الاستقلال الكامل ، وفى نفس الوقت سارت معركة البناء ولم نفترض أن هذه الثورة ثورتان فى وقت واحـــد ، ثورة سياسية وثورة اجتماعية ، وكل ثورة منهما لهـــا

خصائصها . ان الثورة السياسية والثورة الاجتماعية لم تصطدما ... صارت الثورة السياسية والثورة الاجتماعية معا على نحو متناسق .

« فى الوقت اللى كنا بنطلب من القوات البريطانيــة أن تخرج من مصر ، كنا فى نفس الوقت بنقضى على الاقطاع ، كنا بنحقق الاصلاح الزراعى فى الوقت اللى بنعمـل ... ونتحدث علشــان نقضى على الاســتبداد السياسى (!! ؟) كان التصــنيع من أجل الشعب على قدم وســاق ، وكانت التنمية فى الاقتصــاد القومى تأخذ سبيلها ، وكان تحقيق الاستقلال الاقتصادى يأخذ طريقه .

« حينما قامت الثورة لم يكن هناك برنامج للثورة : الاجتماعية ولكن كان هنــاك أهداف عامة ما كانش فيه برنامج مفصــل وحينما بــدات الثورة .. وحتى نسير فى الثورة الاجتماعية جمعنا كل الوعود التى بذلت لهذا الوطن ، ولم تنفذ وعملنا على تنفيذها .

« حققنا الاستقلال الكامل فى معركة واحــده متصلة ... المعركة الأولى كانت من أجل اخراج الانجليز من بلدنا ... والمعركة الثانية كانت من أجل تحصين أنفسنا ، ومنع الاستعمار من أن يعود الينا بأى وســيلة من الوســائل ... » .

أولوية الثورة السياســية :

وكان طبيعيا أن تكون أولويات الثورة للتغيير السياسى ، وذلك نظرا لتحديد الثورة التى تتمثل فى الاســتعمار وأعوانه فى الـداخل والخارج فكان الأمر يقتضى منذ البداية معركة سياسية داخلية بقصــد تطهير الجبهة الداخلية من قواعد الفساد وصنائع الاستعمار ، فبعد أن قضت الثورة على الملكية اتجهت بعـد ذلك الى الأحزاب تدعوها لتطهير صفوفها . ولكن الأحزاب لم تستطع أن تتخلص من رواسب المــاضى وتتفهم حقيقة المرحلة الجديدة ، وبعد أن تأكد لــدى الثورة عــدم جدية العناصر الحزبيــة ، أصدرت الثورة فى ١٠ من ديسمبر سنة ١٩٥٢ باســم الشعب ، أنهُ قــد أصبح لزاما أن تغير الأوضاع التى كادت تؤدى بالبلاد والتى كان يسندها دستور سنة ١٩٢٣ ، ومن ثم كان قرار الغاء دستور ١٩٢٣ :

وفى ١٨ يناير ١٩٥٣ أصدرت الثورة مرسوما(٧٦) بحل الأحزاب السياسية ومصادرة أموالها . وأعلن حظر القيام فى المستقبل بأى نشاط حزبى من أى نوع (! ! ؟) .

هيئة التحرير أول تنظيم سياسى للثورة :

وكان لابد من التفكير فى تنظيم سياسى شعبى بديل ، يلائم تلك المرحلة الأولى من مراحل الثورة فتم اعلان أول تنظيم سياسى فى ظل الثورة فى ٢٣ من يناير ١٩٥٣ باسم « هيئة التحرير » ويتضح من أسمها أن الغرض منها يتلاءم مع أهداف المرحلة الأولى من مراحل الثورة وهى مرحلة تحرير الوطن من المستعمر فى الخارج وأعوانه فى الداخل من الملكية والاقطاع والرجعية ، كما يعمل على سد الفراغ السياسى الذى ترتب على الغاء الأحزاب ، وتحقيق الوحدة الوطنية بجمع شمل المواطنين فى تنظيم واحد يقابل تحديات المرحلة المقبلة وقد جاء فى بيان هيئة التحرير الأول ما نصه :

« انها طريق للعمل المفتوح أمام المصريين جميعا . فهى ليست حزبا ينتفع بمزاياه نفر دون نفر ، ويتعصب أفراده لهذا الرأى دون ذاك .. بل هى مصر كلها منظمة فى هيئة واسعة متشعبة الجوانب ، متعدده وجوه النشاط ، وأيا كان المصرى ، وأيا كانت نزعاته وميوله فهو واجد فى هذه الهيئة سبيلا للعمل والخدمة والانتاج ... » .

وقد جعلت هيئة التحرير شعارها « الاتحاد والنظام والعمل » وكان هدفها . هو جلاء القوات الانجليزية عن وادى النيل دون قيد او شرط ، وتحرير وادى النيل من أى استعمار سياسى أو اقتصادى او اجتماعى ، وتمكين السودان من تقرير مصيره بنفسه ، هذا بالاضافة الى تحقيق مصالح الشعب المصرى فى الداخل ودعم الصلات مع الشعوب العربية ، والتعاون معها فى جميع المجالات .

---

(٧٦) المرسوم بقانون رقم ٢٧ فى ١٨ يناير سنة ١٩٥٢

وعلى الرغم من تكوين هيئة التحرير بهـــذه الأهداف السامية الا أن الثورة لم تستطع أن تجعل منهـــا تنظيما قويا يكسب ثقة النـــاس لأنها تكونت فى ظروف لاتســـمح بخلق تنظيم سياسى قوى « واعتمدت علـــى العسكريين الذى لايحسنون فهم العقلية الشـــعبية ولا يجيدون المرونـــة السياسية وانتشر الضباط فى مختلف تنظيمات الهيئة على امتداد الجمهورية ، وكانت حساسية قد بدأت تظهر بين المدنيين والعسكريين بعد أن أســـاء التصرف طائفة من العسكريين .

ولذا فان تنظيمات هيئة التحرير قـــد خلت من الشخصيات السياسية النظيفة التى مارست العمل السياسى قبل الثورة وعفت عن الانتســـاب اليهـــا العناصر الحزبيـــة ... ولم يتهافت عليهـــا الا نوع جـــديد من المستقلين والانتهازيين » كما يقول ذلك اللواء محمد نجيب فى مذكراته ، ويضيف قائلا : وكان مفروضـــا أن تكون هيئة التحرير هى أساس وحدتنا الوطنية فى مواجهة قوات الاحتلال ... ولكنها تحولت مع الأسف الى هيئة ضعيفة متهالكه لاتظهر الا فى الاجتماعات العامة حيث أجادوا جمع الجماهير للاستماع الى الخطب فى السرادقات(٧٧) .

الاصـــلاح الزراعى :

ولمـــا كان المبدأ الأول للثورة ينص على القضاء على الاســـتعمار وأعوانه من الخونة المصريين ، فلا شـــك أن الاقطاع كان سنده الأول فى البلاد ، ولذا لزم تقليم أظافر الاقطاع ، وكانت أول ضربة من أجل تحقيق الاستقلال السياسى هى قانون الاصـــلاح الزراعى الذى صدر فى ٩ من سبتمبر ١٩٥٢ فقـــد كانت أحوال البلاد تقتضى توزيع الملكية الزراعيـــة توزيعا عادلا ، ضمانا لتوفير لقمة الخبز للغالبية الكادحة من أبناء البلاد .

وبذلك كان قانون الاصـــلاح الزراعى ضربة حققت الانتصـــار فى مجالين فقد قضت على الاقطاع وقوضت دعائمه من ناحية ، ومن ناحية أخرى حققت نصرا فى مجال الثورة الاجتماعية ، وتوزيع الثروة توزيعـــا

---

(٧٧) انظر مذكرات اللواء محمد نجيب تحت عنوان : كلمتى للتاريخ . نشر بيروت لم تذكر سنة النشر . ٨٩

عادلا ، فقد قرر قانون الاصلاح الزراعى أنه لايجوز لأى شخص ان يمتلك من الأرض الزراعية أكثر من مائتى فدان ، وللفرد أن يتصرف فيما فوق ذلك الى أولاده فى مساحة أخرى لاتزيد عن مائتى فدان ، وللشركات والجمعيات الحق فى أن تملك أكثر من مائتى فدان من الأراضى التى تستصلحها لبيعها ، وكذلك يجوز للأفراد أن يمتلكوا أكثر من مائتى فدان من الأراضى البور والأراضى الصحراوية لاستصلاحها ، ويجوز للشركات الصناعية أن تملك مقدارا من الأراضى الزراعية يكون ضروريا للاستقلال الصناعى ولو زاد على مائتى فدان .

وتقوم الحكومة بالاستيلاء على الأراضى الزائدة على النصاب القانونى ، مقابل تعويض المالك بسندات اسمية على الحكومة بفائدة ٣٪ عدلت بعد ذلك بالقانون رقم ١٦٨ لسنة ١٩٥٨ الى ٥ر١٪ ، وكان معنى ذلك أن تحديد الملكية لم يكن عقوبة تحل بالمالك ، وانما كان الهدف منها تغيير هيكل الملكية الزراعية ومنع تركيز الملكية الزراعية فى يد قلة من الناس .

وقد وزعت الأراضى الزائدة على صغار الفلاحين والزراع بحيث يكون لكل منهم ملكية لاتقل عن فدانين ولاتزيد عن خمسة أفدنة ، بشرط أن يكون المستفيد مصريا حسن السير والسلوك محترفا العمل الزراعى فعلا ، وأن يقل ما يملكه عن خمسة أفدنة ، وأن يكون قادرا على الوفاء بالالتزامات المطلوبة منه .

وبذلك نرى أن قانون الاصلاح الزراعى قد حطم كبار الاقطاعيين ، وأدى هدفه من الناحية السياسية بالمساعدة فى القضاء على أعوان الاستعمار فى الداخل وقد حقق هدفا اجتماعيا آخر فى منتهى الأهمية وهو فتح المجال امام الكادحين للحرية الاجتماعية ولتحرير الزراع من سيطرة الاقطاع المستغل ، ومن ثم استعاد الفلاح حريته الاجتماعية لكى يباشر حريته السياسية بعيدا عن سيطرة الاقطاع ، وجلس الفلاح لأول مرة محتلا مقعده فى المجالس الشعبية المنتخبة يناقش مشاكل بلاده فى حرية مطلقة .

الغاء الملكية واعلان الجمهوريـــة :

رأت الثورة بعـــد الغاء الأحزاب أن الرجعية يجب القضـــاء عليها من جذورها وأن تاريخ أسرة محمد على كان سلسلة من الخيانات فى حق الشعب ، وأنها طالمـــا اشتركت فى قهره مع الاستعمار وأعوانه ، فقـــد أصـــبحت الحالة ملحة للقضـــاء على النظـــام الملكى الذى أجمعت الأمة فى المطالبة بالقضاء عليه . ولذلك أعلنت الثورة فى ١٨ من يونيو ســـنة ١٩٥٣ باسم الشعب الغاء النظام الملكى وحكم أسرة محمـــد على والغت الالقاب من افراد هـــذه الأسرة ، وأعلنت النظام الجمهورى على أن يتولى قائد الثورة رئاسة الجمهورية . وقد كان الغاء الملكية واعلان الجمهورية مطلبا شـــعبيا ملحا تحقق فيه للشـــعب المصرى القضاء على أسرة دخيلة طالمـــا عملت من أجل مصالحها ، وكانت مطية الاستعمار متهـــاونة ن حقوق شعبنا .

والنظـــام الجمهورى يعتبر ضروره سياسية ، لأنه أكثر نظم الحكم اتفاقا مع منطق الديمقراطية وسيادة الشـــعب لأنه لايفرض على سياسة الدولة شخصا تختاره الصدفه بحكم توارث العرش كما هى القـــاعدة فى النظام الملكى ، ولكنه يقوم أساسا على اختيار الشـــعب لرئيس الجمهورية بالانتخاب لمـــدة معينه ، وبذلك يرد للشـــعب حقه فى الســـيادة ويجعله مصدر السلطات .

ومن ناحية أخرى فان النظـــام الجمهورى يعتبر ضرورة قوميـــة تفرضها أوضـــاع العالم العربى بعد اعتداء الصهيونية عليه وخلقها لدولة اسرائيل وأصبحت الحـــالة ملحة للوحدة القومية العربية ، وكان لايمكن السير فى طريق الوحدة العربية ســـوى بالقضاء على الملكية التى تعتبر عائقا حقيقيا فى طريق الوحدة ، وســـببا فى التقوقع والعزلة .

الثورة وقضـــية الجلاء :

كان من الواضـــح أن مصر لاتستطيع أن تباشر حريتها السياســـية والاجتماعيـــة وقوات جيش الاحتلال البريطانى رابضـــة فى القنـــاة لأن الاستعمار حليـــف طبيعى للرجعية والاقطـــاع ، ومن ثم عملت الثورة منذ

اللحظة الأولى على تحقيق الجلاء والاستقلال فى كل من مصر والسودان لأنه لافائدة من جلاء الانجليز عن مصر مع بقائهم فى السودان لأن بقاءهم فى السودان يهدد مصر اقتصاديا وحربيا ، ولأن مسألة السودان ظلت معلقة منذ معاهدة ١٩٣٦ فكان لابد من حلها ، وذلك باعطاء الشعب السودانى حق تقرير مصيره بنفسه ، حتى يتحقق له الاستقلال والحرية .

ومن ثم تقدمت الحكومة المصرية بمذكرة الى الحكومة البريطانية فى ٢ من نوفمبر ١٩٥٢ بشأن الحكم الذاتى للسودان وتقرير مصيره . ومما جاء فى هذه المذكرة :

« تؤمن الحكومة المصرية ايمانا وطيدا بحقوق السودانيين فى تقرير المصير ، وفى ممارستهم له ممارسة فعلية فى الوقت المناسب وبالضمانات اللازمة ، ورغبة منها فى بلوغ الهدف تبدأ على الفور فترة انتقال تستهدف غرضين :

١ — تمكين السودانيين من ممارسة الحكم الذاتى الكامل .

٢ — تهيئة الجو الحر المحايد الذى لابد من توافره لتقرير المصير .

وأعلنت المذكرة بوضوح أنه فى فترة الانتقال تكون السيادة للسودانيين حتى يتم لهم تقرير المصير . وفى فترة الانتقال تكون السلطة الدستورية فى يد الحاكم العام بمعاونة لجنة من خمسة أعضاء من سودانيين ومصرى وانجليزى وهندى أو باكستانى ترشحة حكومته ، وحددت المذكرة سلطة الحاكم العام ، كما أقرت تشكيل لجنة مختلطة تشرف على التمهيد للانتخابات واجرائها ، وأقرب تشكيل لجنة سودانية الادارة ، كما بينت أن فترة الانتقال لايجب أن تتجاوز ثلاث سنوات ، وتكون مهمة الجمعية التأسيسية تقرير المصير للسودان واعداد الدستور(٧٨) .

---

(٧٨) السودان من ١٨٤١ — ١٩٥٣ مجموعة وثائق صادرة عن مجلس وزراء جمهورية مصر ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٣ ص ص ٢٩٣ — ٢٩٦

وعلى أثر ذلك دخلت مصر فى مفاوضات مع الحكومة البريطانية فى أواخر عام ١٩٥٢ وأوائل عام ١٩٥٣ ، وفى هــذه المفاوضات أكد المفاوضون المصريون على وحدة الســودان شماله وجنوبه ، فى الوقت الــذى كان المفاوضون الانجليز يحرصــون دائما على ايجاد التفرقة بين الشــمال والجنوب ، ورأوا ضرورة وجود ضمانات للجنوب فانجلترا تخشى أن يتحيز الشماليون ، ثم عقــدت اتفاقية الســودان بين مصر وبريطانيا فى ١٢ من فبراير ســنة ١٩٥٣ بشأن الحكم الذاتى وتقرير المصير ، وتقرر فيهــا انسحاب القوات العسكرية المصرية والانجليزية من السودان فور اصدار قرار البرلمــان الســودانى رغبته فى الشروع فى اتخاذ تدابير تقرير المصير حتى يتم تقرير المصير فى جو حر محايد .

وفى ١٦ من أغسطس ســنة ١٩٥٥ أصدر البرلمــان الســودانى بالاجمــاع قرارا بالشروع فى اتخاذ تدابير لتقرير المصير ، وعلى أثر ذلك بدأت القوات المصرية والبريطانية فى الانسحاب من الســودان . ولمــا استقر الوضع قرر مجلس النواب الســودانى فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩٥٥ ثم مجلس الشيوخ فى ٢٢ ديسمبر ســنة ١٩٥٥ ، أن السودان قد أصبح دولة مســتقلة كاملة السيادة ، وأعنت كل من مصر وبريطانيا اعترافهما بالسودان دولة مستقلة ذات سيادة اعتبارا من أول يناير ســنة ١٩٥٦

أما بالنسبة لقضــية الجلاء عن مصر ، فقد كانت الثورة ، تدرك منذ البداية أساليب الاستعمار وحيله ومن ثم حددت لنفسها طريقا واضحا وأصرت على مبدأين .

الأول : عدم قبول أية محالفة عسكرية مع بريطانيا .

الثانى :عدم قبول أى نوع من أنواع الدفاع المشترك عن الشرق الأوسط

وحاول الانجليز منــذ اللحظة الأولى أن يدخلوا برجال الثورة فى دوامــة المفاوضات والمســاومات التى اســتمرت على المسرح المصرى سبعين عاما ولكن رجال الثورة كانوا حاسمين فقد أعلن جمال عبد الناصر فى تصريح له فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٥٢ لمراســل جريدة (نيويورك هيرالد

تريبيـــون) قـــال فيه : « ان مصر لاتستطيع اليوم أن تتحمـــل مزيدا من المماطلة والتسويف ، واذا شعرت حكومة العهد الجديد بعـــد هذه الجهود المتصـــلة التى تبذلها مع الانجليز بمراوغة فانهـــا لن تصل الى كراسى الحكم الا لتتولى قيـــادة الشعب فى حربه ضـــد الانجليز . أنها لن تكون حربا رســـمية وانما ستكون حرب عصابات فدائية أشبه بقصة شمشون التى روتهـــا التوراة ، سوف نحطم المعبـــد على رؤوسنا ليصيب رؤوس أعدائنا القائمين بيننا أيضا ... » .

من هنا عرف الانجليز صـــلابة الثورة ، وعدم تهاونها أو انخداعها بأسلوب اللف والدوران القديم ، وحرصت الثورة منذ اللحظة الأولى على اعداد القوات المســلحة لخوض غمار المعركة ضد الاستعمار فى أيـــة لحظة ، كما أقامت مراكز لتدريب الفدائيين داخـــل البلاد ، واستطاعت هذه المراكز أن تدرب مالا يقل عن خمسين الف فدائى .

وحاولت مصر تدعيم الجيش فلجأت أول الأمر الى أمريكا نظرا لأنها وقفت منذ البداية موقف الصـــداقة للثورة المصرية ، ونظرا لأن تصرفات السفير الأمريكى تجـــاه رجال الثورة تدعـــوا الى الثقة ، وطلبوا منـــه تسليح الجيش المصرى الذى كان يفتقر الى الســـلاح ، فلقد كانت السياسة المرســـومة فى مصر بعد حرب فلسطين ســـنة ١٩٤٨ هى أن يظل الجيش ضعيفا مفتقرا الى السلاح والذخيرة والعتاد ، ومادام متعهد توريد الأسلحة هى بريطانيا فان ذلك كان كفيلا بأحكام الســـيطرة على هـــذا الجيش ، وبالتالى على الشـــعب الذى لن يجد له حماية فى جيشه وبذلك لن تقوم فى مصر دولة لأن أولى مقومات الدولة هى أن يكون لها جيش قوى يستطيع أن يحميها من أية سيطرة أو تدخل يفرضان عليها من الخارج .

وحين طلب رجال الثورة من الســـفير الأمريكى بالقاهرة الاتصال بحكومته بشـــأن تسليح الجيش المصرى بأموال مصرية ، جاء رد الحكومة الأمريكية فى صـــورة نسخة مما يسمى (ميثاق الأمن المتبادل) وطلبوا من رجال الثورة عقـــد اتفاقية وقالوا لهم أنـــه بمجرد توقيعكم فلن تكونوا بحاجة الى دفع مليم واحـــد من أجل الســـلاح بل ستتدفق الأسلحة على

الجيش المصرى مجانا ، هـــذا بخلاف المعونات الأخرى ، وقـــد كـــان العرض على الطريقة الأمريكية محاطا بالتشويق والدعاية المغرية ، فتارة يقولون أن أكثر من أربعين دولة تنعم بخيرات هذا الاتفاق اليوم وتسبح فى بحبوحة الرفاهية ، وتارة يقولون ولمـــاذا تخصصون من ميزانيتكم أيـــة مبالغ تنفقونها على التسليح فى الوقت الذى يمكنكم فيه أن تحصلوا علـــى الســـلاح بالمجان ، بل على أحدث الأسلحة أيضا ، فوقعوا على المعاهدة وبعدها يكون الطوفان(٧٩) .

بيد أن رجال الثورة أخذوا على أنفسهم منذ البداية ألا يدخلوا فى محالفـــات جديده أو دفاع مشترك مع أحـــد والا اســـتبدلوا نيرا بنير ، واستعمارا باستعمار ومن ثم رفض رجال الثورة العرض ، وأوضـــحوا لأمريكا أن مصر تريـــد شراء السلاح بمالها ولا تريد هبة من أحد ومع هذا فقـــد أرســـلت أمريكا صـــفقة ســـلاح للبوليـــس المصرى كان ثمنهـــا مدفوعا قبـــل الثورة ، فقدمتهـــا أمريكا الى مصر دليلا على حســـن النية من جانبهـــا .

اتفاقيـــة الجلاء :

واستمر رجال الثورة فى اعداد البلاد للكفاح فى القناة اذا حاولت بريطانيا المراوغة فى الجلاء ، وحين أيقنت بريطانيا أن مصر جادة فى موقفها مصرة على طلب الجلاء الحقيقى ، وأدركت أن وجودها غير مرغوب فيـــه فعلا من جانب الشـــعب المصرى ، رضخت فى النهاية وانتهى الأمر الى اتفاقية ١٩ من أكتوبر ســـنة ١٩٥٤ أقرت فيها بريطانيا الجلاء عن مصر فى مدة لاتتجاوز عشرين شهرا تبدأ من تاريخ التوقيع على اتفاقية الجلاء ، وهكذا اســـتطاع الشعب المصرى أن يزحزح عن كاهله هـــذا الكابوس الذى ظل يؤله وينغـــص عليه حلو الحيـــاة أكثر من سبعين عاما : وأذاع جمال عبد الناصر بيانا على الشـــعب المصرى بهـــذه المناسبة فى ١٩ من أكتوبر ١٩٥٤

---

(٧٩) مذكرات أنور السادات . مرجع سبق ذكره ص ١١١ — ١١٢

« أيهـا المواطنون ، ان مرحلة من كفاحنا قـد انتهت ومرحلة على وشـك أن تبدأ لقد وضـع الهدف الأكبر من أهداف الثورة منذ هذه اللحظة موضـع التنفيذ الفعلى ، فقد وقعنـا الآن بالأحرف الأولى اتفاقا ينهى الاحتلال وينظم عملية جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر الخالدة ... هاتوا أيديكم وخذوا أيدينا ، وتعالوا نبنى وطننا من جـديد بالحب والتسامح والفهم المتبادل ... اللهم أعطنا القوة لنـدرك أن الخائفين لايصـنعون الحرية ، والضعفاء لايصنون الكرامة ، والمترددين لن تقوى أيديهم المرتعشة على التعمير والبنـاء » وبذلك غادر آخر جندى بريطانى مصر يوم ١٣ يوليو سـنة ١٩٥٦ ورفع علم مصر فوق مبنى البحرية فى بور سعيد وهو آخر مبنى جلت عنه القوات البريطانية فى ١٨ يوليو وصار عيدا للجلاء من كل عام فضلا من كونه عيدا للجمهورية(٨٠) .

وحاولت مصر كسر (احتكار السـلاح) فعقدت اتفاقية على شراء صـفقة أسلحة من (تشيكوسلوفاكيا) فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ ، وبذلـك تخلصت مصر من الحصـار الانجليزى الذى فرض عليها بعض الأسلحة من النوع البالى العتيق الذى لايساير التطور ، وكانت صفقة الأسـلحة التشيكوسلوفاكية ضربة قاضية للمعسكر الغربى نظرا لأن بريطانيا حرصت منذ معـاهدة ١٩٣٦ على أن تكون أسـلحة الجيش المصرى ومعداته من نفس أسـلحة القوات البريطانية ، كما اشترطت على مصر الا تستورد سلاحا الا من بريطانيا وحدها — فكان خروج مصر من دائرة هذا الحصار واحتكار السـلاح ضربة قاضية لبريطانيا وحلفائها فأعلنت كثير من صحف الغرب ودوائره السياسية أن هذه الصفقة من قبل العـالم الاشتراكى فيها تهديد للسـلام العالمى ولقد اتجهت مصر بعد ذلك للحصـول على السلاح من المعسكر الشرقى وخاصة روسيا واعتمدت اعتمادا يكاد يكون كليا على السلاح السوفيتى .

---

(٨٠) حين نقضت بريطانيا اتفاقها باشتراكها فى الاعتداء الثلاثى على مصر فى ٣١ من اكتوبر ١٩٥٦ أصـدرت مصر من جانبها قرارا بالغـاء اتفاقية أكتوبر ١٩٥٤ وملحقاتها .

تأميم شركة قنـــاة الســـويس :

كانت شركة قنـــاة السويس تمثل دولة داخل دولة ، وكانت صورة مزرية للاستعمار الأوربى ، فقـــد قامت منذ تأسيسها فى عهد سعيد باشا والى مصر على اســـتغلال البلاد شعبا وحكومة ، لخدمة مصالحها ، وبذل الشعب دمه ودمعه وعرقه فى حفر قناة السويس ، فمن أجلها توســـعت الحكومة فى فرض نظام السخرة بشكل لم تشهد له البلاد من قبل مثيلا ، وربط المصريون بعضهم الى بعض بالحبـــال فى أيديهم ليقطعوا الصحراء من الزقازيق الى القنـــاة سيرا على الأقدام ، وهناك سيقوا الى ساحات الحفر زمرا ، وماتوا من العطش أو الاعياء أو الجوع أو الأوبئة ، وسخرت الحكومة مواردها المـــالية والطبيعية فى خدمة الشركة(٨١) .

وكانت شركة القنـــاة تمثل تغلغل نفوذ انجلترا وفرنسا فى أراضى مصر، وكان من الطبيعى أن تشرف مصر المســـتقلة المتحررة على هـــذه القناة التى تمر بأراضيهـــا والتى أنشئت بعرق وسواعد الفلاحين المصريين ، وآن الوقت للشعب المصرى الذى بذل التضحيات الجسيمة فى انشاء قناة السويس أن يستفيد من أرباحها الطائلة التى تذهب الى جيوب الأجانب ولاتستفيد منها مصر الا القدر القليل .

وسمحت لمصر الفرصـــة لتحقيق هـــذا الحلم حين رفضت انجلترا والولايات المتحدة تمويل مشروع الســـد العالى ، فرأى جمال عبد الناصر الاســـتفادة من الظروف الدولية الموجودة فى سنة ١٩٥٦ من حيث انقسام العالم الى معسكرين شرقى وغربى اشتدت بينهما الحرب الباردة ففاجأ العـــالم فى مســـاء ٢٦ من يوليو ١٩٥٦ بقرار تأميم شركة قناة السويس ، حتى تستطيع الحكومة المصريـــة بموارد القناة الفنية اقامة مشروع السد العالى وغيره من المشـــاريع الاقتصادية المنشودة لبناء صرح الاقتصـــاد المصرى ، وتباشر سيادتها القومية على جزء مهم من أراضيها .

---

(٨١) د. عبد العزيز الشناوى — السخرة فى حفر قناة السويس — منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٦٥ ص د من المقدمة .

ومما جاء فى قرار التأميم : أن تنتقل للدولة المصرية جميع ما للشركة من أموال وحقوق وما عليهـا من التزامات وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة حاليا فى ادارتهـا وأعلنت الحكومة المصرية حرصها فى نفس الوقت على تعويض حملة أسهم شركة القناة تعويضا عادلا وأعلنت عزمها على المضى فى ضمان حرية المرور فى القناة وفقا لاتفاقية سنة ١٨٨٨ .

وعلى الرغم من حق مصر فى تأميم الشركة الا أن الدوائر الانجليزية والفرنسـية قابلت هذا الاجراء بالمناداة بتأكيد الصفة الدولية للقنـاة ، واعلنت تصميمها على المحافظة على هـذه الصـفة ، وهددتا باستخدام القوة ضـد مصر ، ولم تقفا عند هـذا الحد بل أعلنتا تجميد الأرصـدة المصريـة .

وأعلن (انتونى ايدن) رئيس الوزراء البريطانى فى ٨ أغسطس رأى حكومته فى تأميم مصر للقناة فقال :

« ان تأميم عبد الناصر لشركة قناة السـويس قد أوجد حالة خطيرة وأن وضـع هذه القناة تحت اشراف دولى هو مسـألة حياة أو مـوت بالنسـبة لبريطانيا » وأكد رئيس الحكومة البريطانية أن القناة ليسـت حيوية لمصر كما هى حيويـة لغيرها من دول العـالم .. وأن بريطانيا تتعرض لكثير من الأخطار اذا لم تتخذ الاجراءات اللازمة لصيانة حقوقها » .

وأعلنت الحكومة الفرنسـية موافقتها عن الأراء والاجراءات التى اتخذتها الحكومة البريطانية ، وصرح « موليه(*) » بان جمال عبد الناصر يرمى الى انشاء امبراطورية عربية من الخليج الفارسى الى المحيط الأطلنطى .

وبدأت مصر تجابه التحدى فى هـذه المرحلة الهامة من حياتها « وهى مرحلة تحقيق الاسـتقلال السياسى وسيادتها على أراضيها ، وكان ذلك حقا من حقوق مصر المشروعة تقره القوانين والمواثيق الدوليـة ، بيد أن الاستعمار استمرأ السـيطرة السياسـية على أرض مصر وحكوماتهـا المتعاقبة وقـد تهاونت هـذه الحكومات فى مامضى فى حقوق مصر المشروعة

(*) رئيس وزراء فرنسا فى ذلك الحين .

فى عهد أسرة محمد على وذلك لارتباط مصلحتها بمصلحة الاستعمار واعوانه فى الداخل والخارج .

وهددت الدولتان (بريطانيا وفرنسا) باستخدام القوة وأعلنتا التدابير للتعبئة العامة وتحركت قواتهما المسلحة كما أتخذت تدابير اقتصادية لمصر . وعمدتا الى تحريض الموظفين والمرشدين الذين يعملون فى قناة السويس على ترك عملهم محاولين بذلك عرقلة سير الملاحة فى القناة ، وفى أغسطس أعلنت الحكومة المصرية رفضها لحضور مؤتمر لندن المزمع عقده فى ١٦ أغسطس ١٩٥٦ من دول أوربية وآسيوية وافريقية لمناقشة موضوع الاشراف الدولى على القناة ، وهذا المؤتمر عقد بدعوة من بريطانيا لبحث مستقبل جزء لايتجزأ من مصر دون الرجوع اليها والتشاور معها فى هذا الشأن .

ولكن الحكومتين البريطانية والفرنسية قررتا استخدام القوة لايقاف مصر عند حدها بالرغم من الحوار الذى كان دائرا فى مجلس الأمن الدولى واستعداد مصر لحل المشاكل بمفاوضات أخرى فى جنيف فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ (كما أوصى بذلك مجلس الأمن) بين مصر من ناحية وبريطانيا وفرنسا من ناحية أخرى .

وتكشف الموقف عن (مؤامرة الاعتداء الثلاثى) فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، فقد اتفقت الدولتان مع اسرائيل أن تبدأ بالاعتداء على مصر ، ثم تتدخلان بحجة حماية القناة ، ومازلنا لانعلم على وجه التحديد الشروط التى اتفق عليها المتعاقدون ، ولكنها بطبيعة الحال كانت تتلخص فى تدعيم مركز اسرائيل فى المنطقة وذلك بقهر مصر أكبر أعدائها ، ثم اعادة سيطرة بريطانيا وفرنسا على القناة ، وظنت تلك الأطراف أنها فى أمكانها عمل ذلك بعيدا عن علم الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد تجاهلتها الدول الثلاث تجاهلا تاما ، وكان ذلك من مصلحة مصر ، فلم تساند أمريكا عمل حلفائها الأحمق ونادت بحل المشكلة بالطرق السلمية ، وطلبت من حلفائها احترام قرارات الأمم المتحدة التى قررت وقف القتال وانسحاب المعتدين من الأراضى المصرية .

وحينئذ وجدت روسيا الفرصة سانحة لتوجيه ضربة قاصمة لبريطانيا وفرنســـا ، واكتساب نصر كبير فى مضمار السياسة الدولية متيقنة أن الأمم المتحدة لن تقف بجانب المعتدين ، فوجهت انذارها المشـــهور بضرب لندن وباريس اذا لم يتم وقف اطلاق النـــار والانسحاب ، وذلك بعد أن تأكدت أن أمريكا لن تقف مؤيدة للمعتدين ، وأيدت الصين الشعبية الانذار الروسى ، واعلنت عزمهـــا على ارسال متطوعين لمساعدة مصر . وساندت دول العـــالم الثالث مصر فى موقفها ، واضطرت الدول الثلاث الى وقف عملياتها وبدأوا فى الانسحاب من القناة .

وكانت أمريكا ترى ضرورة الانســـحاب حتى لاتجد روسيا فرصـــة تستطيع بهـــا ارسال قوى حربية الى منطقة القناة ، وهكذا خرجت مصر منتصرة من هـــذه الأزمة . غير أنه يجب أن نلاحظ أن نتائج هذه الحرب هى التى ولدت فيما بعـــد حرب ٥ يونية ١٩٦٧ وهى الحرب التى منيت فيهـــا مصر بهزيمة مؤلمة ، وذلك لأن اسرائيل انسحبت من سيناء وقطاع عزة مشترطة ضرورة حرية الملاحة فى خليج العقبة ، ووضـــع قوات دولية فى شرم الشيخ وخليج العقبة لكى تحافظ على ســـير الملاحة وأمنها بالنسبة لاسرائيل ، وبذلك خرجت مصر من حرب ١٩٥٦ فاقدة السيطرة على مضيق شرم الشيخ الذى كان لها هيمنة عليه قبل الحرب .

ولم تحقق هـــذه الحرب القصيرة الآمل الذى كانت ترمى اليه كل من انجلترا وفرنسا فى القضـــاء على الثورة فى مصر ، وانما وضعت حدا فاصلا لعهد من العلاقات بين الانجليز والفرنسيين من جانب ، والعـــالم العربى من جانب آخر .. لقـــد كان من الواضح أن خطط بريطانيا وفرنسا وضـــعت فى اعتبارها الهجوم الاسرائيلى ، وأكد هذا الهجوم فى أذهان العرب خوفهم الذى استمر أربعين عاما من الصهونية ، والدولة اليهودية « كقوة معتدية توسعية » تستغل الدول الاستعمارية وتستغلها هـــذه الدول »(٨٢) .

---

(٨٢) أرسكين تشيلدرز — حول العالم العربى ترجمة محمد عبد الله الشفقى ص ١٢٥ — ١٢٦

ومن النتائج التى تمخضت عنها هـــذه الحرب أيضا أن الاتحـــاد السوفيتى حظى بهيبة فى نفوس العرب للدور الـــذى لعبه أثناء هـــذه الحرب ، ومن المؤكد أن هـــذه الهيبة لم يكن الزعماء السوفييت ليحصلوا عليها اذا بذلوا الجهد وحـــدهم لعدة سنين ، وشعر العرب وخاصـــة مصر بعرفان مماثل للولايات المتحدة ، لمـــدة قصيرة جدا ، وأصبح هناك رصـــيد هائل من الآمال العربيـــة ، لا لأن الولايات المتحدة نددت باستخدام القوة من جانب انجلترا وفرنسا فحسب ، وانمـــا لأن الرئيس الأمريكى عارض أيضـــا الاجراء الصهيونى ، على الرغم من انه كان فى أتون حملة انتخابية يحتاج خلالها لأصوات اليهود فى أمريكا .

وأخيرا يمكن القول بأن هـــذه الحرب كما وصفها البعض بأنها كانت فلســـطين أخرى فقد حركت كل آمال العرب فى التحرير الكامل من كل نفوذ خارجى وولدت الحاجة الى اصلاح اجتماعى عاجل ، ومزيـــد من الوحدة العربية ، وحياد يشـــمل المنطقة كلها ، ولم يبق أمام العرب سوى دولة واحـــدة هى أمريكا تستطيع أن تتفاهم مع العروبة الفتية . فلنرى ماذا تأتى بـــه رياح السياسة بعد ذلك فى أجواء الشرق الأوسط ؟ .

تنظيم الاتحـــاد القومى :

وأمام التحديات الخارجية برزت أهمية الوحـــدة القومية ، ومن ثم بادرت القيادة الثورية باعلان تشـــكيل الاتحاد القومى فى ٢٨ من مـــايو ١٩٥٧ وكانت أهدافه المعلنة تتمثل فيما يلى :

— أن يكون تعبيرا سياسيا عن الوحدة الوطنية التى تأكدت بهزيمة العدوان الثلاثى ودحره ودعم الثورة الوطنية وهى تتجه نحو مرحلة الثورة الاجتماعية .

— مواجهة تحديات الاستعمار فى مصر وفى العالم العربى .

— ارساء دعائم الممارسة الديمقراطية وحل المتناقضات بين القوى الاجتماعية بطريقة سلمية .

وهكذا ظهرت الحاجة الى تنظيم جديد لتحالف قوى الشـــعب ، بعد أن أدت (هيئة التحرير) الغرض المنشود منها فى فترة الثورة السياسية والاستقلال الوطنى التى قطعتها الثورة فى مسيرتها منذ القضـــاء علـــى الملكية فى ١٩٥٢ حتى خرجت منتصرة من حرب ١٩٥٦ وأكدت الجبهـــة الداخلية صلابتهـــا أمام الأطماع الاستعمارية ، وتحقق استقلال البلاد ، وكان لابد من تنظيم يصـــون هذا الاستقلال ويشـــارك فى توجيه شـــئون الحكم ، عن طريق تكوين القيادات الشـــعبية الواعية بأهداف المجتمع ، ليســـاهم الأفراد فى تحريك عمليات التطور فى مختلف المستويات فى القرية والمدينة ، وبين الفلاحين والعمال والموظفين وجميع القطاعات التى يتكون منها الشـــعب ، ولهذا كله نشأت فكرة الاتحاد القومى على اعتبار أنه يجمع قوى الشـــعب ومختلف طبقاته من أجل الوحدة الوطنية . فى سبيل البناء الاجتماعى والسياسى .

وجاء فى المـــادة (١٩٢) من دســـتور سنة ١٩٥٦ عن الاتحاد القومى وأهدافه ما يلى : « يكون المواطنون اتحادا قوميا للعمـــل على تحقيق الأهداف التى قامت من أجلها الثورة ، ولحث الجهود لبناء الآمة بناء سليما من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ويتولى الاتحاد القومى الترشيح لعضوية مجلس الأمة . . . . . .

ويجب أن نلاحظ أن مجرد انشـــاء الاتحاد القومى لم يكن ليقضى على المتناقضات فى المجتمع « وكان من المؤمل أن يقضى تفاعل الطبقات فى اطار الاتحاد القومى على هـــذه المتناقضات ، غير أن تجربة الاتحـــاد القومى اصطدمت بقوة المصـــالح الرأسمالية والطبقات الرجعية التى انضمت الى تنظيماته ، وسعت الى شل فاعليته الثورية ، ومن ثم أصبح الاتحـــاد القومى مجرد واجهة تنظيميـــة عاجزة عن خدمـــة المطالب الجماهيريـــة الحقيقية .

وظهرت عدم فاعلية الاتحاد القومى بعد صدور القوانين الاشتراكية فى يوليو ١٩٦١ فلم تقم لجان الاتحـــاد بدورها من أجـــل التعريف بتلك القوانين ، وشرحها للشـــعب ، ومراقبة تنفيذها ، وهـــذا ماأشـــار اليه

الزعيم عبد الناصر فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية « انا أعتقد أن الاتحاد القومى كان به عيب واحد هو اننا تركنا الفرصة للرجعية للتسلل اليه وتسيطر على المناصب الرئيسية . ونحن فى هذا كنا حسنى النية لأننا عندما كنا نريد أن نحل الصراع الطبقى بالوسائل السلمية ونقيم نوعا من التعايش السلمى بين الطبقات فى اطار الوحدة الوطنية سمحنا لكل الناس حتى الرجعية بالدخول فى الاتحاد القومى . فقد تصورنا انه مهما يكن من خلاف بيننا وبين العناصر الرجعية فانهم لايزالون أبناء نفس الوطن ، وشركاء نفس المصير .. واننا حرصنا على الوحدة الوطنية الا ان الطبقة الرجعية من كبار الراسماليين والاقطاعيين لا يرضيها أن ترى امتيازاتها تنهار باسم الكفاية والعدل ، وأنها وهى من ركائز الاستعمار لا تتورع عن الارتكان اليه بدورها لتسلب النضال الشعبى ثمراته الاجتماعية ولو ادى ذلك الى فتح الطريق له حتى يعاود تحكمه من جديد فى مقدرات الشعب الذى تنتمى اليه ، يضاف الى هذا أن قوة الثورة فى مواجهتها لحتمية التغيير الاجتماعى لم تكن قد استطاعت أن تحدد دليلا للعمل الثورى لتلتقى عليه الجهود . فعلى الرغم من وضوح المد الثورى على هدى المبادىء الستة للثورة ، الا أن التجربة الثورية لم تكن قد توصلت بعد الى حصيلة فكرية تقف من هذه التنظيمات موقف العقيدة أو موقف الدليل النظرى الواضح ... وهو ما جعل الفردية أساس التجمع فى تلك التنظيمات وليس « الجماهير » أو « العقائد » .

ومن هنا اكتشفت الثورة بتجربتها أن تحقيق التقدم على الأرض المصرية يتطلب أمرين :

أولا : ثورة اجتماعية واعية يتحقق بها سيطرة الشعب على مصادر الثروة ووسائل الانتاج ، وضرورة التخطيط القومى الشامل ، وتوزيع الناتج القومى على أساس مشاركة العاملين فى الانتاج ، وضرورة سيطرة الشعب على السلطة السياسية للمجتمع « ثم صدرت القوانين الاشتراكية فى يوليو ١٩٦١ وبدأت بذلك مرحلة جديدة من مراحل الثورة المصرية وهى مرحلة التحول الاشتراكى على أساس من الاشتراكية وديمقراطية الشعب العامل .

ثانيا : أصبحت الحاجة ماسة الى دليل للعمل الثورى يحدد السمات الرئيسية للبناء الاجتماعى والسياسى وأهدافه ، فبعد مرور عشر سنوات على الثورة لم يكن هنـــاك من دليل سوى المبادىء الستة التى سبق أن أشرنا اليهـــا . وبعد مضى هـــذه الفترة ، أدرك الثوار فى مصر أنهـــم بحاجة الى دليل للعمل الوطنى ، خاصة وأنه خلال هـــذه الفترة تبلورت الأفكار فى مصر عبر مسيرة الثورة ، من ثـــم أقر المؤتمر الوطنى للقوى الشـــعبية فى مايو ١٩٦٢ « الميثاق الوطنى » كأســـاس نظرى لمرحلة التحول الاشتراكى .

ويلخص جمال عبد الناصر الغرض الأساسى من الميثـــاق الوطنى ودوافعه ، وضرورته أثناء عرضه على أعضـــاء المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية قائلا :

« الميثـــاق عبارة عن مبادىء عامة أو اطار للعمل أو اطار للخطة .. نتج عن ايه ؟ نتج عن تجربة وممارسة لمدة عشر سنين من عا ١٩٥٢ الى عام ١٩٦٢ عندنا تجربة وعندنا ممارســـة ، وشايفين آمال المجتمع أيضا فى المســـتقبل وفى الحياة حياة كريمة ســـعيدة ترفرف عليها الرفاهية .. من هـــذه الفترة ، فترة العشر سنين من آمال الشـــعب فى مستقبلة نبع الميثـــاق .... ، الميثاق هو عبارة عن اطار الخطة للعمل الاقتصـــادى والسياسى للمستقبل » فالميثاق الوطنى اذن جاء ثمرة تفكير طويل ، وايمان عميق ، وتخطيط علمى يستهدف خلق مجتمع جديد قائم على الكفاية والعدل ، فهو يتميز بتحديده الصريح للفلسفة الاقتصادية والاجتماعية .

وكانت أهم الضمانات التى قررها الميثاق هى : كفالة الحد الأدنى لتمثيل العمـــال والفلاحين فى جميع التنظيمات الشـــعبية والسياسية فى جميع مستوياتهـــا بحيث تكون نسبة العمال والفلاحين ٥٠٪ على الأقـــل باعتبارهم أغلبية الشعب التى طـــال حرمانها من حقوقهـــا الأسياسية ، ومن هنـــا :

« فان الدستور الجديد يجب أن يضمن للفلاحين والعمال نصف مقاعد التنظيمات الشـــعبية والسياسية على جميع مستوياتها بما فيها المجلس

النيابى باعتبارهم أغلبية الشعب ، كما أنهـا الأغلبية التى طال حرمانها من حقها الأساسى فى وضع مستقبلها وتوجيهه »(٨٣) .

الثورة الاجتمـاعية :

منذ أن قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وهى تعمل جاهدة عن تحقيق الرفاهية للشعب المصرى ، وتخليص البلاد من مشكلات الفقر والجهـل والمرض التى عانى منها المجتمع المصرى اجيالا واجيالا ، وكان لابد من ثورة اجتماعية لتحقيق هـذه الأهداف السامية ، فقامت الثورة بعديد من الاجراءات الاقتصادية لتذويب الفوارق بين الطبقات وتحقيق العدالة الاجتماعية ، كما أقامت كثيرا من المشروعات الاقتصادية الكبرى بهـدف زيادة الدخل القومى ورفع مستوى معيشة الأفراد .

ويلاحظ أن السـنوات الواقعة بين سـنة ١٩٥٢ ، سنة ١٩٦١ هى السـنوات التى غلبت عليها التغييرات فى مجال الثورة السياسية وتحقيق الاسـتقلال السياسى والوطنى ، وعلى الرغم من ذلك فان هذه السنوات شهدت كثيرا من الاجراءات الثورية فى مجال الثورة الاجتماعية .

وكان طرد الملك رمز الاقطاع والاحتكار ، هو المقدمة الأولى للسير فى طريق الثورة الاجتماعية حتى وصلت الى مرحلة التحول الاشتراكى وهى المرحلة الكبرى التى بدات سنة ١٩٦١

وفى ٢ أغسطس ١٩٥٣ قرر مجلس الوزراء الغاء الرتب والألقـاب المدنية وبذلك صفيت طبقة البكوات والباشوات ممن صنعت منهم الملكية سدنه لها وخداما لأطماعها وكان هـذا مما أكد لدى المواطنين بأنهم جميعا متساوون والغيت كل الامتيازات الاجتماعية التى كانت تتمتع بها تلك الفئة من أفراد الشعب بحكم تعاونها مع الملكية .

ويعتبر قانون الاصـلاح الزراعى وهو القانون رقم ١٨٧ الذى صدر فى ٩ من سبتمبر ١٩٥٢ والذى سـبق أن تحدثنا عنه من أهم الاجراءات فى مجال الثورة الاجتماعية من أجل تذويب الفوارق بين الطبقات وتحقيق عدالة اجتماعية بين جمع المواطنين .

---

(٨٣) الميثاق الوطنى — الباب الخامس .

تنمية الانتــاج القومى :

تســـلمت الثورة خزانة الحكومـــة ووجـــدث بالميزانية عجزا كبيرا واحتياطيا هبط من ٧٥ مليون جنيه الى ١٦ مليون جنيه ، وفى أعقاب حريق القــاهرة تهرب نحو ١٢٦ مليون جنيه الى الخارج كانت عملية التهريب يؤمئذ سهلة ميسرة اشترك فيهـــا فاروق نفســـه وبعض أفراد الأسرة المـــالكة وكثير من الرأسماليين فى البلاد ممن ينتهزون الفرص ، وترتب على ذلك ركود الحالة الاقتصادية قبل الثورة وتسلمت الثورة خزانة الحكومة وهى مدينة للبنك الأهلى فى نحو ٥ ملايين من الجنيهات(٨٤) .

وقد عالجت الثورة الحالة الاقتصادية للبلاد وقامت بثورة للاصلاح الاجتماعى وأخذت تعمل على زيادة انتاج البلاد من الزراعة والصناعة ، ووضعت الثورة سياسة ثابتة من الناحية الاقتصـــادية أساسها تصنيع البلاد وتنمية انتاجها القومى بوجه عام فأنشأت فى ٢ أكتوبر ١٩٥٢ مجلسا للتنمية والانتــاج القومى ومهمته بحث المشروعات الاقتصـــادية التى من شأنها تنمية الانتاج القومى فى النواحى الزراعية والصناعية والتجاريـــة وما يتعلق بها من مشروعات الرى واستصلاح الأراضى البور والاراضى الصحراوية ، وتنويع الحاصلات وتحسين وسائل الزراعـــة وتخصيص المناطق الزراعيـــة وتنمية الانتــاج الحيوانى ومشروعات توليـــد القوى الكهربائية ، وانشـــاء الطرق وتحسين وسائل النقل الأخرى والبحث عن البترول وغيره من المعادن وتشجيع الصناعات القائمة وانشـــاء صناعات جديدة ، وتقوية حركة التصنيع بما يجعل الصناعات موردا رئيسيا للبلاد وتنظيم الأسواق الداخلية والبحث عن أسواق خارجية للصادرات والنظر فى تدبير الوسائل اللازمة لتمويل هـــذه المشروعات وسبيل الاســـتعانة بالمصارف الدولية والأجنبية والارتفاع برؤوس الأموال المصرية والأجنبية وغير ذلك مما ينعش الحياة الاقتصادية ويساير نهضة الانتاج فى البلاد .

---

(٨٤) عبد الرحمن الرافعى ثورة ٢٣ يوليو — ص ٣٩١ .

وكان هــذا المجلس أول خطوة من خطوات الثورة نحو النهوض باقتصاديات البلاد فانه بكثير من الأعمـــال الهامة لدراســـة المشروعات الخاصة بالتنمية الزراعية والصناعية والتجرية وعمل على تنفيذها .

واتخذت الثورة فى هذا المجال عـــدة اجراءات ذات أهمية بالغة فى مساعدة المشروعات الانتاجية فساهمت فى رأس مال كثير من مشروعات التنمية الاقتصادية وخصصت جزءا فى ميزانيتها السنوية لهـــذا الغرض كما عقدت قروضا داخلية لحث المواطنين على المساهمة فى هـــذه المشروعات ثم اتجهت الثورة الى تشجيع راس المـــال الأجنبى فى مجـــال الاستثمار فى البلاد فأصدرت فى ١٩٥٢ القانون رقـــم ١٢٠ لتعدل به نسبة رأس المـــال المخصص للمصريين فى الشركات وجعله ٤٩٪ بدلا من ٥١٪ بقصد اجتذاب رؤوس الأموال الأجنبية للمساهمة فى مشروعات التنميـــــة .

وفى ١٦ يناير ١٩٥٤ أصدرت الثورة القانون رقـــم ٢٦ الذى يقرر أنه عند تأسيس الشركات أو زيادة رأس المـــال يجب عرض ٤٩٪على الأقل من أسهمها فى اكتتـــاب يقصر على المصريين وذلك لحث المواطـــنين على الاكتتاب فى أسهم الشركات وللحد من سيطرت كبار الرأسماليين والمولين على الشركات

واتجهت الثورة الى مشروع السد العالى لخدمـــة أغراض التنميـــة الزراعية والصناعية فى البلاد ، ويعتبر هذا المشروع من أضخم انجـــازات الثورة وقد وفر للبلاد طاقة كهربائية ضخمة وقد وجهت الثورة هذه الطاقة لمصنع الحديـــد والصلب فى أسوان وغـــير ذلك من مشاريع الصناعة فى البلاد ، كما أفادت البلاد من هذا المشروع كثيرا فى مجال الزراعة عن طريق توفير الكميات الهائـــلة من مياه النيل التى يحجزها السد فى بحـــيرة ناصر للانتفاع بها فى رى الأراضى أيـــام التحاريق ، وتحولت بهـــذه المياه كثير من مساحات الأراضى الصحراوية والبور الى أرض زراعية خصبة كما قامت الدولة بتحويل كثير من مساحات الأراضى التى كانت تروى برى الحياض الى نظام الرى الدائم وذلك مما أسهم فى التنمية الزراعية فى البلاد .

وقـــد قامت الثورة فى مبدأ الأمر فى أوائل ١٩٥٦ بالاعتماد على البنك الدولى للانشـــاء والتعمير لعقد قرض لانشاء السد العالى وأبدت الولايات المتحدة وبريطانيا استعدادهما لتقديم قرض مالى للمساهمة فى تنفيذ المرحلة الأولى للمشروع ، ولكن عادت الدولتان وسحبتا ماكانتا وعدتا به من عروض كما مارستا الضـــغط على البنك الدولى للانشاء والتعمير فتراجع هو الآخر عن المســاهمة فى تكاليف المشروع ، وكان هـــذا بسبب مزاعم الاستعمار أن أحوال مصر الاقتصـــادية قد تدهورت وأنها لاتستطيع الوفاء بالتزامات هـــذا المشروع الضخم . والواقع أن الدول الاستعمارية أرادت أن توجه صفعة قاسية لسياسة الحياد التى بدأت تنتهجها مصر .

وازاء هـــذا التحدى قامت الثورة بتأميم شركة قنـــاة السويس فى ٢٦ من يوليو ١٩٥٦ ، حتى تســـتطيع الحكومة المصرية الاعتماد على موارد القناة الضخمة فى اقامة مشروع الســـد العالى وغيره من المشاريع المنشودة لبناء صرح الاقتصــــاد القومى ، وتباشر سيادتها القومية على جزء مهم من أراضيهـــا .

وتعرضت مصر نتيجة لهذا الاجراء العدوان الثلاثى الغادر عليهـــا والذى شنته اسرائيل على ســـيناء وأعقبه الهجوم العســـكرى الانجلو فرنسى على قناة السويس ، بيد أن مصر خرجت كما ســـبق أن أشرنا ، من هـــذه الحرب منتصرة ، ولم تحقق هـــذه الحرب القصيرة ما كانت ترمى اليه انجلترا وفرنسا من القضـــاء على الثورة فى مصر .

وعقب رفض مصر لمشروع أيزنهاور ، قامت دول الغرب بحصـــار مصر اقتصاديا ، لاضعاف حكومة الثورة فى الداخل ، فظلت أرصدة مصر من الدولارات مجمدة الى جانب أرصدتهـــا من الفرنـــك والاسترلينى ولم تستأنف الولايات المتحدة مساعدتها الاقتصادية لمصر .

وخرجت مصر من حرب الســـويس وهى بحاجة الى مســـاعدات اقتصـــادية عاجلة بيـــد أن أمريكا تقاعست ورفضـــت مســـاعدة مصر ، وطلبت مصر الافراج عن أرصدتهـــا المجمدة فى أمريكا لكى تستطيع شراء

ما تحتاج اليه ، ولكن رفضت أمريكا أيضا . وافسحت أمريكا الباب لروسيا التى حصلت مصر منهـا على مساعدات عاجلة وغير مشروطة فى بادىء الأمر .

واضطرت مصر الى قلب ميزان تجارتها الخارجية نظرا لاستمرار تجميد دولاراتها وتجميد الاسترلينى والفرنك ، وبعد أن كانت نسبة تجارتها الخارجية مع الغرب ٧٥٪ قبل حرب السويس أصبحت هذه النسـبة مع الكتلة الصينية السوفيتية .

وقررت مصر تحطيم الحصار الاستعمارى الـذى فرضـته الدول الغربية عليهـا ، فعمدت فى ٢٧ ديسمبر سـنة ١٩٥٨ الى الاتفاق مع الاتحاد السوفيتى على أن يسـاهم فى تمويل المرحلة الأولى للسد العالى بأن يقدم لمصر قرضا طويل الأجل فى حـدود ٣٥ مليون جنيه تسدد علـى ١٢ قسطا سـنويا ابتداء من عام ١٩٦٤ بفائدة ٥ر٣٪ وهكذا بدأ العمـل فى السد العالى الذى ساعد بعد اكتماله فى بداية السبعينيات على رفاهية شعبنا وزيادة الدخل القومى فى البلاد .

ثورة يولية الاشتراكية ١٩٦١ :

بدأ دور الثورة الاشتراكية فى مصر حين فكرت مصر فى الخروج من الحصـار الاقتصادى الذى فرضه الاستعمار عليها ، وأخـذ الثوريون يدعون لثورة اجتماعية واشتراكية أبعد مدى مما حققته الثورة ، ويحدد جمال عبد الناصر نقطة البدء فى معركة الثورة الاشتراكية فيقول (فى سنة ١٩٦٠ تبين لنا أن الثورة التى قامت فى سـنة ١٩٥٢ على أن تكون ثورة سياسية وثورة اجتماعية قد أنهت دورها من الناحية السياسية وأنهـا لاتسـتطيع أن تندفع فى طريقها الثورى من الناحية الاجتماعية فى سـنة ١٩٦٠ كنت دائما اتكلم عن سـيطرة رأس المـال على الحكم ، لأنى فى هـذا العام بدأت أشعر بالخوف أو بالخطر من سيطرة رأس المـال على

الحكم . طبعا كان لابد للثورة الوطنية أن تأخذ طريقها ، ولابـد للثورة الاجتماعية أن تأخذ طريقها » وذلك أن خطر الرجعية كان قـد زاد ،تمثلا فى الرأسمالية ، خاصـة نتيجة استثمارهم للأموال فى الصناعة والمشروعات الكبرى التى بدأت تشق طريقهـا فى عهد الثورة . ولقـد أوضح جمال عبد الناصر خطر سـيطرة الرأسمالية على الحكم فى قوله : « طلبت كشفا بعدد من تزيد أرباحهم عن عشرة آلاف جنيه وذلك عن السنة المـاضية والسـنة التى قبلها فوجدت أن عدد من تزيد أرباحهم عن عشرة آلاف جنيه ، قد تضاعف فى سـنة واحدة » عندئذ أصبح لزاما على الثورة فى مصر أن تبنى دولة جديدة بنظام اجتماعى جديد ، ونظام اقتصادى جديد بحيث لايسمح للاقطاع أن يستبد ، ولا لرأس المـال أن يتحكم ، دولـه جديدة يكون النظـام فيها معبرا عن أمانى الشعب وطباعه لأن عملية خلق المجتمع الجديد تستلزم ضرورة أن يكون متمشـيا مع طبيعة هذا الشعب ومصلحته وكفاحه وتطلعاته وأحلامه ورؤيته بالنسـبة المستقبل .... بمعنى أن تكون عملية البناء شاملة وكما نريدها نحن : « فى الاقتصاد ، فى العمل ، فى الأجور ، فى ساعات العمل ، فى العلاقات بين أفراد المجتمع . فى الصحة ، فى التعليم ، فى التأمين الاجتماعى ، فى الثقافة »(٨٥) .

ومن ثم أرادت الثورة أن تقوم بتغيير جذرى فى مجال الثورة الاجتماعية لتغيير وجه المجتمع تغييرا أساسـيا فى يوليو ١٩٦١ ، وتتمثـل الثورة الاجتماعية فيما اتخذ من وسـائل للقضاء على الاقطـاع ، والاحتكار ، وسيطرة رأس المـال ، والقضـاء على الاستغلال من الداخل والخارج ، وقد اعتمدت هذه الثورة على قاعدتين أساسيتين :

القاعدة الأولى : اقامة اقتصـاد وطنى ، ثم العمل على تنمية هـذا الاقتصـاد ثم تطوير هذا الاقتصاد ليواجه احتياجات المجتمع ، وهـذا مايسمى بالثورة الاقتصـادية وهى التى تتعلق بتنمية مصـادر الانتـاج

(٨٥) من خطاب لجمال عبد الناصر فى ٢٣ يوليو ١٩٦١

القومى وتطويرها بحيث تتضاعف الثورة الوطنية وقد قطعت الثورة شوطا لابأس به فى هذا المضمار قبل قوانين يوليو ١٩٦١ الاشتراكية ، وقد أشرنا الى بعض هذه الانجازات التى كان على رأسها انشاء (مجلس للتنمية والانتاج القومى) ، ثم توجت أخيرا بمشروع السد العالى ، وتوسيع القطاع العام حتى يقوم بمهامه المنشودة فى مجال خدمة الاقتصاد القومى .

وفى عهد أنور السادات بدأت ثورة كبرى فى هذا المجال فأعلن سياسة الانفتاح الاقتصادى وخاصة مع الدول العربية والأوربية والولايات المتحدة بما يتمشى مع مصلحة البلاد وتنمية ثروتها ، فى عالم أصبح الانفتاح الاقتصادى ضرورة من ضرورات المعسكرين الشرقى والغربى وعقدت أخيرا كثيرا من المعاهدات الأوربية ، وبدأت مشاريع استثمار رأس المال العربى فى مصر واتاحة الفرصة أمامه لاجتذابه من الأسواق الأوربية والأمريكية التى تعود أن يرتادها .

واتخذت الدولة أخيرا كثيرا من الاجراءات لحماية رأس المال العربى من المصادرة والتأميم ، وغير ذلك من الاجراءات التى كانت سببا فى خوف أصحاب رؤوس الأموال العربية ، الأمر الذى جعلهم يشاركون فى كثير من المشروعات الاقتصادية فى البلاد وخاصة بعد حرب رمضان ١٣٩٣ هـ (أكتوبر ١٩٧٣) ولو نجحت الدولة فى مجال استثمار رؤوس الأموال العربية لجنت من وراء ذلك الخير الكثير .

والقاعدة الثانية : فى مجال الثورة الاجتماعية هى العمل على اقامة عدالة اجتماعية ، وهى التى تتعلق بكثير من التشريعات التى تعمل من أجل القضاء على الاستغلال فى جميع صوره وأشكاله ، كما تستهدف اعادة توزيع الناتج من الدخل القومى توزيعا عادلا ، وتقليم أظافر رأس المال حتى لايطغى ، وسيطرة الشعب على وسائل الانتاج وتوسيع مجال القطاع العام .

وفى هذا الصـــدد قامت الدولة باعلان ثورة تشريعية فى عدة مجالات نلخصها فيما يلى : فى يوليو ١٩٦١ صـــدر القانون رقم ١١٧ والذى ينص على تأميم عـــدد كبير من البنوك وشركات التأمين وغيرها من المنشآت ، بحيث تؤول ملكيتها الى الدولة ، وتتحول أسهمها ورؤوس أموالها الى ســـندات اسمية على الدولة لمدة خمس عشرة ســـنة بفائدة ٤٪ ، ويجوز للحكومة بعد عشر ســـنوات أن تستهلك هـــذه السندات كليا أو جزئيا بالقيمة الأسمية بطريقة الاقتراع فى جلسة علنية . هذا بحيث تظل هـــذه الشركات والبنوك محتفظة بشكلها القانونى عند صـــدور هذا القانون ، كما تستمر فى مزاولة نشاطها .

وكان الهدف من هذا التأميم تحقيق سيطرة الشعب على وســـائل الانتاج ، فضلا عن المصارف ومؤسسات الائتمان والتجارة الخارجية ، وبذلك تقضى على الاحتكار والاستغلال ، وتحقق فائضا يوجه لتمويل خطة التنمية ، كما أنها تزيل « قواعد الســـيطرة الاقتصادية التى بدونهـــا يتحول الاستقلال السياسى الى مظهر والى شكل كلاهما فارغ لا يساوى التضحيات ولا يشرف مقدارها » .

والسيطرة على البنوك كانت شيئا مهما ، لأنها هى التى تقوم بتجميع المدخرات القومية وتوجيهها نحو أنواع القروض المختلفة والمفروض أن البنوك ومؤسسات الائتمان توجه جزءا كبيرا من المدخرات التى تجمعهـــا الى تمويل المشروعات الانتاجية القومية فى صـــورة قروض بفوائد معتدلة مما يتضمن انتعاش اقتصـــاد البلاد ولكن الوضع فى مصر كان حتى قيـــام ثورة ١٩٥٢ يقوم على ســـيطرة رءوس الأموال الأجنبية بحيث أن اجهزة الائتمان من البنوك وشركات التأمين كان معظمها بأيدى الأجانب وبالتـــالى فقـــد خضعت لمشيئة الاســـتعمار وقصرت مهمتها على تمويل التجـــارة الخارجية بين مصر والدول الاستعمارية وخاصـــة بريطانيا ، واذا أراد بعض رجال الأعمال فى مصر قرضـــا مصرفيا لتمويل مشروع صناعى ليعود على البلاد بالخير امتنعت تلـــك البنوك والمؤسسات عن تقديم القرض

المطلوب وعلى العكس من ذلك كانت المصـــارف والمؤسسات الائتمانية تجمع المـــدخرات ورؤس الأموال المصريـــة وتقوم بكثير من المشروعات الانتاجية فى الخارج وهـــذا الأمر فيه خطورة على الاقتصاد الوطنى ، وقد كشفت الاحصائيات التى أجريت فى نهاية ١٩٥٦ عن بعض الحقائق المهمة وهى أن راســـمال البنوك الأجنبية الموجودة فى مصر كان عندئذ نحو خمسة ملايين جنيه بينما كانت تتحكم فى ودائع ومدخرات مصرية بلغت نحو مائة مليون جنيه ، فاذا عرفنا أن مجموع الودائع الوطنية فى ذلك الوقت بلغت نحو مائتى مليون جنيه كان معنى ذلك أن هذه البنوك والمؤسسات الأجنبية وضعت خمسة ملايين جنيه لتتحكم فى نصف المدخرات الوطنية .

هذا الاضافة الى أن تبعيه هـــذه البنوك والمؤسسات لمستثمرين أجانب تشـــكل خطورة على الاقتصـــاد القومى فتصبح مطية للاستعمار ينفذ بهـــا أغراضه فى احداث هزة عنيفة فى حيـــاة البلاد الاقتصادية ، فكان تأميم هـــذه المؤسسات فيه تحرير للاقتصاد المصرى والقضاء على السيطرة الأجنبية .

كما صـــدر القانون رقم ١١٨ فى ٢٠ يوليو ١٩٦١ والذى يقضى بأن تتخـــذ كل من الشركات والمنشـــآت المؤممة شـــكل شركة مســـاهمة عربية وأن تســـاهم فيها احـــدى المؤسسات العامة التى يصدر بتحديدها قرار من رئيس الجمهورية بحصـــة لا تقل عن ٥٩٪ من رأس المـــال وتؤدى الحكومة من الحصة التى تساهم بها المؤسسات العامة فى رأس مال هذه الشركات والمنشآت بموجب سندات أسميه على الدولة بفائدة ٤٪ سنويا لمدة خمس عشرة سنة(٨٦) .

وهكذا تحول جزء كبير من الشركات والمنشآت والمشروعات الخاصة من القطـــاع الخاص الى القطاع العام الذى أصبح قلعة التنمية ومجالا

(٨٦) د. طعيمة الجرف ، ثورة ٢٣ يوليو ومبادىء النظام الدستورى فى ج . ع . م ص ٢٥٣

واسعا لتطور الاقتصـــاد القومى وتحريره من سيطرة راس المـــال الخاص وخاصة الأجنبى .

وفى ٢٥ يوليو ١٩٦١ صـــدر القانون رقم ١٢٧ لتعديل بعض أحكام قانون الاصـــلاح الزراعى الصادر سنة ١٩٥٢ ، فنصت المـــادة الأولى على أنه لايجوز لأى فرد أن يمتلك من الأرض الزراعية أكثر من مائة فدان ، ويعتبر فى حكـــم الأراضى الزراعيـــة ما يملكه الأفراد من الأراضى البور الصحراوية « وكل تعـــاقد ناقل للملكية يترتب عليه مخالفة هذه الأحكام يعتبر باطلا ولا يجوز تسجيله » .

كما نص هـــذا القانون على عدم الاخلال بحق المـــالك فى الانتفاع بما يملكه من الأراضى الزراعية وما فى حكمها فانه اعتبارا من سنة ١٩٦١ وســـنة ١٩٦٢ الزراعية لايجوز لأى شخص هو وزوجته وأولاده القصر أن يحوزوا بطريق الايجار او وضع اليد على الأراضى الزراعية وما فى حكمها غير المملوكة لهم مســـاحة تزيد على خمســـين فدانا كما لا يجوز الوكالة فى ادارة أو اســـتغلال الأراضى وما فى حكمها فيما يزيد على هذا القدر وينزل من القدر بمقدار ما يكون الشخص واضعا اليد عليه باعتباره مالكا ، وكل عقد يترتب عليه مخالفة هذه الأحكام باطلا .

وقد نقم الاقطاعيون من قانون الاصلاح الزراعى ، ورأوا فيه افتياتا على حقوقهم الموروثة ، على الرغم من أن هـــذا القانون قد أجاز لهـــم التصرف بالبيع لصـــغار المزارعين فيما زاد عن النصاب الذى حـــدده هـــذا الزائد ، واشتروا بثمن ما باعوه كثيرا من العقـــارات المبنية التى درت عليهم أرباحا لا تقل عن ربحهم من الأراضى الزراعية أو اســـتغلوه فى الصـــناعة فلم يخسروا شيئا من قانون الاصـــلاح الزراعى ، اللهـــم الا السيطرة القديمة والمكانة الاقطاعية .

ويعتقد البعض أن توزيع الملكية الزراعية على صغار الملاك أفاد البلاد بوجود طبقة من صغار الملاك التى كان فى تكاثرها وقاية لكبار الملاك من خطر الشيوعية التى لاتبقى على الملكية ، كبيرها وصغيرها ، فالشيوعية

لا ترضى عن صغار الملاك ، بل تعدهم أعداءها الألداء ، ولا ترضى الا عن طبقة المعدمين ، وتعتبرهم أســاس المجتمع الشيوعى ، فطبقــة صغار الملاك الزراعيين هم اذن الخصــوم الطبيعيون للشيوعية وهم العقبة الكبرى فى سبيل انتشــارها ، ولو فطن الأغنياء الى حقائق الأمور لو جدوا فى هذه الطبقة وقاية لهم من الشيوعية المدمرة(٨٧) .

وعلى ذلك يجب أن نلاحظ أن القوانين الاشتراكية قد منعت تسرب الشيوعية الى البيئة المصرية ، وذلك لأنها حلت الصراع بين الطبقات بالطرق السلمية .

كما أكدت هذه القوانين ضرورة ارتباط الديمقراطيــة السياســية بالديمقراطية الاجتماعية وهــذا ما سجله ميثاقنا الوطنى حين قال : « أن الديمقراطية السياسية لا يمكن أن تنفصل عن الديمقراطية الاجتماعية أن المواطن لا تكون له حريــة التصويت فى الانتخابات الا اذا توافرت لــه ضمانات ثلاثة :

— أن يتحرر من الاستغلال فى جميع صوره .

— أن تكون له الفرصة المتكافئة فى نصيب عادل من الثروة الوطنية .

— أن يتخلص من كل قلق يبدد أمن المستقبل فى حياته .

وبهذه الضمانات الثلاثة يملك المواطن حريته السياسية ويقدر أن يشــارك بصوته فى تشكيل سلطة الدولة التى يرتضى حكمها »(٨٨) .

---

(٨٧) عبد الرحمن الرافعى — ثورة ٢٣ يوليو — مرجع سبق ذكره ص ٤٣٧

(٨٨) الميثاق الوطنى الباب الخامس .

الاتحاد الاشتراكى العربى :

وأمام التغييرات الجديدة برزت أهميـــة وجود تنظيم جديد يحرس المكاسب الشـــعبية التى صنعتها قوانين يوليو الاشتراكية ، سنة ١٩٦١ ، فان الاتحاد القومى وهو التنظيم الثانى للثورة بعد هيئة التحرير قد وقف من هذه القوانين موقفا سلبا نظرا لتسلل العناصر الراجعية الى صفوفه ، واصبحت الحالة ماسة الى تنظيم بديل يجمع قوى الشـــعب العاملة من العمال والفلاحين والجنود والمثقفين والراسمالية الوطنية ، وهذه القوى هى صاحبة المصلحة الحقيقية فى الثورة .

وهكذا عندما لم يؤد التفاعل بين الطبقات فى (الاتحاد القومى) الى نقطة الالتقاء المنشـــودة ، كان لابد من جعل التنظيم الجديد قاصرا علـــى أولئك الذين ترتبط مصالحهم بالمصالح الاشتراكية او هكذا راى جمـــال عبد الناص ففى ســـنة ١٩٦٣ اعلن قيـــام « الاتحاد الاشتراكى العربى » كتنظيم سياسى يجســـد نظرية تحالف قوى الشـــعب العامل ، ومن اهم أهداف الاتحاد الاشتراكى ما يلى :

— تحقيق الديمقراطية السليمة بالشعب وللشعب .

— تحقيق الثورة الاشتراكية التى هى ثورة الشعب العامل .

— حماية الضمانات التى قررها الميثاق للعمال والفلاحين وأهمهـــا ضرورة تمثيلهم فى المجالس الشعبية بنسبة لا تقل عن ٥٠٪ لانهم أغلبية الشـــعب .

— تأكيد مبدأ القيادة الجماعية .

— تدعيم التنظيمات التعاونية والنقابية .

— نقل سلطة الدولة الى المجالس المنتخبة تدريجيا .

ووسط ظروف بالغة الصعوبة والخطر اســتطاع شعبنا أن يحقق الكثير فى مرحلة التحول الاشتراكى وأن يخطو نحو أهدافه بقوة وايمان . وذلك على الرغم من السلبيات التى تخللت هــذه الفترة . ويعبر محمد أنور الســادات عن هذه الفترة كأبلغ ما يكون التعبير فيقول :

« هكذا خرجنا من حرب السويس الى فترة من أعظم فترات حياتنا .. تمصير ثم تأميم كل المصالح البريطانية والفرنسية على أرضنا » .

« ان الثورة السياسية ضــد الاستعمار كان يقرب تحقيق انتصارها وبدأت الثورة الاجتماعية تلح باعتبارها المطلب الذى جاء دوره كاملا ، من هــذا المنطلق جاءت عملية التحول الاشــتراكى العظيم ممثلة فى قوانين يوليو المجيدة سنة ١٩٦١ » .

ويقول الســادات أيضا عن هذه الفترة : « فى ضــوء التجربة بلور الشــعب المصرى خلاصــة الممارسة فى وثيقة ثانية أضافها الى الوثيقة الأولى .. الوثيقة الأولى كانت فلسفة الثورة والوثيقة الثانية ميثاق العمل الوطنى .. كان الميثاق هو الحصلة للتجربة الكاملة من ٥٢ — ١٩٦١(٨٩) .

سلبيات هذه المرحلة :

وعلى الرغم من المكاســب التى حققهــا شــعبنا فى فترة التحول الاشتراكى وثورته الاجتماعية الا أنه قــد ظهرت عــدة سلبيات أحاطت بالعمل الوطنى ، وذلك شــأن أى تجربة ثورية ونلخصها فيما يلى :

— أن بعض الكوادر المسيطرة على الاتحــاد الاشتراكى كان لهــا صلة بالخارج وبالأفكار المــاركسية التى أرادت أن تفرضهــا على أذهان شــبابنا .

— عــدم توافر الكوادر الواعيــة بتراث البلاد وحضارتها والتى يمكن أن تدعم هذه المواقع والأجهزة المسئولة عن عملية البناء الاشتراكى .

---

(٨٩) الســادات ومسئولية البناء والتحرير — مرجع ســبق ذكره ص ٣٥

— أن بعض العناصر التى تولت مسئولية العمل فى عدد من المواقع لم تهتم بالقاعـــدة مما حدا بها حفاظا على مصالحهـــا ، أن تبالغ فى رفـــع الشعارات ، وان تتملق القيادة الثورية مما أدى الى شيوع جو من النفاق السياسى

— اخذ العمل فى الاتحاد الاشتراكى أسلوب العمـــل المكتبى ، وذلك بدلا من العمل وسط الجماهير

— وجـــود بعض العناص الانتهازية التى اثرت ثراء فاحشا مستغلة مناصبها فى التنظيمات الشعبية .

— اعتمدت الثورة فى هـــذه الفترة على اســـناد كثير من المناصب القيادية الى أهل الثقة دون أهل الخبرة .

— عدم ولاء القيادة الكبرى فى القوات المسلحة للصـــالح الوطنى العام مما جعلها تشـــكل مراكز للقوى اسهمت الى حد كبير فى حـــدوث النكســـة .

— تحول أجهزة الاعلام الى أبواق للدعاية الجوفاء بدلا من أن تكون منابر تقوم بالتوجيه والتوعية (٩٠) .

كانت هذه أهم السلبيات التى أدى تراكمها الى حدوث النكسة فى يونيو ١٩٦٧

الظروف والملابسات الدولية التى وقعت فى ظلها النكسة :

اتبع الاستعمار استراتيجية الهجوم على النطـــاق العالمى ، وتبلورت هـــذه الاستراتيجية فى العـــدوان الأمريكى على فيتنام ، وعلى جمهورية الدومينيكان ، والانقلابات الرجعيه فى أندونيسيا وغانا ، وفى اطار هـــذه

---

(٩٠) المرجع السابق ص ٣٧

السياسة تحركت أمريكا فى الشرق الأوسط ، وحاولت أن تغير الأوضاع فيه معتمدة على الضغوط الاقتصادية ، فتوقفت عن امداد مصر بالقمح الأمريكى ، وحاولت عزل مصر وزاد نشاطها فى التجسس على منطقة الشرق الأوسط خلال عامى ١٩٦٦/٦٥ وبدات الصحف الأمريكية تتحدث عن احتمالات الحرب فى الشرق الأوسط .

واستطاعت اسرائيل أن تحصل على كثير من السلاح ، وتحولت الى مخزن للسلاح الأمريكى ، واعدت خططها بالاشتراك مع الولايات المتحدة للهجوم على العرب ، وبدات سلسلة من التحرشات الواضحة ابتداء من أوائل سنة ١٩٦٧ من بينها العدوان المدبر على قرية السموع الأردنية ، ثم حشد القوات الاسرائيلية على حدود سوريا والتهديد بالزحف الى دمشق .

ومن ثم تحركت القوات المصرية الى سيناء ، وتم سحب قوات الطوارىء فى جو كان يميل الى المبالغة فى قوى الثورة العربية ، والى التقليل من قوة أعدائها بالاضافة الى المخادعة الأمريكية من جانب آخر ، والأخطاء الكبيرة التى ارتكبتها القيادة العسكرية المصرية آنذاك من جانب ثالث ادت الى نتائج معاكسة تماما .

فى هذا الجو تمكنت اسرائيل من أن توجه ضربة قوية الى قواتنا المسلحة وبلغت فى ذلك درجة من النجاح فاقت كل تصوراتها وأحلامها وحاول العدو تحقيق أهدافه وفى مقدمتها :

— فرض الصلح على العرب بالقوة .

— الاحتفاظ بالأراضى الجديدة فى سيناء والجولان والضفة الغربية لنهر الأردن كخطوة جديدة فى سبيل تحقيق حلمه الكبير فى تكوين دولة اسرائيل الكبرى التى تمتد من الفرات الى النيل .

— تصفية الثورة العربية وتعميق الانقسام بين أجزاء الوطن العربى .

— حماية الاستثمارات البترولية ، ودعم سيطرة الاستعمار عليها .

غير أن شعبنا رفض الهزيمة ، وتماسك أمام الصدمة التى هزته من أعماقه ، وخـــرج فى هبة جماهيريـــة فى ٩ ، ١٠ يونيـــو على أثر تنحى عبد الناصر ، يرفض الاستسلام ويطالب عبد الناصر بالثبات أمام العـــدو وعـــدم الضعف وينادى بأن ما أخـــذ بالقوة لايسترد بغير القوة ، وطالب من أجل ذلك باعادة بناء القوات المســـلحة لاسترداد الأراضى ، وطالب بتخطيط اعلامى جديد لاكتساب الرأى العـــام العالمى للوقوف بجانب الحق العربى ، وتعرية موقف اسرائيل عالميا ، وايضاح أنها رأس جسر للاستعمار فى الشرق الأوسط .

كما طالب الشـــعب بمحاكمة من تسببوا فى نكسته ، وطالب بضرورة التغيير من أجل اعادة البنـــاء العســـكرى والنفس للوقوف على أرض صلبة أمام العدو المنتصر ومن ثم فان قضية التغيير قـــد طرحت نفسهـــا بشدة عقب نكسة ١٩٦٧ ، « ومن السويس وسيناء وغزة والعريش أسهمت أصـــوات الأسرى من المصريين فى المطالبة ببداية جادة وحازمة ، وبأن يتوقف الاسراف وتنتهى المظاهرة وتكون هنـــاك مقاييس للحساب ثوابـــا وعقابا وأن يوضع حد للامتيازات التى حصل عليها البعض بغير وجه حق ، وبأن يكون ثمة تكافؤ فى التضحيات »(٩١) .

وعلى أثر ذلك ســـقط الجناح العسكرى أمام قوة الجماهير وتفاعلها مع القيادة الثورية ، وبدأ المد العسكرى الذى امتد فى جميع مرافق حياتنا الاقتصـــادية والسياسية ينحسر شيئا غير أن قوتة كانت قد استشرت فى الحيـــاة المصرية وكون مراكز قوى جـــديدة ، عطلت الاصلاح ، وقـــد ظهر هـــذا واضحا فى الأحكام الهزيلة التى أعلنتها المحكمة التى شـــكلت لمحاكمة من تسببوا فى النكسة (٩٢) .

---

(٩١) سيد حامد النساج — مصر وظاهرة الثورة ص ٣٠٠

(٩٢) أعلن فى ١٩٦٧/٩/٢٥ عن اجراء هـــذه المحاكمات ، وأنها =

حركة العمال والطلاب فى فبراير ١٩٦٨ :

واجهت الثورة حركة شعبية عارمة كان على رأسها العمال والطلاب عقب اعلان الأحكام الهزيلة التى أصدرتهـــا المحكمة العسكرية ضـــد من تسببوا فى النكسة من الجناح العسكرى أو المخابرات ، وكانت هذه الحركة تعبيرا صادقا عن معاناة جماهير مصر بعـــد فترة نقد النفس التى مارسها المجتمع باعلان المحاكمات العسكرية لقيادات الجيش المصرى والتى اتضح منهـــا أن الشرائح الجديدة المســـتفيدة من الثورة كانت قد هيمنت على الحياة السياسية والاقتصادية فى مصر(٩٣) .

لقد صدر حكم المجلس العسكرى ضد رجال الطيران وعلى رأسهم قائد الســـلاح السابق الفريق صدقى محمود ، وأدرك الشعب بوعيـــه واحساسه المرهف أن المحاكمة لم يقصـــد بها فى واقع الأمر سوى امتصاص غضب الجماهير والالقاء بمسئولية الكارثة بأكملها على عـــدد محدود من ضباط الطيران وابعادها عن المسئولين الحقيقين الذين زجوا بالبلاد فى حرب لم يعدوا لها اعدادا جديا ، كما أدرك أنه ان صحت مسئولية رجال الطيران وكان اتهامهم جديا لاقتضى ذلك الاطاحة بالرؤس وعـــدم الاكتفاء بعقوبة الأشغال الشاقة .

= ستشمل المسئولين عن النكسة من العسكريين ، وتشمل أيضا الـــذين دبروا محاولة الاستيلاء على القيادة العليا للقوات المسلحة ، كما تشمل التحقيق فى انحرافات جهاز المخابرات العامة عن مهمتة الأصلية ، وصدرت هذه الأحكام فى فبراير ١٩٦٨ .

(٩٣) السادات ومسئوليات البناء والتحرير ، مرجع ســـبق ذكره ص ٦٣

وفى بداية الأمر قام عمال مصـــانع الطائرات بحلوان بمظاهرات فى ٢١ فبراير ســـنة ١٩٦٨ أخـــذوا يرددون فيهـــا نداءات تعبر عن عـــدم الرضا بالاحكام الصـــادرة فيما سمى بقضية الطيران وأصروا على التوجه الى مجلس الأمة ومنزل رئيس الجمهورية فتعرض لهم المسئولون بالاتحاد الاشتراكى وحاولوا اقناعهم بالتوجه الى مكتب الاتحاد الاشتراكى بحلوان لاعلان ما يريدون من قرارات وعند وصـــول المظاهرة الى قسم الشرطة تصـــدى لها مأمور القســـم مع بعض الجنود بالعصى وبعض رجال المطافىء بخراطيم المياه وأطلقوا عليها أعيرة نارية وأصابوا منهم بعض العمـــال وقبض على البعض الآخر .

واندلعت المظاهرات بالقـــاهرة أيام ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ من فبراير فى دوائر أقســـام الوايلى ومصر الجديدة والظاهر وباب الشعرية والأزبكية وقصر النيـــل وعابدين والســـيدة والجيزة أشترك فيهـــا آلاف من طلبة جامعة القاهرة وعين‌شمس والمدارس الثانوية وآلاف من العمال وغيرهم ، وكانت حصيلتها قتل شخصين من العمال واصابة ٧٧ من الأهالى منهم ١٢ باصابات نارية من رصاص و ٢٤ باصابات نارية من رش و ٤١ باصابات رضية من عصى كما أصيب بعض رجال الشرطة(٩٤) .

وطالبت الجماهير فى هذه الحركة بعـــدم التهاون من المنحرفين والذين تسببوا فى نكســـة الوطن ، كما طالبوا بضرورة التغيير ومنع رجال الجيش من الانتشـــار فى مرافق الحيـــاة العامة وسقوط دولة المخابرات والمباحث ونادى المتظاهرون بالحريات وانهاء عهد الارهاب . وكان من بين الهتافات التى ترددت فى المظاهرات على سبيل المثال :

«وديتوافين فلوسنا لما اليهود تدوسنا »، «هيكل هيكل ياكداب بطل كدب يانصاب » ، « البلدى بلدنا واللى ماتوا أولادنا » ، « لاانتهازيـــة

---

(٩٤) أنظر المستشار محمد عبد السلام ، سنوات عصيبة ذكريات نائب عام القاهرة ١٩٧٥ ص ١٢١ : ١٢٢.

ولارجعية ياجمال الشعب ساخط على الأحكام » ، « تسقط دولة المخابرات » ، « تسقط دولة العسكريين » وحمل الطلبة لافتات كتبت عليها عبارات منها : « يجب انهاء تحكم المباحث والمخابرات » ، « تسقط دولة المباحث » ، « القضية ليست قضية الطيران بل قضية الحريات » ، « تسقط صحافة هيكل الكاذبة » ،« لاحياة من الارهاب ولاعلم بلا حرية » ، « أطلقوا الحريات » ، « افرجوا عنا » ، « حرية الكلمة من أجل الشعب » ، « يسقط الظلم » .

ووزع الطلبة بعض المنشورات جاء فى بعضها : « ان الحرية تؤخذ ولا تعطى وأن المقاومة السلبية هى الطريق لتسمع أصواتنا ولاجبار السلطة الحاكمة على احترام الحريات » وحدد المنشور الطلبات على النحو الآتى : الافراج عن جميع الطلبة المعتقلين — حرية الرأى والصحافة — مجلس نيابى حر يمارس الحياة النيابية الحقة السليمة — ابعاد المخابرات والمباحث عن الجامعات اصدار قانون الحريات والعمل به — توضيح حقيقة المسئولين فى قضية الطيران — التحقيق فى انتهاك حرمة الجامعات واعتداء الشرطة على الطلبة(٩٥) .

أما فى مدينة الاسكندرية فقامت حركة طلابية مماثلة فى جامعتها ، عقد الطلبة فى بدايتها مؤتمرا فى كلية الصيدلة يوم ٢٤ من فبراير حضره مدير الجامعة وبعض الأساتذة ، وأصدر المؤتمر بعض التوصيات كان من بينها : « أن نتيجة محاكمة المسئولين عن كارثة الطيران تعطى انطباعا بأن المتهمين المقدمين الى المحاكمة لم يكونوا هم المسئولين الحقيقيين عما حدث ، فمن هم هؤلاء المسئولين الحقيقيون ، وأين هو العقاب الرادع الذى يتناسب مع ماحدث والمطالبة بمعرفة المسئول الذى أصدر الأمر باطلاق الرصاص على العمال فى حلوان ، وتوقيع أقصى عقوبة على هذا المسئول ، وضمان حرية الصحافة وحرية النقد البناء وابداء كل رأى حر حتى تصل الى

---

(٩٥) المرجع السابق ص ١٢٣

الشعب الأخبار الصحيحة عما يحــدث فى البلد ، كما طالبوا بتنحية الليثى عبد الناصر (شقيق جمال عبد للناصر) من منصــبه فى الاتحاد الاشتراكى بالاسكندرية لعدم ثقة الجماهيريه ، كما أدانوا عملية التفرغ السياسى الذى خلق فئات من المرتزقة يكون ولاؤهم لمن عينهم لا للمبدأ ، كما أدانوا تدخل المباحث العامة فى حرية الجماهير ، وأصر المؤتمر على أن تخرج توصياته من الجامعة رأسا الى رئاسة الجمهورية دون وساطة أى مسئول سياسى .

وفى مساء ذات اليوم ١٤ من فبراير ســار طلبة المدينــة الجامعية بالاسكندرية بمظاهرة للتعبير عن استيائهم من أحكام قضية الطيران . كما واصلوا مظاهراتهم يوم ٢٦ فبراير فى أنحاء شتى من الاسكندرية واصطدام رجال الشرطة بالطلبة المتظاهرين وأصــيب بعض الطلاب وقبض علــى بعضهم .

وأعــد بعض طلبة كليتى الصــيدلة والهندسة منشورا فى يوم ٢٦ من فبراير جاء فيه : « أيهــا الأخ المصرى ، لقد اجتازت البلاد فترة عصيبة من الفساد وتلا ذلك حكم لا يقوم الا على المصــلحة الفردية ، وها أنت يا أخى على دراية تامة بالأحداث التى تمر بهــا البلاد ، وان كنت يا أخى ترضى بان يكون مصير كل حر جدران المعتقلات فلن ترفع مصر راسها بعد اليوم — اننا نحن طلبة الجامعات نطلب منك أن ترفع صوتك بجانبنا » وطالبوا . باعدام كل من أصدر الأمر باطلاق النار على شهداء حلوان ، واعــدام كل من أصدر الأمر باعتقال الطلبة ، وأن يطلق سراح الطلبة المعتقلين »(٩٦) .

ثم صــدر القرار باغلاق الجامعات لأجل غير مسمى أملا فى هــدوء المشاعر التى بدأت تشــتعل وحصر الحركة قبــل أن تنتشر فى قطاعات أخرى من الشعب كانت تشعر بما يشــعر به العمال والطلاب ولكنهــا

---

(٩٦) يذكر النائب العام محمد عبد السلام أن طلبة كليتى الصيدلية والهندســة بجامعة الاسكندرية كانوا قد أعدوا هذا المنشور ولكنهم عدلوا عن توزيعه وأحرقوه فى اليوم التالى ، وقد أقربه أحد محرريه .

لاتجرؤ على اعلان رأيهـــا خوفا من حكم الارهاب الذى ساد مصر كلها .

والواقع أن حركة الطلاب والعمال كانت صدى حقيقيا لآلام الجماهير التى يعانى منهـــا ملايين الشـــعب ، وتعبيرا صادقا عما كان فى صدور المواطنين ، وقـــدمست بصدق واخلاص فى عبارات بريئة كل العيوب التى ادت الى النكسة .

بيـــان القضـــاة :

لقد تجاوبت الســـلطة القضائية فى مصر مع غضبة الجماهير علـــى فســـاد الحكم ، كما تجاوبت مع آمال الشـــعب فى اقامة حياة ديمقراطية سليمة ، وارساء قواعد العـــدل والنظام فى البلاد .

فاجمعت الجمعية العمومية لقضـــاة الجمهورية بالقـــاهرة فى ٢٨ من مارس ١٩٦٨ وأصـــدروا بيانا تاريخيـــا طالبوا فيه بســـيادة القـــانون واســـتقلال السلطة القضائية ، والبعد بالقضـــاء عن كافة التنظيـــمات السياسية حتى يتأكد لهم النقـــاء والتجرد والحيدة ، وكان هـــذا البيان من المبررات التى استخدمت لارتكاب مذبحة القضـــاء بعد صدور البيـــان وقد قال القضاة فى بيانهم .

« اذا كانت المعركة المقدســـة التى تعبؤ لهـــا كل الجهود تحتـــاج ولا شـــك الى جبهة داخلية صلبة تســـتند اليها قواتنا الباسلة الرابضة على خط القتـــال ، فلا جـــدال فى أن صلابة الجبهة الداخلية تقتضى أول ما تقتضى ازالة كافة المعوقات التى اصطنعتهـــا أوضـــاع ما قبل النكسة أمام حرية المواطنين . وذلك لأن الانســـان الحر على ما يقول الميثـــاق هو أساس المجتمع الحر ، كما أن الحرية هى القادرة وحدها على تحريك الانســـان .

ومن هنا وجب تأمين الحرية الفردية لكل مواطن فى الرأى والكلمة والأجتماع وفى المشاكة بالنقد والحوار والاقتراح وفى الاحساس بالمسئولية

والقدرة على التعبير الحر . ولايكون ذلك الا بتأكيد الشريعة الذى يعنى فى الدرجة الأولى كفاية الحريات لكافة المواطنين وسيادة القانون على الحكام والمحكومين على السواء .

ويمضى بيان القضاة يقول :

وتحقيقا لسيادة القانون ، وحتى يكون كما أراده الميثاق خادما للحرية وليس سيفا مسلطا عليها يتعين البدء فورا فى ازالة كافة البصمات التى شوهت بها أوضاع ما قبل النكسة صورته ، ليأمن جميع المواطنين على حرياتهم وحرماتهم ، فلا تسلب أو تمس الا طبقا لأحكام القانون العام وحده وبحكم من القضاء العام وحده وبالاجراءات المتبعة أمامه وحدها .

ويركز البيان على استقلال السلطة القضائية فيرفض انضمام القضاة لكافة التنظيمات السياسية ويقول :

« ان قيام سلطة قضائية حرة مستقلة ، ينفرد الدستور بتأكيد استقلالها وبيان ضمانات أعضائها ، يعد ضمانة أساسية من ضمانات شعبنا ومن ثم دعامة أساسية من دعامات صلابة الجبهة الداخلية .

ولقد وجد الشعب فى قضائنا دائما وفى مختلف الظروف الأمن والنصفة واستقر ذلك فى ضميره لما قام عليه هذا القضاء من أصول ثابتة تؤكد حريته وتدعم حيدته ومن أبرز هذه الأصول البعد بالقضاة عن كافة التنظيمات السياسية حتى يتأكد لهم النقاء والتجرد والحيدة » .

وطالب البيان بتخصص القضاء وتفرغهم فقال :

« اذا كانت الرغبة فى التجربة قد منحت فى بعض الآحيان سلطة الحكم الى غير القضاة المتخصصين المتفرغين ، فقد أثبتت هذه التجربة فشلها فى القديم والحديث فى الوقت الذى أثبت فيه قضاتنا أنهم أبناء هذا الشعب من فلاحيه وعماله وجنوده ومثقفيه ومختلف فئاته يعيشون واقعة ويتمثلون أحلامه فيلائمون دوما بين النصوص الجافة ومفهوم العدالة المتطور » .

وأكد البيان أن النيابة العامة شعبة أصيلة من السلطة القضائية يسرى على رجالها ما يسرى على قضـــاة الحكم من ضمانات ويتوفر لهم ما لهؤلاء من حصانات .

وانتهى البيان التاريخى للقضـــاة بتسجيل مطالبهم فأتت على النحو التـــالى :

أولا : يستنكر القضـــاة اجراءات التوسع والعدوان التى أقـــدمت عليها عصابة الصهاينة العنصرية وهى اجراءات غير شرعية تتعـــارض مع القوانين الدولية وميثاق الامم المتحدة كما يستنكرون فى الوقت ذاتـــه أعمال التدمير والتنكيل التى تقوم بها هـــذه العصابة فى الأراضى العربية .

ثانيا : يهيب رجال القضاء بالدولة أن تعبىء الشعب تعبئة كاملة .

ثالثا : يرفض القضاة أى تنازلات تحت أى ضغط من الضغوط .

رابعا : صلابة الجبهة الداخلية تقوم فى الدرجة الأولى على تأمين حرية المواطن فى الرأى والكلمة والاجتماع وتأكيدا مبدأ الشرعية وســيادة القانون فى ظل من رقابة السلطة القضائية فحسب .

خامسا : القضـــاء سلطة مستقلة عن باقى السلطات ورسالة سامية تصـــل بين القاضى وخالقه ولا يراعى القـــاضى فى قضائه الا نصفه المظلوم والأخذ بيد الضعيف ولذلك عنيت جميع الدول مهما اختلفت نظم الحكـــم فيهـــا برسالة القضاء وعملت على استقلاله عن باقى السلطات وتوطيد ســـلطته ورعاية القائمين عليه — لامراعاة لأشخاص القضـــاة ولكن لتوفير ضـــمانه من ضمانات الشـــعب فى أن يعيش فى جو من الآمن والعدالـــة والاســـتقرار .

سادسا : ينبغى أن تتوافر لرجال النيابه العامة ذات الضمانات التى توفرها الأمة لرجال القضـــاء باستقلالهم وعدم قابليتهم العزل .

سابعا : يرى رجال القضـاء والنيابة محافظة منهم على اسـتقلال القضـاء وضمانات العدل أن يكونوا جميعا بعيدين عن المشاركة فى أية تنظيمات سياسية فى الاتحاد الاشتراكى على كافة مستوياته .

ثامنا : أن القضـاء كما وصفه الرئيس بعبارته الخالدة صمام الأمن فى وطننا ، كما أن تخصص القـاضى السليم يجب الحرص عليه بعـدم المساس باختصاصات السلطة القضائية وعـدم اشتراك غير المتخصصين فى أداء رسالة القضـاء .

تاسعا : يرفع القضاة هـذا الرأى الى السيد رئيس الجمهوريـة اعتزازا منهم بتقديره لرسالتهم واسهاما برأيهم فى التغيير المنشود(٩٧) » .

شعار : « لاصوت يعلو فوق صوت المعركة » :

أراد الذين هزموا الشعب ألا يتحدث أحد بمؤاخذتهم بسبب الهزيمة ومنعوه من الكلام بحجة (لاصـوت يعلو فوق صـوت المعركة) ورفع عبد الناصر هـذا الشعار ، وخفت بذلك صوت الأحرار ، ووضعت بذلك الكمامات فوق أفواه الشعب ، وأرتفع صوت السوط .

وأتخذوا هـذا الشعار حصنا يحميهم من مطالب الشعب فاذا طالب الشعب بحل أزمة المواصـلات أو حل أزمة الاسكان أو غير ذلك من الأزمات التى زادت واسـتفحلت بسـبب الأهمال والرشـوة والعمولات والفساد ، صاحوا فى وجهه قائلين (لاصـوت أعلى من صوت المعركة) وخيم الصمت على أفواه النـاس اللهم الا قلة قليلة من الأحرار الـذين تكلموا وكان مآلهم أن يزج بهم فى غياهب السـجون ، منهم من قضى نحبه فى السجن ومن خرج حيا خرج بعاهة لازمته وأقصى ما أصيب الشـعب به فى هذا العهد هو الخوف ، الخوف الذى سيطر على النفوس ، الخوف

(٩٧) أنظر نص البيـان المنشـور بجريدة أخبـار اليوم بتـاريخ ١٩٧٤/١٠/١٩

من الحاكم الظالم ، الخوف من أعوان الحاكم الظالم وجواسيسه حتى وصل الخوف بالناس الى خوف الصديق من صديقه والزميل من زميله واستحات البلد كلها الى سجن كريه .

وتسبب هذا الكبت فى انفجار الطلبـــة فى الاســـكندرية والقـــاهرة بمظاهرات هادرة تحتج وتطالب بالحريات ، وتوجه الطلبـــة الى مجلس الأمة (الشعب) يطالبون بالحريات ، كما توجهوا الى مبنى جريـــدة الأهرام وقذفوها بالحجارة وحاولوا حرقها وكانت هتافاتهم بسقوط محمد حســـنين هيكل رئيس تحرير جريدة الأهرام بؤرة الدعايـــة والتضـــليل والافســـاد .

وكان شيئا قاسيا أن يوصم الطلبة بعد التحقيقات المزيفة بأنهـــم وقعوا فريســـة لبعض عملاء اسرائيل الذين دبروا هذه المظاهرات لصالح اسرائيل ، وهكذا فالوطن الـــذى يطالب بالحرية لا يمكن أن يكون الا عميلا فى نظر من اضاعوا البلد وافســـدوها حتى هزمت على يد اقـــل الأمم واحقرها .

واستجابت القيادة القائمة الجماهير الملحة بضرورة التغيير ، فاصدرت بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ تأكيدا المطالب الشعبية .

بيـــان ٣٠ مارس ١٩٦٨ :

هو عبارة عن خطة للتغيير بطريقة عملية استجابة لمطالبة الجماهير القوية بعد النكسة بضرورة التغيير وأمام هذه المطالبة أعلنت القيادة القائمة بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ ، وهى محاولة لتطبيق مبادىء الميثاق الوطنى تطبيقا عمليا من اجل حشد كل قواتنا العسكرية والاقتصادية والفكرية على خطوطنا مع العـــدو لتحرير الأرض وتحقيق النصر ، وتعبئة كل الجماهير بما لها من امكانيات وطاقات من أجل واجبات التحرير والنصر .

وأعلن البيان أنه قـــد بدأ التغيير باعادة تشكيل الوزاره الجديدة ، وكانت هـــذه الوزارة تختلف عن الوزارات السابقة فى التشكيل فقد كانت الوزارات

السـابقة تعتمد فيها السـلطة على أهل الثقة الموالين للثورة بصرف النظر عن خبرتهم فى ميدان عملهم ، أما هـذه المرة فقد جاء الى مواقع الحكم بصفوة من شباب هـذا الوطن لايدين أحد منهم بمنصبه لأى حال سـوى اعتبار عمله وتجربته فى العمـل السياسى ، وهم على أى حال يمثلون جيلا جديدا يتقدم نحو قمة المسئولية(٩٨) .

وكان معنى ذلك أن الثورة بدات تغييرا واضحا حيث أعلنت انهـا ستعتمد على أهل الخبرة ونبذت الفكرة القديمة فى اعتمادها على أهـل الثقة الذين كونوا مراكز القوى .

كما وعـد بيان ٣٠ مارس باجراء تغييرات أخرى فى قيادات الانتاج وفى السلك الدبلوماسى وفى المحافظين وفى رؤساء المدن .. وأشار الى أن بعض هؤلاء المسئولين لم يكن على مستوى المسئولية سياسيا وتنفيذيا ومن الضرورى عليهم افساح المجال للأقدر والأجدر(٩٩) .

الا أن هـذا التغيير لم يعـد أن يكون تغييرا للأشـخاص وكان الأسلوب كما هو فقد سار الأشخاص الجدد على نفس الأسلوب الـذى سبق اليه غيرهم .

وعلى الرغم من أن بيان ٣٠ مارس اشار بأن الثورة اسـتطاعت أن تتخلص من مراكز القوى الا أن هـذا كان مجرد وهم ، لأن مراكز القوى ظلت مسيطرة كالأخطبوط على الحياة المصرية وعاقت مسيرة الشعب ، ووقفت فى وجه كل تصحيح وتغيير طالب به الشـعب خوفا من ضـياع نفوذها ومن ابراز ما كان خافيا من تصرفاتها .

مراكز القـوى :

ظهرت فى الفترة من ١٩٥٢ الى ١٩٧١ طبقات جديـدة فى الأجهزة

---

(٩٨) انظر بيان ٣٠ مارس . تحت عنوان تغييرات أخرى .
(٩٩) انظر بيان ٣٠ مارس تحت عنوان تغييرات أخرى .

التنفيذية والقطاع العــام والمؤسسات السياسية والعسكريــة ، وكانت هناك عناصر عسكرية أصلية قــد تركت مكانها فى الجيش واشــتغلت بالعمــل الادارى فى المؤسسات والمصانع ، وشغلت كثيرا من المناصب الهامة فى الحياة المدنية ، ونظرا لعــدم خبرتها من ناحية ، وتوهمها انها صاحبة حق فى استغلال مراكزها من ناحية اخرى ، استشرى فســادها فى البلاد وكونت مراكز للقوى محاولة الحفاظ على مكاسبها وتوسيع نطاق قواتها ، وارادت أن تكون تحالفا جديدا من المنحرفين متآمرة بذلك على تحالف قوى الشعب العامل وحاولت عرقلة المسيرة الثورية .

ولقد حصلت هــذه الفئة على امتيازات كثيرة دون وجه حق واستغل هؤلاء مراكزهم فى الســلطة للقضاء على مكاسب الثورة والاستفادة من منجزاتها لمصالحهم وتطلعاتهم الطبقية ، محاولين بذلك أن يرثوا الرأسمالية القديمة البالية ، واشاع هؤلاء جوا من الذعر والخوف بين صفوف المعارضين من الشعب او من تحدثه نفســه بالمعارضة ، فكانت لهم سلطة فى اعتقال الأحرار بدون أمر صــادر من القضاء ، أو حتى موافقته ، وهكذا زج بالأحرار فى غياهب السجون والمعتقلات بلا تهمة ولم تكن هناك مدة محدوده لذلك الاعتقال الأثيم وقضى كثير من هؤلاء نخبه ابان فترة الاعتقال .

وهكذا استغلت مراكز القوى نقطة الحفاظ على الثورة لتضرب كل صــوت معارض ، حتى تحول الوطن الى سجن كبير واصبح كل من ينقد

---

(١٠٠) انظر من هذه الكتب : (١) — (ســنة أولى سجن الكاتب الصحفى مصطفى أمين ، (٢) — (فى الزنزانة) للمستشار على جريشة ، (٣) — (سنوات عصيبة) للنائب العام محمد عبد السلام ، (٤) — وسنوات الهوان لابراهيم سعده ، (٥) — ومحاكمات الدجوى لشــوكت التونى المحامى وغيرها .

أو يناقش تنسب اليه تهمة عدم الولاء للثورة ، ويوضع فى قوائم الثورة المضادة ، وكبتت بذلك أصوات الأحرار .

وقد اتضحت أخيرا هـذه الوسائل ونشر عنها الكتاب كثيرا من الكتب(١٠٠) والمقالات بالصحف والجرائد ، وخاصة بعد أن رفعت الرقابة عن الصحف والمطبوعات فى عهد محمد أنور السادات .

وثمه مقال للكاتب أحمد حسين نشره بجريدة الأخبار(١٠١) يوضح فيه مـدى ما كانت عليه قسوة هؤلاء الجلادين فقد ذكر انه فى بداية الثورة ضاق ذرعا بالخلافات التى دارت بين اللواء محمد نجيب وبين جمـال عبد الناصر ، وانه أرسل برقية الى كل منهما نصها كالآتى :

ان مصر ليست ضيعة ورثتموها ، فتتشاجران وتتصـالحان على حسابها ، ان مصر ملك لشعبها ، وارادته هى العليا ، والشعب يريـد دستورا يحقق الديمقراطية السليمة التى عاهدتم الشعب عليهـا ، وأيدكم من اجل تحقيقها ، وهو لن يتسامح أبدا مع من يتلاعب بمشيئته » .

وفى اليوم التالى قبض عليه واخذ الى مبنى البوليس الحربى بالعباسية ، وبعد قليل رأى كثيرا من الاخوان المسـلمين يجاء بهم مقبوضا عليهم وكان من بينهم الشهيد (عبد القادر عودة) وغيره ، وكان أول ما لفت نظره أنهم فى مبنى البوليس الحربى بدأو يكتبونهم فى قوائم ليحرروا بهـا أمرا للقبض عليهم بأى شـكل من الاشكال ، ويقول « فتحسرت على الأيام المـاضية حيث كنا نسأل من جاء ليفتش بيوتنا فضلا عن ان يقبض علينا اذا كان لديه أمر من النيابة ، والويل له اذا كان لا يحمل هذا الأمر ، وها نحن أولاء يقبض علينا ولا نعرف بأمر من ولحساب من وتحت رحمة من » .

---

(١٠١) الأخبار عدد ١٩٧٥/١١/٢٧

وبدأت أولى مراحل التعذيب بحملة من الشباب تنهال عليهم فاعترض على ذلك (أحمد حسين) وقال : « ياافندم انا اعرف العسكرية تضرب بالنار ولكنها لاتسب » فكانت هـــذه الكلمة بداية للضرب الذى يؤدى الى الموت ، وكانوا الى جانب ذلك يجبروهم على الوقوف الليل بطوله الى جوار الحائط ووراءهم الجنود يحملون الســـلاح ، ثم تحدث كيف كانت تلفق التهم داخل الســـجن الحربى للأبرياء وأنه كادت تلفق اهم تهمـــة التآمر على حياة عبد الناصر لولا أن عبد الناصر استبعد هذا(١٠٢) .

وفى عهد سيادة القانون أتخذت الاجراءات القانونية الواجبة ازاء كل من شارك فى تعذيب أو قتل المعتقلين والمسجونين السياسيين وخاصـــة بعد أن نص دستور مصر الجديد الذى أقره الشعب فى أستفتاء عام فى ٢١ من سبتمبر ١٩٧١ على أن الاعتداء على الحرية جريمة . وقد كفـــل هذا الدســـتور لكل مواطن يقبض عليه أو يحبس معاملة انسانية فلا يجوز ايذاؤه بدنيا أو معنويا أو حجزه أو حبسه فى غير الأماكن الخاضعة للقوانين الصـــادرة بتنظيم السجون ، ويحتم ابلاغ كل من يقبض عليه أو يعتقل بأسباب ذلك فورا ، ويؤمن له حق الاتصـــال والاستعانة بمن يرى ، كما يحتم اعلانه على وجه السرعة بالتهمة الموجهة اليه ، كما يمنحه هـــذا الدستور الأخير حق التظلم أمام جهة القضـــاء من جراء حجزه ، مع وجوب الفصـــل فى هذا التظلم خلال فترة محدودة والا وجب الأفراج عنه حتما . وينص هذا الدستور بالاضافة الى هذا كله فى المـــادة ٥٧ منه :

« ان كل اعتداء على الحرية الحياة الخاصة المواطنين وغيرها من الحريات العامة التى يكفلها الدستور والقانون جريمة لا تسقط الدعوى الجنائية ولا المدنية الناشئة عنهـــا بالتقادم ، وتكفل الدولة تعويضا عادلا لمن وقع عليه الاعتداء » وهو نص لانظير له فى دساتيرنا السابقة امتلـــه

---

(١٠٢) أنظر : المصدر السابق .

الظروف القاسية التى مرت بها البلاد(١٠٣) .

وعلى ذلك فقد بدأ كثيرون ممن تعرضوا للتعذيب أو ممن قتل ذووهم تحت وطأة التعذيب ، بدأوا فى رفع قضايا على الدولة لتعويضهم على ما نزل بهم(١٠٤) ومازال التحقيق جاريا فى هذا الصدد .

حركة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ :

تولى السادات مسئولية قيادة البلاد بعد رحيل عبد الناصر ، ترفعت مراكز القوى شعار « الناصرية » تريد أن تحافظ على تكتلها وراء هذا الشعار ، وسعى السادات الى أسقاط هذه المراكز والقضاء عليها ، وكان هذا هو المطلب الأساسى الذى طالبت به الجماهير حين طالبت بعد النكسة بالتغيير ، وقرر الرئيس فى ١٥ مايو ١٩٧١ تصفية هذه المراكز المعادية لحرية الشعب وعلى الرغم من أن حركة التصحيح التى قادها بنجاح السادات كانت موجهة الى المنحرفين لا الى ثورة يوليو بذاتها ، فقد حاول البعض احتواء هذه الحركة وحاولوا اطلاق اسم الثورة عليها ، وفطن السادات الى تلك المحاولات فأعلن فى حسم : أولا : ليس هناك ثورة غير ثورة يوليو ثانيا : أن حركة مايو لاتصنع زعامة جديدة لأنور السادات ... » وبلور هذا القول بموضوعية شديدة فقال : « أن مصر لم تكن تعيش قبل الثورة فى عهد فاروق وهى لم تكن تعيش بعد الثورة فى عهد جمال كما أنها لاتعيش بعد مايو فى عهد أنور السادات ، وانما هى كانت تعيش فى كل ذلك عصر يقظه الشعب

---

(١٠٣) انظر : الدستور الدائم لجمهورية مصر العربية . طبع هيئة الاستعلامات ، القاهرة سنة ١٩٧١ ، المادة ٥٧

(١٠٤) من هؤلاء الذين رفعوا مثل هذه القضايا زوجة الدكتور أنور المفتى الذى قتل مسموما على يد مراكز القوى ، ومصطفى أمين الذى تعرض للتعذيب على يدهم وبعض رجال الجيش ، والاخوان المسلمين وكانوا من أكثر الجماعات تعرضا للتعذيب الوحشى .

المصرى(١٠٥) ...

واتجه السـادات الى اعادة ترتيب الأوضـاع واعادة تنظيم البيت المصرى من جديد ، فأعاد تشكيل الاتحـاد الاشتراكى من القاعدة الى القمة كما أعاد التنظيمات النقابية ، حتى تصبح قوى الشـعب العاملة صاحبة الدور الأساسى فى عملية البناء الجديد ، كما أعلن سـيادة القانون ، وقيـام دولة المؤسسات التى تعتمد على العلم والايمان فى بناء حياتهـا الجديدة ، وألغى كثيرا من أنواع الرقابة على حرية الشعب كالرقابـة على التليفونات والبريد والصحافة ، وأخرج المعتقلين من السجون وقضى على كثير من عوامل الحقد التى نشرها هؤلاء الطغاة فى البلاد وبدأ عملية تقنين الثورة بصياغة الدسـتور الدائم الذى اشتركت فى وضعه جماهير الشـعب ، ووضعت فيه كثيرا من الضمانات لأمنها واستقرارها ، اتضمن عدم نشوء مراكز قوى جديدة فى ظل سيادة القانون ودلة المؤسسات ، وأعلن فى برنامجه الجديد للعمل الوطنى انتماء حركة التصحيح لثورة يوليو مؤكدا عدة مبادىء : استمرار الثورة وحماية مبادئها فى الحرية والاشتراكية والوحدة ، والتأكيد على المنهاج الاشتراكى حلا لمشاكل التخلف ، والاعتماد على التخطيط العلمى الدقيق والتكنولوجيا المتقدمة وابراز الجانب الأخلاقى فى فلسفتنا ونظرتنا الأساسية التى تسعى لتحقيق مجتمع ذى علاقات اجتماعية وانسانية جديدة ، مع التأكيد على الممارسة الديمقراطية نصـا وعملا واشراك الجماهير فى توجيه سـلطة الحكم عن طريق المؤسسات النيابية واعطائها حق التعبير الخلاق ، والتأكيد على سيادة القـانون واحترام الحريات ، والعمل على تقديم تعريف محدد للعمـال والفلاحين حماية لنسـبة الخمسين فى المـائة المخصصة لهم والتى تعتبر الضمان الوحيد لتبوئهم مركز القيادة .

---

(١٠٥) السادات ومسئوليات البناء والتحرير ، مرجع سبق ذكره ص ٦٨

وبذلك سار السـادات على طريق التصحيح خطوات موفقة مسلحا بالتصميم على نسخ العيوب والسلبيات التى احاطت بقضية الديمقراطية والحرية ، وأرسى قيما ومبادىء للمارسـة السليمة فى ظل سيادة القانون ودولة المؤسسات النيابية ، وأكد المحافظة على تحالف قوى الشعب العاملة باعتبار انهـا هى الصيغة الملائمة لحشـد طاقات المجتمع لمعركة التحرير ، فصرح غداة حركة التصحيح فى خطابه أمام مجلس الشعب بتاريخ ٢٠ مايو ١٩٧١ : « يجب أن يسـتقيم بعد ذلك خطنا ويجب أن يزداد عمقا وأن يزداد اندفاعا ، وأقولها للتاريخ : ان عملية التصحيح التى قام بها الشعب فى ١٥ مايو فى الأسبوع المـاضى لاتصنع زعامة جديدة لأنور السـادات ولكن قيمتها وأصالتها أنها تعطى القيادة والزعامة ويجب أن تعطى القيادة والزعامة لتحالف قوى الشعب العاملة » .

وتأكيدا لدور الاتحـاد الاشـتراكى فى المرحلة القادمـة ، مرحلة التحرير ، أعلن السـادات فى بيانه الى الشعب فى ١٠ من يونيو ١٩٧١ : أن التنظيم السياسى ليس فيه مكان للرجعية التى عزلها الشـعب عن تحالفه، وليس فيها مكان للذين وقفوا موقف العداء لخط عبد الناصر ، ولا من نبذتهم الثورة خلال تطورها حماية لمسيرتها ، وليس فيه مكان لأعداء الاشتراكية ، ولا للانتهازيين أو مدعى الحقوق المكتسبة أو الموروثة .

وفى اطار اشاعة جو من الحرية أمام الشعب لتتفجر طاقاته الخلاقة ، عمل السـادات على تشجيع حركة النشر ، واتاحة الفرصة للأقلام الشابة المعبرة عن آمال شعبنا فى مرحلته القادمة ، كما قام بتطوير برامج وأجهزة الأعلام لتقوم بمعالجة موضـوعية للقضـايا السياسـية والاجتماعية ، والاسراع بتطوير التعليم ومناهجه لانه وسـيله المجتمع فى اللحاق بركب الحضارة العالمية .

وعلى الرغم من مسئوليات المعركة وحشد كل الطاقات من أجلها ، الا أن السادات أبى أن يأخذ أى قرار استثنائى ، وأخضع كل تصرف للجهاز الحاكم لسـيادة القانون ، وأكد أنـه لا عودة الى الوراء فى الممارسـة

الديمقراطية ، وفى هـــذا الصدد يقول فى خطاب له فى يناير ١٩٧٢ أمـــام مجلس الشعب : « اننى قد اخترت أن تفتح الأبواب وتمارس الديمقراطية مع اننى أعرف أن للمارسة أعباءها وتكاليفها .. فى ١٥ مايو انتهت مراكز القوى وخرج الشعب كله يدين هـــذه المراكز .. وخرج الشعب كله ينادى بممارسة الديمقراطية فى النور وليس فى الظلام » .

وبذلك خطى السادات خطوات سريعـــة نحو الاصلاح فى النواحى العسكرية والمدنية . مما أهل الدولة للانتصار العظيم فى حرب رمضـــان ١٣٩٣ هـ (أكتوبر ١٩٧٣) :.

مصر بعد حرب رمضان ١٣٩٣ هـ (اكتوبر ١٩٧٣ م) :

تمهيـــــد :

بدأت مصر وسوريا حرب رمضـــان ١٣٩٣ هـ (أكتوبر ١٩٧٣ م) ضد العدو الاسرائيلى ، وكان الهــدف من هــذه الحرب من وجهة النظر العربية ، أن تكون معركة دفاع شرعى من أجل اقامة الســلام العادل ، بمعنى أن تؤدى المعركة الى اندفاع شــعوبنا وشــعوب العالم كافة فى الطريق نحو التوصـــل الى تسوية حقيقية وجادة لكل المشاكل التى تسبب التوتر ، وعلى راسهــا انسحاب اسرائيل من كل الأراضى العربيـــة التى أحتلتها عقب حرب يونيو ١٩٦٧ ، والاعتراف بالحقوق المشروعة الشعب الفلسطينى ، وفى مقدمتها حق عودته الى وطنه الذى حرم منه وظل لاجئا طريدا فى شتى بقاع العــالم منــذ حرب ١٩٤٨ م ، وكما كان الهدف من من هــذه الحرب أيضــا مجابهة التحدى الاسرائيلى وايقــاف الغرور الاسرائيلى الذى بلغ مداه بعد هزيمة ١٩٦٧ م .

ولكن حرب رمضان كشفت عن كثير من الحقــائق ، وغيرت كثيرا من المفاهيم فى النواحى العسكرية والسياسية والاقتصادية والحضارية والعلمية ، وانعكس الكثير من آثارها على اسرائيل ومصر والعالم العربى وأفريقيا ، وعلى المعسكرين الشرقى والغربى .

فما أن قامت الحرب وحققت القوات المصرية عبور قنــاة السويس واقتحام خط بارليف الحصين وتقدم الجيش السورى فى أرض الجولان ، حتى هرع العرب يشاركون بمكانياتهم فى المعركة ، واستخدموا سلاح البترول فى المعركة وهو الذى ثبت من التجربة انه لا يقل شأنا فى التأثير عن اســـــتخدام السلاح العسكرى فى تحقيق الأهداف السياسية للامة العربية ، وفى يوم وليلة استعاد العرب ثقتهم بأنفسهم وفى امكانية اقامة سلام عــادل ومشرف لكل الاطراف فى الشرق الاوســـط .

وكان من النتائج الرئيسية للمعركة أن بدأ تحرك جاد اشتركت فيه كل

شعوب العالم التى أحست بأن الحرب فى الشرق الأوسط تمس أمن العـــالم ورخاءه ، وتعطل المصالح المشتركة للمجتمع العربى .

وعلى الرغم من أننا استعدنا الكثير عقب حرب رمضان ، فقد حررنا قناة السويس وأعيد فتحها فى يونيو ١٩٧٥ واستعدنا حقول البترول المصرية فى سيناء وخليج السويس ، وعاد المهجرون الى ديارهم فى مدن القناة الثلاث : السويس والاسماعيلية وبور سعيد ، وعلى الرغم من ذلك الا أن ما وصلنا اليه حتى الآن بعد حرب رمضان ، لم يحقق سوى جزء من حقوقنا المشروعة .

وفيما يلى نورد توضيحا ضافيا لآثار حرب رمضان (اكتوبر) ونتائجها فى المجالين : الداخلى والخارجى .

اثر حرب رمضان فى رفع الروح المعنوية العربية :

ظل الجندى الاسرائيلى طيلة ربع قرن من الزمان يبدو فى نظر العالم كله تقريبا على أنه جندى لا يقهر فى ميدان القتال اذ استطاع أن يأسر الألوف من الجنود العرب ويسقط العشرات من الطائرات العربية ويدمر الدبابات العربية دون مجهود يذكر ، وقـــد أكثرت اسرائيل من دعايتها الى حـــد أن العرب أصبحوا فى بعض الأحيان يشكون فى قدراتهم العسكرية ، الى أن فوجئوا فى أكتوبر ١٩٧٣ ، بالجنـــود العـــرب يحطمون القيود ويقهرون الاسرائيلين ويأسرون المئات منهم ويسقطون المئـــات من طائراتهم ويدمرون المئات من دباباتهم ، وخلاصة القول أن الجنود العرب قضوا على أسطورة الجنـــدى الاسرائيلى (أو السوبرمان الاسرائيلى) الذى لا يقهر .

ويذكر بعض الباحثين (ادجار أو بالانس) أن حرب أكتوبر كان لهـــا تأثير قوى على الروح المعنوية العربية سواء لدى المـــدنيين أو العسكريين اشبه بتأثير موجه من الكهرباء سرت فى أبدانهم جميعـــا وبددت الكثير من الشكوك التى كانت تحيط بهم ولم يكن فى مقدور أحد حتى أكثر الناس تفاؤلا أن يتجرأ على التنبوء بهذا الارتفاع الأســـطورى فى الروح المعنوية قبل مضى عشرين عاما ، وتنطبق على العرب الحكمة التى قالها نابليون وهى أن النسبة بين الروح المعنوية والعتاد الحربى تبلغ ثلاثة الى واحد .

تأثير حرب رمضان فى الروح المعنوية الاسرائيلية :

ومن ناحية أخرى فان المدنيين والعسكريين على حد سواء فى اسرائيل أصيبوا بصـــدمة شديدة فى حرب رمضان ، وسوف يحتاجون الى فترة من الزمن لكى يفيقوا من آثار هذه الصدمة ، وقد لا تصل اسرائيل فى اى وقت من الأوقات لذى قمة الغرور الأعمى التى كانت قد وصلت اليها قبل أكتوبر ١٩٧٣ ، فقد بددت هذه الحرب الأوهام والأساطير الاسرائيلية وقضت على حساباتهم الخاطئة وبثت فى النفوس الاسرائيلية قلقـــا وشكوكا ومخاوف لم يكن لهم عهد بهـــا . وأول ما تبدد من خطأ فى الحســـاب هو أن العرب عاجزون عنشهر حرب تقليدية وأسطورة أن العرب يفرون دائما من ميدان الحرب وانه يلزمهم جيلان على الأقل قبل أن يتمكنوا من تضـــييق الفجوة التكنولوجية بينهم وبين اسرائيل ناهيك عن سدها فقد شهر العرب هجمات ناجحة على كلا الجبهتين السورية والمصرية ، وكان الاسرائيليون هم الذين فروا أمامهم ، وقام العرب بتشغيل شبكة الدفاع الجوى الالكترونية المعقدة دون مساعدة السوفييت وخاصة على الجبهة المصرية .

لقد بثت حرب رمضان فى نفوس الاسرائيليين مخاوف جديدة لم يعهدوا مثلهـــا من قبل . فقد أصبحوا يخشون أن يعاود العرب الهجوم عليهم ويخشون أن يجتاح العرب دفاعاتهم مرة أخرى ، ويخشون نشوب جولة أخرى تتعرض فيهـــا المراكز السكانية لقصف الطائرات فتلحق بهم خسائر فادحة فى الأرواح ، وكذلك بثت الحرب فى نفوسهم شكوكا فى حكمة قادتهم العسكريين والسياسيين وقد تسببت الحرب فى الاطاحة بهؤلاء القادة وعلى رأسهم (جولدا مائير) عجوز صهيون و (موسى ديان) كما بثت الحرب فى نفوسهم شكوكا فيما اذا كانت أمريكا تســـتطيع أن تزود اسرائيل بالعتاد الحربى وفى صحة الاستراتيجية والسياسة التى تنتهجها بلادهم وفيما اذا كان يمكنهم تحمل آثار حظر البترول العربى وفيما اذا كانت ايران أو أيـــة دولة أخرى ستظل جارا ودودا لهم .

ولقد أصيب الاسرائيليون بقلق شـــديد بعد حرب أكتوبر فقد بثت الحرب فيهم قلقا جديدا لأن صـــوت العرب أصبح يحقق بعض النجـــاح فى منافسته لصوت الصهيونية فى الغرب ، كما أن الاسرائيليين يشـــعرون

بالقلق من اقتصـــاد الحرب من ارتفاع نسب الضرائب التى يدفعونهـــا ومن الأزمات الاقتصادية وطول مدة الخـــدمة العسكرية وانخفاض أرقام الهجرة الى اسرائيل وارتفاع أرقام الهجرة منها وتدهور النشاط السياحى ، والقلق من ضرورة اعتمادهم على أمريكا ومن أنه لم يعد أمامهم دولة صديقة اخرى فى العالم يمكنهم الاعتماد عليهـــا ، والقلق فيما يمكن أن تنتهى اليه الأمور فى يوم من الأيام ، لقد كانت الرقابة شديدة على وسائل الآعلام فى وقت الحرب تحجب أسوأ الأخبار عن الشعب أو على الأقـــل تخفف من وقعها أو تتأخر فى اعلانها ، ولا يزال كثير من الحقائق محجوبة عن الشعب الاسرائيلى حتى الآن وربما ينتا بهم الشك ، والشك يولد القلق ، مما يعنى ان الروح المعنوية الاسرائيلية ليست كما كانت من قبل .

تاثير حرب رمضان على الاستراتيجية الاسرائيلية :

أحدثت حرب رمضان تغييرا تاما فى استراتيجية اسرائيل ، فقـــد أقام الاسرائيليون خطتهم على مدى ربع قرن على الهجوم ، واتخذوا وضـــعا عسكريا هجوميا على العرب منذ نشأتهم ، ولم يكن هناك فى اسرائيل قبل حرب اكتوبر موقع دفاعى واحد ، وكان فى رأى قادتهم أن هذه السياسة حققت لهم النصر فى أعوام ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ وعادت عليهم بفائدة كبيرة ، واقنعت الشعب الاسرائيلى بأنها استراتيجية بل انها الاستراتيجية الوحيدة لاسرائيل ، وكان هدف الصهيونية فى نفس الوقت هو انشـــاء دولة يهودية قوية عسكرية محاطة بدول عربية منقسمة على نفسها وضعيفة بحيث يمكن لاسرائيل أن تسيطر عليهـــا وأن تعاقبهـــا كل على حدة اذا حادت عن الخط المرسوم لها ، وذلك بمهاجمتها بحملة عسكرية شـــديدة التأثير قصيرة الأمد ، وقد اكتسبت اسرائيل تفوقها العسكرى من اعتمادها على أمريكا التى تمدها بالســـلاح . بلا حدود ، وبأسلحة متطورة لاتحصل عليهـــا الدول العربية . وقد سمحت هـــذه المزايا لاسرائيل بانتهـــاج استراتيجية هجومية كادت تحقق هدف الصهونية فى يونيو ١٩٦٧

وفجاة قذفت بهم حرب اكتوبر ١٩٧٣ من استراتيجية الهجوم الى موقف الدفاع لأول مرة ، فعندما عبرت القوات المصرية والسورية الحدود اضطر الاسرائيليون الى الدفاع عن خط بارليف ولكنهم رفضـــوا فى بادىء

الأمر قبول الدفاع كنظرية واجبة الاتباع واعتبروه ضرورة مرحلية ، وفى الأيام الثلاثة الأولى من حرب أكتوبر على الجبهة المصرية قام قواد الدبابات الاسرائيلية بشن هجوم بسرعة فائقة على المصريين لارهابهم واضطرارهم للفرار ، وكانوا يهاجمون بلا هواده الا أنهم كانوا يفشــلون فى كل مرة ويصابون بخسائر جســيمة ، ودمر المصريون لهم أكثر من ٢٥٠ دبابــة اسرائيلية على أيدى المشاة الذين صمدوا فى الصحراء المكشوفة ، ومعهم الصواريخ والقذائف المضادة للدبابات ، وعند ذلك أدرك الاسرائيليون بعد أن تكبدوا هذه الخسائر أن وضــعهم الهجومى ليس الا عملا انتحاريا . بالنسبة للجوحل باسرائيل نفس المصير اذ تمكنت وسائل الدفاع الجوى العربى من اسقاط ما يقرب من أربعين طائرة اسرائيلية فى أقل من ساعين ، مما جعل سلاح الطيران الاسرائيلى يسارع بوقف كافة العمليات فترة من الوقت للتفكير فى استخدام تكتيكات جديدة .. ومرة أخرى تبين لهم أن استراتيجية الهجوم عمل انتحارى فى الجو أيضا .

ولم يعد الجندى الاسرائيلى يتقدم للامام وهو واثق أن العرب سوف يفرون تلقائيا قبل أن يقترب منهم ، وسرعان ما أدرك أن الدفاع أصــبح حيويا لبقائه على قيد الحياة ، وكانت القوات الاسرائيلية التى تسللت الى الضفة الغربيــة لقناة السويس كانت تتحرك ببطء وحــذر وبالليل كانت الدبابات تتكدس فى مجموعات وتبث حول نفسها عددا هائلا من الالغــام لحماية نفسها مما يعتبر الغاء لقدرتهــا على الحركة ، وعنــدما أضطر الاسرائيليون الى الجلاء عن الضفة الغربية رفع سلاح المهندسين المصريين أكثر من ثلاثة أرباع مليون لغم من المنطقة التى أحتلهــا الاسرائيليون فترة وجيزة .

وبعد حرب أكتوبر أصبح الاسرائيليون مقتنعين تماما بضرورة التفكير بعقلية دفاعية ، فأنفقوا ملايين الدولارات على بناء خطين دفاعيين أولهما فى ســيناء فى مواجهة القوات المسلحة المصرية ، والآخر فى هضبة الجولان فى مواجهة الســوريين ، وأصبح الدفاع التقليدى الــذى طالمــا كانت اسرائيل تنظر اليه بعين الاستعلاء قبل الحرب أصبح مقبولا عســكريا لحماية الحدود الاسرائيلية .

وصفوة القول أن اسرائيل ارغمت نتيجة لحرب أكتوبر على انتهاج استراتيجية دفاعية جـــديدة تقوم على سياسة بناء سلســـلة من خطوط الانسحاب ربما تمتد الى داخل اسرائيل ذاتها . وكانت اسرائيل فيما مضى تعتمد بدرجة كبيرة على سلاحها الجوى ، ولكنه تلقى ضربة قاصـــمة من شبكات الدفاع الجوى العربية ، فتوخى الحذر بعد ذلك مما أسهم فى التغيير الذى طرأ على استراتيجية اسرائيل .

حرب رمضان والوحدة العربية :

افتقد العرب منذ زمن طويل وحدتهم وأصبحت هذه الوحدة كالسراب فى العصر الحديث ، وقد عايش العرب الوحدة وعرفوا قيمتها أكثر من مرة فى تاريخهم الطويل كما حدث على ســـبيل المثال فى صدر الاسلام وأبان الفتوح الاسلامية وازدهار الدولة الاسلامية فى العصرين الأموى والعباسى ، كما جربوا وحـــدة الصف أبان الحروب الصليبية واظهروا فيها كثيرا من ضروب التصميم على مواصلة الكفاح حتى تحقق لهم النصر . ولعل من النتائج المســـتفادة من دروس تاريخنا الطويل اهمية قوة العامل الـــدينى فى الدفاع عن البلاد فقد برزت أهمية العـــامل الدينى فى تعبئة الشـــعوب العربية للجهاد فى ســـبيل حماية الاسلام ، وبذلك نرى أنه لم يحدث قط فى تاريخ الأمة العربيـــة من عصر الفتوح الى حرب رمضـــان أن انخذلت أمتنا فى معركة كانت العقيدة لواءها والايمان ذخيرتها وارادة الجهاد سلاحها وهذا هو التفسير الحقيقى لتاريخنا .

ولكن التحدى الصهيونى الذى واجه العرب فى العصر الحديث قد جاء متغيرا جـــديدا فريدا فى شكله وفى موضوعه وفى طبيعة أبعاده وفى مدى خطورته وفى نتائج النضـــال فى سبيل مواجهته ، فان صـــنع اسرائيل لم يجىء عقب غزو فجائى من الخارج كما جاء الغزو الفارسى أو الرومى أو التتارى أو الاستعمارى الأوربى الحديث ، ولكنه جاء بعد فترة غير قصيرة من التسلل والغلغل ثم حشدت الصهيونية فيها دهاءها وتخطيطها ومثابرتها ثم أو حدت لنفسها موطىء قـــدم فى المنطقة العربية ولكن بالتدريج وفقا لخطة منظمة نفذت فى غفلة من الغرب ، وفى فترة انشغلوا خلالها بمعارك تحريرية كان عليهم أن يخوضوها ضـــد الاســـتعمار الجاثم على أوطانهم ، ثم أن

الاستعمار الصهيونى قد استند الى مبررات تاريخية مؤكدا على فكرة أن فلسطين تمثل أرض الميعاد ، وعلى الرغم من أن هذه المبررات واهية وعلى درجة كبيرة من السخف الا انها أضافت جديدا لموضوع هذا الاستعمار وطبيعة أبعاده مما يميزه عما سبقه من الغزوات الأجنبية التى عرفتها المنطقة ، وهو الى جانب ذلك استعمار استيطانى لم يعرف العرب له مثيلا من قبل فى ديارهم قام بطرد عرب فلسطين الى ما وراء حدود وطنهم واحلال اليهود محلهم بالقوة منذ عام ١٩٤٨

واصبح على العرب أن يواجهوا هذا التحدى غير أن مواجهتهم له فى عام ١٩٤٨ لم تحقق قدرا يذكر من النجاح وذلك على الرغم من وحدة الموقف العربى فى مواجهة عسكرية مع الصهونية ، وجاءت معارك ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ فلم يحقق العرب نجاحا يذكر بل على العكس منوا بهزائم سحيقة بسبب تفرق وحدتهم واختلاف مشاربهم وتحكم الأطماع الشخصية والأحقاد فى مسيرتهم ، وظلت قوة اسرائيل فى نمو مطرد منذ حرب يونيو وراح قادة اسرائيل يتشدقون بجيشهم الذى لا يقهر ويعلنون على العالم أن العرب قوة انتهى أمرها بعد أن أدت دورها فى التاريخ .

وجاءت حرب أكتوبر فأبرزت وحدة الموقف العربى أمام العدو الاسرائيلى وفى وجه من يقفون وراء العدو الصهيونى فما ان أذيع نبأ اقتحام الجيش المصرى لخط بارليف الحصين وتقدم الجيش السورى فى أرض الجولان حتى هرع العرب يشاركون بامكانياتهم فى المعركة كل على قدر طاقته وفى حدود ظروفه فقدمت كل من المغرب والجزائر والسودان والكويت والأردن والعراق والسعودية وحدات رمزية من قواتها للمشاركة فى القتال على الجبهة جنبا الى جنب مع القوات المصرية والسورية، وقامت اليمن الجنوبية باغلاق مضيق باب المندب فى وجه السفن الاسرائيلية وقامت البحرين بالغاء اتفاقية (جبير) التى كانت تجعل للولايات المتحدة وجودا بحريا فيها ، وقام العرب بتزويد أشقائهم المحاربين بالمال والعتاد الحربى ، كما وحدوا مجهودهم السياسى الأعلامى ، وأعلنوا استخدام سلاح البترول وسارعت الدول العربية المنتجة له فى استعماله كسلاح اقتصادى لصالح الصراع سواء بتخفيض الانتاج أو بفرض الحذر على التصدير

أو برفع الأسعار وثبت للعرب على نحو لم يسبق له مثيل أن البترول ليس مجرد مورد اقتصادى بل أنه أيضا مصدر للقوة الدولية والهيبة السياسية .

ويعتبر هـــا الاحتشاد التلقائى على الرغم من وجود خلافات متعددة بين العرب ، ثمرة من ثمار النصر العسكرى الرائع الذى حققته القوات المســلحة المصرية والسورية فى مواجهة عدو شرس أعد نفســـه للحرب بأحـــدث المعـــدات ، وظهر العرب فى معاركهم ضـــد العـــدو الصهيونى بأنهم قادرون على ادارة الحرب الحديثة ، كما ظهرت قدرة العرب الكامنة على الوحدة تجاه الأخطار .

وهكذا كانت المعركة العسكرية كما عبر عنها السادات فى مؤتمر القمة العربى بالجزائر فى نوفمبر ١٩٧٣ (كانت الشرارة التى فجرت الصراع) وكان دورها الرئيسى فى هـــذا المجال أنها وضعت الأمة العربيـــة على الطريق الســـليم بما أثبتته من توفر القـــدرة العسكرية والتكنولوجية لدى العرب ، وبالقضاء على فكرة التفوق الاسرائيلى والقضـــاء أيضا علـــى فكرة الاسترخاء العسكرى الذى طالب به البيان المشترك الصادر عن لقاء نيكسون وبريجنيف فى مايو ١٩٧٣

وكان من أعظم نتائج حرب أكتوبر انها أبرزت دور البترول العربى كواحد من أهم عناصر القوة العربيـــة على المستوى العالمى ، بعد ان أتحدت كلمة الدول العربية المنتجة له على استخدامه فى الصراع المصيرى بين الأمة العربية والصهيونية العالمية وقـــد كانت حرب رمضان المجيدة المناسبة الملائمة التى اتحـــدت فيها لأول مرة كلمة هذه الدول ومعها سائر دول منظمة الأوبك على رفع أســـعار البترول دون موافقة الشركات المنتجة وسرعان ما قفز دخل الدول العربيـــة المنتجة للبترول الى آلاف الملايين من الدولارات وبدأت الأموال الفائضة تغذى مشروعات التنمية العربية .

ومن المشروعات الجماعية الجديرة بالتنويه مشروع الشركة العربية للاستثمارات البترولية التى أقر وزراء البترول العرب انشاءها برأسمال قدره مليار دولار ، ومشروع انشاء شركتين عربيتين للتعدين لتنمية الثروة الحيوانية برأس مال قدره ١٥٠ مليون دينار كويتى ومشروع الشركة العربية لأنابيب البترول التى تم توقيع عقد تأسيسها فى ديسمبر ١٩٧٣ بين مصر

والسعودية والكويت وابو ظبى براسمال مقداره ٤٠٠ مليون دولار لتمويل وتشغيل خط الأنابيب بين السويس والاسكندرية ، ثم الاتفاق الذى وقعه وزراء البترول العرب فى ١٤ سبتمبر ١٩٧٤ بانشاء صندوق خاص لمساعدة الدول العربية على تنفيذ مشروعات التنمية براسمال قدره ٣٠٠ مليون دينار كويتى .

هذا عدا المشروعات الثنائية مثل مشروعات التعاون الاقتصادى بين مصر والسعودية مثل انشاء الشركة المصرية السعودية للاستثمارات الصناعية براسمال قدره ١٠٠ مليون دولار وحصول مصر على قرض سعودى طويل الأجل بمبلغ ٦٠٠ مليون دولار ومشروعات بين السعودية وسوريا وبين السعودية أيضا ولبنان ، ومشروعات للتعاون الاقتصادى بين مصر والكويت بلغ حجمها نحو ٢٣٠٠ مليون دولار وغير ذلك من المشروعات .

وصفوة القول أن حرب أكتوبر افلحت فى أن يقف العرب على الخط السليم والطريق القويم للتعاون العربى المثمر ونبهتهم تنبيهـا قويا الى استثمار أموال البترول العربى فى مجال التنمية العربية والاسلامية من أن يظل أموالا مجمدة فى البنوك الأوربية تعود فوائدها على دول طالما استغلت البلاد العربية ، وبذلك برز التضامن العربى والاسلامى بعد حرب أكتوبر وحقق مزاياه .

ولعل من المفيد أن نذكر أن شخصية السادات كان لها دور كبير فى تجاوب العرب أبان حرب أكتوبر ، فعلى الرغم من ايمان السادات بالوحدة العربية الا انه أهتم قبل المعركة بوحدة الصف العربى أمام العدو ، بمعنى أن التضامن العربى يكفى فى هذه المرحلة ريثما تتهيأ للعرب الظروف الملائمة للوحدة ، ونجح السادات بهذه السياسة الحكيمة فى استقطاب غالبية العرب الذين كانوا ينظرون الى مصر من قبل بعين ملؤها الخوف بسبب تهديدات جمال عبد الناصر لهم ، وسياسته العدائية التى نتج عنها قطع خطوط الاتصال بين مصر واشقائها العرب فلسياسة السادات الحكيمة الفضل فى تهيئة المناخ الصحى لهذه الوحدة التى تحققت للعرب أبان حرب أكتوبر .

تأثير حرب رمضان فى أفريقيا :

تمكنت اسرائيل حتى عام ١٩٦٧ بفضل نشاطها فى أفريقيا أن تحصل على تأييد الدول الأفريقية بوجه عام لسياستها الخاصة بتدعيم الوجود الصهيونى فى فلسطين ، كما تمكنت من تدعيم نفوذها السياسى فى أفريقيا ، وقد ساعد اسرائيل على ذلك الضعف النسبى للسياسة العربية فى أفريقيا واستغلال اسرائيل للمجال الأفريقى والفراغ الموجود فى أفريقيا فسبقت العرب فى هذا المجال ، واسفرت نتائج حرب ١٩٦٧ عن اتخاذ العديد من الدول الأفريقية مواقف اقل تأييدا للعرب الأمر الذى منع الجمعية العامة المتحدة فى دورتها الطارئة سنة ١٩٦٧ من اتخاذ قرارات بصدد الانسحاب الاسرائيلى من الأراضى العربية المحتلة وقد كان ذلك صدمة للجانب العربى ولذلك تغيرت تكتيكات المواجهة العربية لاسرائيل فى أفريقيا الأمر الذى ساعد بدوره على تزايد الادراك الأفريقى لحقائق الصراع العربى الاسرائيلى فى اطار المصالح والعوامل المؤثره مما أدى بعد ذلك الى اتخاذ مواقف أكثر تأييدا للجانب العربى من خلال القرارات التى اتخذت فى المنظمات الدولية ، وتزايد التأييد الأفريقى الى حد قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل حيث قامت تسع دول أفريقية بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل قبل نشوب حرب أكتوبر .. وبعد نشوب الحرب قطعت عشرون دولة أفريقية أخرى علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل وبذلك بلغ العدد الاجمالى للدول الأفريقية التى قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل ٢٩ دولة ولم يبق الا (ملاوى وسوازيلاند وليسوتو وموريشيوس) .

وكان هذا الموقف المتضامن مع العرب تنفيذا لقرارات منظمة الوحدة الافريقية المتضامنة مع العرب وزيادة فعالية السياسة العربية تجاه أفريقيا تمشيا مع المصالح المشتركة ونشاط القيادة المصرية على مستوى الرؤساء والوزراء ، وزيادة التفاهم المتبادل بين الأفريقيين والعرب .

وفى أعقاب ذلك اتخذت منظمة الوحدة الأفريقية عدة قرارات تؤيد فيها النضال العربى وتدين اسرائيل وتطالب بالانسحاب غير المشروط لاسرائيل من الأراضى العربية المحتلة واستعادة الشعب الفلسطينى لحقوقه الوطنية المغتصبة .

وفى مواجهة هذا التجاوب الأفريقى قرر مؤتمر القمة العربى المنعقـد بالجزائر فى الفترة من ٢٦ الى ٢٨ نوفمبر ١٩٧٣ اتخاذ عدة خطوات لتدعيم التضامن الأفريقى كان من بينها : دعم التعاون العربى الأفريقى فى المجـال السياسى وقطع جميع العلاقات الدبلوماسية والقنصلية وغيرها مع جنوب أفريقيا والبرتغال وروديسيا من قبل الدول العربية التى لم تقم بذلك بعد ؛ وتطبيق حظر تام على تصدير البترول العربى الى هذه البلدان الثلاثة ؛ واتخاذ اجراءات خاصة لامداد البلدان الأفريقية الشقيقة بالبترول العربى ؛ ودعم التعاون الاقتصادى والثقافى مع الدول الأفريقية الشقيقة وذلك على المستوى الثنائى وعلى مستوى المؤسسات العربية والأفريقية ومواصلة التأييد الدبلوماسى والمـادى لكفاح منظمات التحرير الأفريقية ، وعملت الدول العربية على تنفيذ القرارات على مسـتوى الدول العربية الفردى والجماعى من خلال الجامعة العربية كما انشـأت الدول العربية المصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى أفريقيا وذلك لدعم التعاون الاقتصادى والمالى والفنى بين الدول الأعضاء والدول الأفريقية من خلال تقديم القروض لتمويل التنمية الاقتصادية للدول الأفريقية وتشجيع مساهمة رؤوس الأموال العربية فى التنمية الأفريقية ، وبلغ رأسماله ٢٣١ مليون دولار ومقر المصرف مدينة الخرطوم وتم تشكيل مجلس ادارته وتقرر أن يزاول نشاطه فى عام ١٩٧٥

كما قرر وزراء البترول العرب انشـاء صندوق القروض للـدول الأفريقية وذلك فى اجتماعهم بالقاهرة فى يناير ١٩٧٤ ويعمل على تقـديم القروض بفائدة رمزية تقدر بـ ١٪ ورأسماله ٤٠٠ مليون دولار على أن يلحق فيما بعـد بالمصرف العربى للتنمية الاقتصادية آنف الذكر . كما وافق المجلس الاقتصـادى لجامعة الدول العربية فى ديسمبر ١٩٧٣ على انشاء الصندوق العربى للمعونة الفنية الأفريقية والعربية والمجموعة الأفريقيـة فى شتى المجالات عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣

وبذلك يمكننـا القول بأن حرب أكتوبر عجلت بالتضـامن العربى الأفريقى للوقوف على الطريق الصحيح من منطلق معادات العرب والأفريقيين للنظم العنصرية العميلة سـواء فى اسرائيل أو فى جنوب أفريقيا وروديسيا ، وتمكن العرب من ابراز اسرائيل امام الأفارقة بانها عميل للدول الاستعمارية

فى أفريقيا ، وبذلك قام التعـاون العربى الأفريقى على أسـاس الكفاح المشترك ضد العنصرية والاستعمار العالميين من أجل سيادة جميع الدول وسلامتها ووحدة أراضيها واستقلالها السياسى وتمثلت مجالات التعاون فى الميادين السياسية والاقتصـادية والعلمية والثقافية ، ولقد توج هـذا التعاون بانعقاد المؤتمر العربى الأفريقى الذى عقد فى عام ١٩٧٦ . والذى أرسى دعائم التضامن العربى الأفريقى على أسس متينة .

تأثير حرب رمضان فى السياسة العالمية :

لقد أحدثت حرب رمضان عـددا من التغييرات فى الغرب أبرزها أن حلف الأطلنطى أصيب بشرخ كبير جعله لا يزال هشا حتى الآن ، وهو الحلف الذى أنشىء بعد الحرب العالمية الثانية عند بداية الحرب الباردة فى أوربا وظلت الدول الأعضاء فيه توافق على وجوده ولكنها لم تختبر جدواه حتى ذلك الوقت وقـد شعرت الدول الأعضاء بالفزع والغضب الشديد من موقف أمريكا المتسلط تجاهها ومن الوسـائل التى أستخدمتها أمريكا فى ارسال الامدادات العسكرية الحيوية على وجه السرعة الى اسرائيل ومن ثم بدأت هـذه الدول تتساءل عن الغرض من انشـاء الحلف ولاتزال تتسـاءل عن ذلك حتى الآن كما أن أمريكا شعرت بالغضب هى الأخرى لأن حلفاءها الذين يتمتعون بالحماية بفضـل المظلة النووية الأمريكية لم يقـدموا المساندة غير المشروطة لسياستها الموالية لاسرائيل ودهشت أمريكا لأن هذه الدول أتخذت مواقف مستقلة ازاء المشكلة بين العرب واسرائيل ربما بدافع حاجتها الى البترول العربى وغيره من المصالح التجارية وهى مصالح لا تتفق بالضرورة مع المصـالح الأمريكية ، ووجدت أمريكا أن حلفاءها ليسوا توابع مذعنين لها كما هو الحال بين الاتحـاد السوفيتى والـدول المتحالفة معه .

وبذلك يمكن القول بأن حرب أكتوبر كانت صـدمة لحلف الأطلنطى فعندما طلبت أمريكا من حلفائها ان يقدموا لطائراتها تسهيلات الهبوط والتزود بالوقود لتمكينها من اقامة الجسر الجوى الطويل لنقل الامدادات والأسلحة والذخائر الحيوية من أمريكا الى اسرائيل أعتذرت بعض الدول الحليفة

عن عدم تقديم هذه التسهيلات فى حين أن بعض الدول الأخرى رفضت رفضا صريحا ولم تتمكن الطائرات الأمريكية الا من استخدام مطار واحــد فى جزر الأزور للبرتغال بعد ان قدمت أمريكا وعدا للبرتغال بتأييدها فى الأمم المتحدة بشأن قضية احدى المستعمرات بهذا وحده أمكن القيام بعمليــة الجسر الجوى .

وهذا مما دعا أمريكا الى بحث الوسائل البديلة التى يمكن استخدامها فى حالة نشوء موقف طارىء كذلك الموقف الذى نشأ فى حرب أكتوبر ، لقد أصيب الجزء الجنوبى من حلف الأطلنطى بشرخ وواجهت أمريكا مشكلة اصلاح هذا الشرخ الذى أصاب دول الخط الأول فى الحلف ، كما أنها تشعر بالقلق ازاء حساسية نجاح الحلف المواجهة للشرق الأوســط والمعرض لأفكار ومثاليات العالم الثالث وهى مثاليات لا تتفق بالضرورة مع مثاليات الغرب أو الشرق .

لقد دلت حرب اكتوبر على ان امريكا تواجه فى بعض الأحيان تعارضا بين مصــلحتين استراتيجيتين رئيسيتين هما : حلف الأطلنطى واسرائيل ويصعب عليها أن تعطى الأولية لكليهما معا ولقــد أصبح واضحا أن حلف الأطلنطى لن يتمتع بالثقة أو يضمن لنفسه مقومات البقاء الا اذا أعتمد كلية على البترول العربى ، وهــذا هو السبب فى الدعاية الضخمة التى أحاطت دبلوماسية المكوك التى قام بهــا كيسنجر ، فقد اندفعت الحكومة الأمريكية بفعل حرب اكتوبر الى بذل جهود شاقة لاكتساب موطن لاقدامها فى الشرق الأوسط وتحــاول طرد النفوذ السوفيتى من الدول العربيــة لتأمين الجزء الجنوبى لحلف الأطلنطى ، وكذلك لكى تضمن تدفق البترول العربى الى الغرب فى حالة السلم والحرب .

الآثار الاقتصادية العالمية لحرب اكتوبر :

للعالم العربى مركز ممتاز بين جميع دول العـــالم فى مجال الاحتفاظ بكميات هائلة من البترول تلك السـلعة الاستراتيجية الأولى فى العالم ، وتتضاعف أهمية البترول فى الاقتصـــاد الدولى بسبب أن كافة دول العالم (باستثناء الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة وكندا والنرويج ورومانيـــا وبريطانيا — وهى الدول التى لديهـــا وسيكون لديها فى المســـتقبل القريب اكتفاء ذاتى من البترول) ســـتظل تعتمد اعتمادا كليا تقريبا على الواردات من البترول القادمة من عدد محـــدود من البلاد المصدرة له مع التركيز الشديد على البلاد الواقعة فى منطقة الخليج العربى وهى كلها دول عربية ما عدا واحـــدة هى ايران وهكذا فان حوالى ثلثى البترول فى العالم انما ينتقل عبر طريق التجارة الدولية حيث تعادل قيمة الصادرات البترولية قيمة كافة الصـــادرات الزراعية والمعدنية الأخرى ، ومن هنا ارتبط البترول بالعرب وكان المركز الفريد الذى يحتلونه بالنسبة الى هذه المـــادة الهامة سواء من حيث الانتاج أو الاحتياطى المخزون فى باطن الأرض أو التصدير وفى هذه الجوانب الثلاثة للبترول كلها تبرز المملكة العربية الســـعودية باعتبارها مركز الثقل بين الدول العربية المنتجة للبترول وباعتبارها المركز الرئيسى الذى تحتله ضمن دول العالم المنتجة له قاطبة بالاضافة الى هذا فان السعودية انما تتميز بقدرتها الكبيرة على زيادة انتاجها الجارى من البترول بحوالى ٥٠ ٪ ٠

وفى جانب الانتاج نجد أن الدول العربية قد أنتجت فى عام ١٩٧٤ : ٣٣ ٪ من الانتاج العالمى للبترول وكانت نسبة انتاج السعودية هى حوالى ١٤ ٪ من هذا الانتاج العالى تليها الكويت ٤ ٪ ثم العراق بنسبة ٣ ٪ ثم أبو ظبى بنسبة ٣ ٪ ثم ليبيا بنسبة ٣ ٪ ٠

وفى جانب الاحتياطى نجد أن الدول العربية تتمتع باحتياطى فى نهاية عام ١٩٧٤ يزيد قليلا عن نصف الاحتياطى العالمى (٥٢ ٪) وتأتى السعودية فى المقدمة (٣٢ ٪) تليهـــا الكويت (١٠ ٪) ثم العراق ٥ ٪ ثم أبو ظبى ٤ ٪ (طبقا لمـــا جاء فى مجلة نفط العرب العدد العاشر السنة العاشرة تموز — يوليو ١٩٧٥) ٠

وفى جانب صادرات البترول نجد أن الدول العربية المصدرة للبترول (السعودية — الكويت — العراق — الامارات — قطر — ليبيا — الجزائر) قد صـــدرت فى عام ١٩٧٤ حوالى ٦٣٪ من صادرات الدول الاحدى عشر الرئيسية المصـــدرة للبترول وهى (الدول العربية السبع الآنفة الـــذكر بالاضافة الى ايران ونيجيريا وفنزويلا وأندونيسيا (وقد أحتلت السعودية أيضا مركز الصدارة فقد صدرت حوالى ٣٠٪ من صـــادرات الدول الاحدى عشر .

ويلاحظ أن الدول العربية المنتجة للبترول — ظلت منذ اكتشافه وانتاجه تحت رحمة الشركات المنتجة للبترول فيما يتعلق بأسعار بيعه وبالنصيب الذى تحصـــل عليه حكومات هذه الدول وكانت تأخذ نصيبا بسيطا من من عائدات البترول فكانت تأخذ فى الخمسينات حوالى ٦٠ سنتا من البرميل المنتج من البترول (الدولار الأمريكى يســـاوى ١٠٠ سنت) وسارعت الدول المنتجة للبترول فى الستينات للحصول على نسبة أكبر من عائدات البترول فلم تفلح وفى سنة ١٩٧١ حدث رفع جزئى للسعر المعلن للبرميل .

وعندما وقعت حرب رمضـــان ١٣٩٣ (أكتوبر ١٩٧٣) ونجحت الدول العربية فى استخدام سلاح النفط فى المعركة ، بعد أن نجح جنود مصر البواسل فى اقتحام قناة السويس وخطوط الدفاع الاسرائيلية الحصينة شرق قناة السويس شعرت الدول المنتجة للبترول لأول مرة فى تاريخها بقوتهـــا وتأكدت من قدرتها على ضمان حقوقها فى ثرواتها بعد أن تيقنت من أن الأسعار التى كان يباع بهـــا بترولها هى أدنى بمراحل مما يعتبر سعرا عادلا لـــه وأعلنت الدول المنتجة للبترول فى الخليج فى ٢٣ ديسمبر ١٩٧٣ وبارادتها المنفردة دون الرجوع الى شركات البترولية رفع سعر البترول وتضاعفت أســـعار البترول أكثر من أربعـــة أضعاف دفعة واحدة عقب حرب أكتوبر وكانت هـــذه الزيادة نتيجة مباشرة من نتائج حرب اكتوبر ، وفى ديسمبر ١٩٧٤ قرر مجلس منظمة الأوبك المنعقد فى فينا تحديد عائدات الحكومة المنتجة من كل برميل بمقدار ١٠ ، ١٢ دولارا وذلك اعتبارا من أول يناير ١٩٧٥ ، وقد ترتب على هذا التضاعف لأسعار البترول بما يزيد على أربعة أضعاف خلال فترة وجيزة ان زادت فاتورة البلاد الصـــناعية المستوردة

للبترول بمبلغ ٦٠ مليون دولار فى عام ١٩٧٤ وحده وكل هـــذه الزيادة فى السعر حققت دخلا اضافيا للدول المصدرة للبترول قدر بعشرة مليارات من الدولارات سنويا .

يضاف الى هذا أن حرب أكتوبر هى التى أعطت الفرصة للـــدول المنتجة للبترول الشعور بقوتها كمجموعة متحدة المصـــالح وحرب أكتوبر هى التى مكنتهـــا من استخدام هذه القوة لصالحها بمضاعفة أســـعار بترولها بارادتهـــا المنفردة وذلك رغما عن القوة الهائلة لشركات البترول الضخمة ، وضد ارادة الدول الصناعية الرأسمالية الكبرى .

وترتب على هـــذا أن بلغت عائدات البترول للبلاد العربية حوالى ٦١ مليار دولار عام ١٩٧٤ بعد أن كانت أقل من ١٢ مليار دولار فى عام ١٩٧٣ .

وصفوة القول أن حرب أكتوبر حققت نصرا اقتصاديا كبيرا للدول المنتجة للبترول وعلى راسهـــا الدول العربية ، ومكنتها من الســـيطرة والهيمنة على مواردها النفطية لأول مرة فى تاريخها وعادت عليها بفوائد مادية طائلة ، ولولا الانتصار الســـاحق للجنود المصريين والســـوريين البواسل الذين عبروا خطوط وقف اطلاق النار بينهم وبين اسرائيل بقوة وشجاعة ، لولا ذلك لمـــا تمكن العرب من أن يقفوا على أرض صلبة من الانتصـــار لكى يواجهوا العـــالم برفع أسعار مضـــاعفة لبترولهم فجأة ويفرضونها عليهم ، فعلى سبيل المثال أن العرب لم يستطيعوا أن يرفعوا أســـعار البترول عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧ نظرا للهزيمة الساحقة التى لحقت بهم فى الميدان العسكرى والتى لم تمكنهم من مجابة الشركات المنتجة أو محاولة رفع الأسعار فى السوق العالمية .

الموقف الروسى بعد حرب اكتوبر :

كانت هزيمة ١٩٦٧ الساحقة للعرب سببا فى مزيد من اعتماد مصر وسوريا على الاتحاد السوفيتى ، على الرغم من تقاعس الاتحاد السوفيتى فى هذه الحرب وتضليله للقيـــاة المصرية ، فقد ظهرت اخيرا معالم الوقعية الروسية لاستدراج الجيش المصرى فى سيناء وضربه لكى تركع مصر نهائيا أمام الزحف السوفيتى ، لأن روسيا كانت تعلم ســلفا أن مصر المهزومة لن تستسلم لاسرائيل أو الغرب ، ولن يكون أمامها من بديل سوى مزيـــد من الاعتماد على الاتحاد السوفيتى وظهرت خيوط هذه المؤامرة القـــذرة بوضوح بعد أن كشف عبد الناصر فى خطاب التنحى فى ٩ يونيو ١٩٦٧ عن زيارة السفير السوفيتى فى ٢٦ من مايو ١٩٦٧ وطلب منه باسم حكومتـــه ألا تبادر مصر بالهجوم . وذلك بعد أن عبأ جمال عبد الناصر الجيش فى سيناء بعد أيهامه من جانب الروس أيضا بأن اسرائيل تعد لهجوم وشيك على سوريا .

وبعد الهزيمة وقع ما توقعه الروس حيث زاد عبد الناصر من اعتماده على الاتحاد اسوفيتى فاستدعى كثيرا من الجبراء السوفيت الى مصر ، وتدفق الخبراء الى وحـــدات الجيشين المصرى والســـورى وزاد الوجود السوفيتى فى البحر المتوسط واعطى عبد الناصر لهم تسهيلات باستعمال الموانى المصرية والتزود بالمياه العذبة من موانينا .

وتوفى عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وتولى الســـادات الحكم فى اكتوبر من نفس العام ، ومنذ ذلك التاريخ حدثت مجموعة من التطورات الداخلية والخارجية انبثقت كلها من شخصية الســـادات ، وكان فى مقدمتها حركة ١٥ مايو ١٩٧١ التى أطاح فيهـــا السادات بمراكز القوى فى مصر والتى تخلفت عن فترة حكم عبد الناصر ، وعلى راسهم انصـــار موســـكو فى مصر (على صبرى وسامى شرف وشعراوى جمعة) ، وبعد ذلك اصيب السوفييت بصدمة عنيفة ، واصابهم نوع من القلق على مصالحهم فى مصر ، وارسلوا وفـــدا على وجه السرعـــة الى مصر برئاســـة رئيس الجمهورية (بودجورنى) واصر الروس فى هـــذه الزيارة على عقد معاهدة صـــداقة مع مصر ، وعلى الرغم من رفضهم لاقتراح مثل هـــذه المعاهدة ايام عبد الناصر الا أن السادات وافقهم عليها فى النهاية .

وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الروس لا يقدمون عونا صادقا لمصر ازاء طلباتها الملهفة للسلاح وحاجتها الملحة لكى تقف على قدميها وتضع حدا لعربدة اسرائيل فى المنطقة ، وحدد السادات عام ١٩٧١ عام الحسم ، ولكن الروس تعمدوا خذل السادات وقصروا فى امدادات مصر بالأسلحة المطلوبة لمعركة تحرير الأرض ، واصبح واضحا أن الروس يسوفون ويماطلون ، وفى مايو ١٩٧٢ حدث تطور خطير فى لقاء القمة الأمريكى السوفيتى فقد أتفق العملاقان على « استرخاء عسكرى » فى الشرق الأوسط ، بمعنى وضع مشكلة الشرق الأوسط فى ثلاجة .

طرد الخبراء السوفييت :

من ثم اقدم السادات على خطوة جريئة فى يوليو ١٩٧٢ حيث اتخذ قراره الحاسم بانهاء مهمة الخبراء السوفييت ، واستقبل الشعب المصرى والعربى هذا القرار بحماس شديد ، وكانت وجهة نظر السادات انه طالما أن روسيا لاتحبذ القيام بعمل عسكرى ولا يمدوننا بالسلاح لتنفيذ هذا العمل فلا معنى لبقاء خبرائها فى مصر ، خاصة وانهم كانوا يتلقون اوامرهم من موسكو وليس من القاهرة ، واصبح فى وجودهم خطر على مصر فى حالة دخولها فى معركة مع العدو ، ومن ناحية اخرى فقد كان وجودهم فى مصر يعطى لاسرائيل ذريعة فى طلب مساعدات مباشرة من أمريكا فى حالة نشوب الحرب . وبذلك كان اخراجهم خطوة حاسمة لتفادى هزيمة أخرى كهزيمة ١٩٦٧ ، وضمانا فعليا لسرية الخطط والاستعدادات العسكرية لمعركة المصير .

وغضبت موسكو على مصر ورئيسها حتى أن (بودجورنى) رئيس الاتحاد السوفيتى ، حمل على العرب حملة عنيفة اثناء زيارته لتركيا فى مايو ١٩٧٣ ، وهاجم القوات المسلحة العربية بأسوأ ما يمكن أن يهاجم عدو لدود وقد قابل السادات ذلك برفضه مقابلة بودجورنى فى زيارته التى اقترحها لمصر فى يونيو ١٩٧٣

وبدأت حرب اكتوبر (١٩٧٣) بقرار مصرى سورى خالص ، فكانت هذه الحرب تعنى حرية الارادة العربية من النفوذ السوفيتى ، وعلى

الرغم من أن قوات مصر وســـوريا اثبتت كفـــاءة كبيرة فى الحرب الا أن حاجتهـــا الى السلاح كانت واضحة وعلى الأخص مصر ، وتلكأ الاتحـــاد السوفيتى فى امداداته لمصر فى أحلك ساعات المعركة ، كما أعلن ذلـــك السادات أخيرا ، وحاول الروس منذ اللحظة الأولى للمعركة التدخل لايقاف الحرب التى كانت تتطور ساعة بعد ساعة لصالح العرب . وكرر محاولته عدة مرات ، ولكن مصر حطمت القيد السوفيتى على نحو ما جاء فى برقية لوكالة أنباء الصين الجديدة نصها :

« أن مصر قد حطمت فى أكتوبر القيد السوفيتى الـــذى كان يعوق انطلاقها لمهاجمة اسرائيل ، ولقـــد أقدمت مصر على الحرب وخاضتهـــا ببسالة بعد أن حاول الاتحـــاد السوفيتى بألف طريقة أن يمنع مصر من البدء فى حرب لتحرير أراضيهـــا ، ووضع السوفييت الكثير من العقبات أمام هذه الحرب ، وارادوا لمصر أن تستسلم وتخضع لضغوطهم (١٠٦) .

وبعد حرب رمضـــان أصبح الســـوفييت فى موقف حرج لأن العرب قضوا على حجة السوفييت التى كانت تقول بأن العرب غير قادرين علـــى تحريك الموقف عسكريا ، وأصـــبح من الواجب على الروس دعم العرب عسكريا بما يوازى دعم أمريكا لاسرائيل لكيلا ترجح كفة ميزان القوى فى المنطقة لصـــالح اسرائيل ، غير أنهم تعمدوا عدم تعويض مصر على الأخص عن الأسلحة التى فقدتها فى حرب أكتوبر .

وتطورت العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى بعد ذلك من سىء الى أسوأ فأعلنت مصر فى مارس ١٩٧٦ من جانب واحد الغاء معاهدة الصداقة المصرية السوفيتية التى وقعتهـــا مصر مع الروس فى مايو ١٩٧١ ، وذلك بعد أن حول السوفييت تلك المعاهدة الى مجرد قصاصية ورق ، وبعـــد أن مارسوا ضدنا ضغوطا عســـكرية واقتصادية ضخمة أخلت بجميع بنود تلك المعاهدة .

---

(١٠٦) الأخبار عدد ١٩٧٥/١٠/٦

حرب اكتوبر والموقف الأمريكى :

مثلت حرب أكتوبر أزمة خطيرة لأمريكا مع حلفائها فى أوربا من ناحية وهددت نظـــام الوفاق بين العملاقين (أمريكا وروسيا) ، كما أثرت حرب البترول فى أمريكا وأصبح على الموقف الأمريكى أن يتحرك بسرعة لمواجهة المتغيرات أثناء وبعـــد حرب أكتوبر ، ومن ثم سعت الولايات المتحدة سعيا حثيثا وكانت القيادة الأمريكية ، (وعلى الأخص كيسنجر وزير الخارجية) ناجحة فى استيعاب هذه المفاجأة الضخمة ، وعملت على تعديل وتصـــويب الموقف وبدأ تحرك أمريكى جديد انطلاقا من الادراك للابعاد الجديدة للصراع والناتجة عن حرب أكتوبر ، وعبر كيسنجر فى مؤتمر صـــحفى عن حرب اكتوبر (فى ٢٥ اكتوبر ١٩٧٣) عن استيعابه لحقائق الموقف الجديد حين قـــال :

« نحن الآن فى نقطة حاسمة ، أن فرص السلام فى الشرق الأوسط من وجهات نظر عديدة مفعمة بالأمل اى حد كبير ، فقد اختبرت اسرائيل مرة اخرى آفة الحرب واعطيت فرصـــة للمفاوضات التى ســـعت اليهـــا طوال وجودها ، ويتوجب عليها أن تكون مستعدة للسلام العادل والدائم الذى يدعو اليه مجلس الأمن ، وأظهرت الدول العربية قلقها وتلقت ضمانات دولية بأن دولا اخرى ستهتم بهـــذه المفاوضات وهـــذه فرصة نحن مســـتعدون لرعايتها ، انها فرصة ضرورية لهذه المنطقة وهى ضرورية لسلام العـــالم وهى فرصة لا يصح للدول العظمى أن تضيعها » .

وعلى هـــذا الأساس تقرب الأمريكان من المشكلة بدرجة كبيرة لأجل التسوية على أساس قرار الأمم المتحـــدة رقم ٢٤٢ لســـنة ١٩٦٧ وجعله كيسنجر ركيزة فى تحركه الدبلوماسى فى المنطقة ، وقبل الســـادات بعقلية متفتحة أسلوب التشـــاور مع كيسنجر ، وقال عنه أننا نحاور من موقف الند للند . . ، لقد كنت اشعر بأن علينا أن نتخلى عن عقدنا ، انا شخصيا مستعد اقعد مع كيسنجر ومع روسيا ومع اى انسان وأناقش أمورى لأننى أملك قرارى بيدى(١٠٧) .

---

(١٠٧) الأهرام عدد ١٩٧٥/٩/٩

وتهيأ المسرح لممارسة الدور الأمريكى لحل المشكلة على أساس الاقتراب منها خطوة خطوة فى سبيل وضع تسوية نهائية لها ، وبدأت المرحلة الأولى من التحرك الأمريكى فى أواخر نوفمبر ١٩٧٣ ، وقبل أطراف الصراع لجهود كيسنجر لحل المشكلة ولانسحاب اسرائيل من سيناء والجولان ، وعلى أساس مراعاة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى .

وانفردت أمريكا بحل المشكلة عن طريق سياسة المكوك التى اتبعها كيسنجر فى التنقل والتشاور بين أطراف النزاع ، وتوقفت أعمال مؤتمر جنيف ونجح كيسنجر فى ١٧ من يناير ١٩٧٤ فى التوصل الى اتفاق فصل القوات الأول — بين مصر واسرائيل وانسحبت اسرائيل شرق قناة السويس وبقيت القوات المصرية فى مواقعها شرق القناة ، وواصلت مصر سياستها فى اعطاء الفرصة كاملة للدبلوماسية الأمريكية لحل المشكلة بغض النظر عن عدم مشاركة الروس لها ونجح كيسنجر مرة أخرى فى عقد الاتفاقية الثانية للفصل بين القوات فى أغسطس — سبتمبر ١٩٧٥ دون مشاركة من الاتحاد السوفيتى .

وأعلن الروس معارضتهم الصريحة للاتفاق وسلطوا السوريين والفدائيين لمعارضة مصر والتشنيع عليها بكل وسيلة أعلامية ، ورفض الروس حضور التوقيع على الاتفاق فى اطار اللجنة العسكرية لمؤتمر جنيف الأمر الذى وصفه السادات بأنه « تحريض سافر ومحاولة لشق صف الأمة العربية » .

* * *

اتفـاقية كامب ديفيـد :

فى الفترة من ١٩٤٦ الى ١٩٨٣ قـدمت أمريكا ما قيمتـه أكثر من ٢٧ ألف مليون دولار الى اسرائيل فى صيغة معونات اقتصـادية وعسكرية ، وان ٧٠٪ من كل المعونات الرسـمكة الأمريكية لاسرائيل كانت عسـكرية ، وقـد قدمت الولايات المتحدة خلال هـذه الفترة من المعونة العسـكرية لاسرائيل وحدها ما يقرب من ثلاثة أمثال ما قدمته الى الدول التسع عشرة الأخرى فى الشرق الأوسط مجتمعة بل ويتضمن ذلـك حتى المعونة التى قدمت لاسرائيل خلال حكم الشاه(١٠٨) .

ولقد نشر أحد المسئولين فى وزارة الدفاع الأمريكية مقالا عام ١٩٧٧ فى الجريدة الدولية للقوات المسلحة عرض فيه للحشد العسكرى الاسرائيلى الأخير وتعاظم المطالب الاسرائيلية للمعونة العسـكرية الأمريكية لمنتصف الثمانينات ، وهى مطالب كان الكونجرس قـد أقرها بالفعل وقد ذكر المسئول الأمريكى أن هذه الأسـلحة ستوفر لاسرائيل القدرة على شـن هجمات خاطفة على أية دولة عربيـة أو عليها جميعا قبل أن تتمكن أمريكا أو اية قوى أخرى من أن تكون لها فرصة التدخل .

فمثلا بلغ عـدد الدبابات المتوسطة التى طلبتها اسرائيل من الولايات المتحدة للفترة من ١٩٧٦ الى ١٩٨٦ ما يماثل تقريبـا العـدد الاجمـالى للدبابات المتوسطة الأمريكية الذى تنشره الولايات المتحـدة بين قواتها فى اطار حلف شمال الأطلسى (١٠٩) .

فى ضوء هـذه المعلومات التى حشدها الكاتب الأمريكى ستيفن جرين فى كتابه « الانحياز » عن حقيقة : العلاقات الأمريكية الاسرائيليـة ، فان مواجهة اسرائيل فى الوقت الراهن بالوسـائل الحربية ليست مضـمونة

---

(١٠٨) استيفن جرين ، الانحياز « عن حقيقة العلاقات الأمريكيـة الاسرائيلية منذ انشاء اسرائيل » حتى عام ١٩٨٣ ، عرض وتقديم أحمد عادل ، أهرام ١٩٨٤/٢/٢٢

(١٠٩) المرجع السابق نفس المقال .

العواقب أو هى بكل وضوح انتحـــارا لأنها تعتبر مواجهـــة لأمريكا التى تقف معهـــا بلا حدود ، وكان على العرب أن يجربوا الوسائل الســـلمية والتفاوض مع اسرائيل لكشفهـــا أمام العـــالم لأنها تقيم دعايتها علـــى أساس أنها تقع وســـط محيط عربى يبغى قذفهـــا فى البحر ولا يتفاهم معها ، وكانت هناك قناعة لدى عقلاء العرب بان الوســـائل السلمية فى الوقت الراهن أجـــدى للعرب ، لأنهم فى فترة بناء أوطانهم وتنمية بلادهم فلا يعقل أنهم كلما بنوا بنـــاء هدمته لهم اسرائيل والدول الغربية التى تقف وراءها بكل قوة والأجدر بهم أن ينتظروا الى أن يتم البنـــاء وعلى الأخص العسكرى ويختل التوازن لصالحهم وهـــذا ما سيحدث فى المســـتقبل وهى مســـألة وقت ، لكن عليهم الاستمرار فى النضال بالوسائل السلمية .

لكن لم يكن أحـــد يجرؤ فى العالم العـــربى على اعـــلان هذا الرأى فضـــلا عن التقـــدم لاسرائيل لطلب التفاوض ، غير أن انتصار مصر فى حرب رمضـــان مكن قيادتهـــا من أن تمشى فى طريق التفاوض وتجربه من عام ١٩٧٣ حتى عام ١٩٨٢ مع اسرائيل بحضـــور أمريكا وقد قاد هـــذه الجولة بشـــجاعة وصبر نادرين الرئيس المصرى محمد أنور الســـادات وعقـــد خلالها فى ٢٦ من مارس ١٩٧٩ اتفاقية « كامب ديفيد » مع اسرائيل وكانت ذات شقين :

الشق الأول : يتعلق بعودة ســـيناء لمصر واقامة علاقات ســـلام مع اسرائيل وتبـــادل التمثيل الدبلوماسى معهـــا .

والشق الثانى : يتعلق بالحصـــول على الحكم الذاتى للفلسطينيين فى غزة والضـــفة الغربية لنهر الأردن ، وقـــد وفت اسرائيل بالتزامهـــا بالنسبة للشق الأول وانسحبت من سيناء وتسلمتها مصر على مراحل تـــم بعضهـــا فى عهد الســـادات حتى أكتوبر ١٩٨١ وهو تاريخ اغتياله(١١٠)

---

(١١٠) قام باغتيال الســـادات الضابط خالد الاسلامبولى الذى قاد بضعة رجال من الجيش فى هجوم على الرئيس بالمدافع الرشاشة من على ظهر احدى دبابات الجيش أثناء الاستعراض العسكرى وكان الســـادات يجلس على منصة فى مدينة نصر لمتابعة العرض العسكرى بمناسبة الاحتفال بانتصار أكتوبر ١٩٧٣

فى ٦ اكتوبر من نفس العـــام ، وتم الباقى فى عهد خليفته الرئيس محمد حسنى مبارك فى عام ١٩٨٢.

وكانت المفاوضات حول الحكم الذاتى مستمرة بين مصر واسرائيل ولكنها تعثرت منذ عام ١٩٨٢ بسبب عربدة اسرائيل فى المنطقة وغزوها للبنان فاعلنت مصر وقف المباحثات بينها وبين اسرائيل احتجاجا على مسلك اسرائيل غير الســلمى وانحرافها الملموس عن طريق الســـلام الحقيقى بما اتخذته من ضم الجولان والقـــدس وضرب المفاعل النووى العراقى وغزو لبنـــان واستمرار سياســـة بناء المستوطنات فى الضــفة الغربيــة لنهر الأردن وغزة . وعلى كل حال فان معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية تضمنت بعض الســلبيات ، فلقد أصرت اسرائيل على عــدم الجلاء من منطقة طابا المصريـــة على الحدود بين اسرائيل ومصر على خليج العقبة ، ولقد كانت المفاوضات دائرة بشــأنها ولكنها تعثرت ، ووفقا لأحكام المــادة الســـابعة من المعاهدة ، فان اى خلاف ينشــا حول تطبيق او تفســير احكام المعـــاهدة يجب ان يحل عن طريق التفاوض فان لم يتيسر ذلك فعلى كل من الطرفين أن يلجأ الى التوفيق أو التحكيم .

ولقـــد اتفقت مصر واسرائيل على انه طالمـــا ان التفاوض لم ينجح فى حل الخلاف فعلينا أن ننتقل الى مرحلة التحكيم أو التوفيق ، وارادت اسرائيل أن تبدأ بالتوفيق ، ورأى الجانب المصرى أن الخلاف حول طابا له طابـــع فنى وقانونى ويرتبط بقراءة خرائط ومستندات . ومن ثــم فأن الاسلوب الذى يصـــلح لحل هذا الخلاف هو اســـلوب التحكيم ويرفض الجانب الاسرائيلى ذلك ويصر على أن نلجــأء الى التوفيق أولا والتحكيـــم ثانيـــا .

واضافت اسرائيل عقبة اخرى وهى اصرارها على أن يتم التفاوض فى مدينـــة القدس ورفضت مصر هـــذا المطلب وعلى ذلك فالمفاوضات متعثرة حتى يومنا هذا (مارس ١٩٨٤ م) .

وعلى الرغم من حـــدوث ازمات كثيرة بين مصر واسرائيل ســـواء فيما يتعلق بتعنت اسرائيل وطلب التفـــاوض فى القدس او غزوها للبنان وذبحهـــا للفلسطينيين فى صابرا وشاتيلا بالاشتراك مع موارنـــة لبنان ،

على الرغم من ذلك فان العلاقات الدبلوماسية مستمرة بينهما وبين مصر ويزور مصر آلاف السائحين من اسرائيل وتستمر المبادلات التجارية بين الدولتين وتستمر مصر فى تصدير بترولها لاسرائيل(١١١) .

وعلى كل حال فان معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية كانت خطوة أولى نحو السلام العادل فى منطقة الشرق الأوسط بين العرب واسرائيل ، وقد ادت المعاهدة الى نقل النزاع العربى الاسرائيلى من الساحة العسكرية الى الساحة الدبلوماسية ، ولكن اسرائيل تتمرد عى المضى فى هذا الطريق .

وتقديرنا للنتائج التى تمخضت عنها حالة السلام المؤقتة بين مصر واسرائيل أنها مكنت مصر من اعادة بناء البلاد والتغلب على مشاكل التنمية ولا شك أن هذا أفضل الآن حتى يتمكن العرب ومعهم مصر من توحيد الصف العربى والتغلب على شتى المشاكل الذاتية يوماً ينقلب ميزان القوى لصالح العرب .

* * *

(١١١) بطرس غالى من حديث له فى مجلة آخر ساعة المصرية عن اتفاقية السلام المصرية الاسرائيلية ، عدد ٢٥٧٩ — ٢٨ مارس ١٩٨٤.

محتويات الجزء الثانى
اوضاع البلدان الاسلامية
والأقليات المسلمة

الفصـــل العــــاشر

الفصـــل الحادى عشر

* * *